نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين

تحقيق

الشيخ قاسم الشماع الرفاعي

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

نور اليقين

في سيرة سيد المرسلين

تحقيق

الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الطبعة الخامسة
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٠٣١٧

تقديم

«نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»

للمرحوم العلامة المؤرخ الشيخ
محمد الخضري بك

لعل هذا السفر القيم من أوائل ما ألّفه المؤرخ الإجتماعي العلامة الشيخ محمد الخضري رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ولقد سعدت في أيام طلبي للعلم الشريف بهذا الكتاب المسند من كتاب الله تبارك وتعالى وبالصحيح من أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم كتاب حصل به النفع العظيم، لكثير من طلاب العلم الشرعي لأنه السهل الممتنع، والمختصر المفيد، بعبارة سلسة، وكلمات متخيرة، تدل على رسوخ قلم المؤلف الكبير في علمي اللغة والأدب.

واليقين ـ كما في معاجم اللغة ـ ازاحة الشك والعلم، وتحقيق الأمر، ونقيضه الشك.

وفي الاصطلاح: اعتقاد الشيء بأنه كذا، مع اعتقاد بأنه لا يمكن الاّ كذا، مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال...

واليقين عند أهل الحقيقة: رؤية العيان، بقوة الإيمان، لا بالحجة والبرهان.

وقيل: مشاهدة الغيوب، بصفاء القلوب، وملاحظة الأسرار، بمحافظة الأفكار.

والفرق بين علم اليقين، وعين اليقين. ان علم اليقين هو ادراك الشيء من غير مشاهدة، وعين الرؤية، التي اليقين، هو العلم بـه مع المشاهدة. واما حق اليقين، فهو المشاهدة مع الملاصقة والممازجة.

وقد اخبر الله بكتابه عن المعنيين الأولين في سورة التكاثر. قال الله تعالى: «كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين».

واخبر بالمعنى الثالث، الذي هو حق اليقين في سورة الواقعة حيث قال: «واما ان كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية جحيم، ان هذا لهو حق اليقين».

ولا ريب ان روحانية رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم اضفت روحانية عظيمة على هذا الكتاب ومؤلفه ـ على الرغم من كثرة المؤلفين في السيرة ـ وبقي متداولاً بين أيدي المسلمين، وأعيد طبعه مراراً وتكراراً دليل واضح على وجود الإخلاص الحقيقي للمؤلف تغمده الله برحمته.

وصاحب هذه السيرة هو «محمد رسول الله»، خاتم النبيين وإمام المرسلين، وصفوة الخلق عند رب العالمين. ولئن تأخرت طينته، فقد عرفت قيمته، فهو خزانة السر، وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر الاَّ منه، ولا ينقل خير الا عنه.

اخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلوات الله وسلامه عليه انه قال: (ان الله عز وجل كتب مقادير الخلق، قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة، وكان عرشه على الماء، ومن جملة ما كتب في الذكر، وهو أم الكتاب: ان محمداً خاتم النبيين).

وروى الإمام أحمد، والبيهقي والحاكم. وقال صحيح الإسناد، عن العرباض بن سارية، عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: (اني لعند الله خاتم النبيين، وان آدم لمنجدل في طينته).

وان محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم هو المقصود من خلق النوع الإنساني، وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده. كما صرحت بذلك الأحاديث.

ورحم الله من قال:

محمد ما أحلى شمائله　وما ألذ حديثاً فيه ذكر محمد
محمد كل الحسن من بعض حسنه　وما حسن كل الحسن غير محمد

فصلى الله على هذا النبي الرسول، وسلم عليه تسليماً كثيراً.

ورحم الله الشيخ الخضري على تحفته المخلصة، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين وجزاه الله خير الجزاء واكثر من أمثاله بين العلماء العاملين.

والحمد لله رب العالمين

الفقير الى الله القدير
قاسم ابن السيد
محمود الشماعي الرفاعي

بسم اللّه الرحمن الرحيم

(و به نستعين)

نبذة عن حياة المؤلف الشيخ محمد الخضري

هو محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري: باحث خطيب من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام، مصري، ولد سنة ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) وكانت إقامته في «الزيتون» من ضواحي القاهرة، توفي ودفن بالقاهرة تخرّج بمدرسة دار العلوم، وعينّ قاضياً شرعياً في الخرطوم، ثم مدرّساً في الخرطوم، ثم مدرِّساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، مدة ١٢ سنة، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف.

وتوفي رحمه الله سنة ١٣٤٥هـ. ولقد قال عنه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: كان ـ رحمه الله ـ عالماً كالكتّاب وكاتباً كالعلماء، وبذلك تميز وظهر، وهو علم مستفيض لا يقف عند حدّ الصحيفة أو الكتاب، وهو حريص على وقته، مجدّ في عمله، دائب على طريقته، آخذ بالأخلاق الفاضلة، مُصلِح مُربٍّ غيور، كل ذلك في سَمْت وهيبة، وجزالة رأي، وشرف همّة، وإخلاص حق الإخلاص.
فجزاه الله خيراً وغفر له وأدخله فسيحَ جنّاته، إنه سميعٌ مجيب.

أهم كتبه:

١ ـ أصول الفقه.

٢ ـ تاريخ التشريع الإسلامي.

٣ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.

٤ ـ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء.

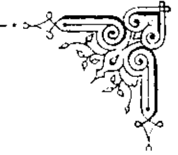
٥ ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية جزءان.

٦ ـ مهذب الأغاني.

٧ ـ محاضرات في نقد كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين.

٨ ـ الغزالي تعاليمه وآراؤه.

٩ ـ دروس تاريخية.



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

نحمدك يا من أوضحت لنا سُبُل الهداية ، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغَواية ، ونصلّي ونسلّم على مَنْ أرسلته شاهداً ومُبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان يبتغون من الله الفضل والرضوان ، والأنصار الذين آووا ونصروا وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما ادَّخروا .

أما بعد : فيقول محمد الخضري بن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري : كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين وقصص الغابرين ، وأجدها لعقل الانسان أحسن مهذِّب وأنصح معلِّم ، وكنت أرى في تاريخ نبيّنا عليه الصلاة والسلام وما لقيَهُ من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق ، وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده ، أعظم مُربٍّ لأفكار المسلمين ، فإنه يدلّهم على ما يجب اتباعه ، وما يلزم اجتنابه ، ليسودوا كما سادَ سابقوهم ، وخصوصاً ما يتعلق بالحكام ، من اجتذاب النفوس النافرة والتأليف بين القلوب المختلفة ، وما يتعلق بقواد الجيوش ، من تأليف الرجال وإحكام المعدّات حتى يتم لهم النصر على أعدائهم ، وما يتعلق بالعامّة ، من اتحاد قلوبهم وصيرورتهم يداً على مَنْ سواهم . فكنتُ أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً وكانت نفسي كثيراً ما تأسف

على تركِ المسلمين لها ! فقلّما أجد من يشتغل بها ، ولكني كنت أُقدّم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع . فلما قدمت مدينة المنصورة جمعتني النوادي مع محمود بك سالم ، القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فُحُول الرجال ، وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال ، فقلّما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبرِّزاً فيها مفصِحاً عن الجواب عنها ، أما علمه بسيرة الرسول الأكرم ﷺ فعنده منها الخبر اليقين ، وكنت كثيراً ما أسمعه يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامّة المسلمين ، فقلت : يا الله ! لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي ولكني كنت أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته وتتميم أمنيته فإن المقام عظيم وصعوباته أعظم ، ولكن لم أرَ من الأمر بُدّاً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة ، فإنهم أكثروا من الأماني لعمل هذا الكتاب العميم النفع الجزيل الفائدة ، فقمت معتمداً على الله راجياً منه أن يوفّقني لما فيه رضاه ، وواصلت السير بالسُّرى حتى بلغت المنى ، فجاء بحمد الله سهل المنال عذب المورد تنتفع به العامّة ، وترجع اليه الخاصّة ، وقد كان موردي في تأليفه : القرآن الشريف ، وصحيح السنة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم ، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدّ من تفهيم العبارات ، فكان يساعدني « الشفاء » للقاضي عياض ، و « السيرة الحلبية » ، و « المواهب اللدنية » للقسطلاني ، و « إحياء علوم الدين » للغزالي . هذا ، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفّق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيّدنا ومولانا رسول الله ﷺ وإحياء معالم دينه حتى يؤيَّدوا بروح من عند الله . وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول :

النسب الشريف

السيد الأكرم الـذي شَرُف النـاس بوجـوده هو (**محمـد بن عبد الله**)[١] من زوجـه آمنة بنت وَهبْ الـزُّهريـة[٢] القـرشيـة (**ابن عبـد المـطلب**)[٣] من زوجـه فاطمـة بنت عمرو المخـزومية[٤] القـرشية . وكـان عبد المـطلب شيخاً معـظَّماً في قـريش يَصْدُرون عن رأيـه في مشكلاتهم ويقـدِّمونـه في مهمـاتهم

---

(١) عبد الله بن عبد المطلب الملقب بالذبيح أبـو قثم الهاشمي القـرشي والد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد بمكة وهو أصغر أبناء عبد المطلب ، وكان أبوه قد نذر لئن ولد له عشرة أبناء وشبوا في حياته ليحزن أحدهم عند الكعبة فشب له عشرة ، فذهب بهم إلى هبل (أكبر أصنام الكعبة في الجاهلية) فضربت القداح بينهم فخرجت على عبد الله وكان أحبهم اليه ففداه بمئة من الإبل فكان يعرف بالذبيح ، وزَوَّجَـهُ آمنة بنت وهب فحملت بـالنبي ﷺ ورحل في تجـارة إلى غزة وعاد يريد مكة فلما وصل إلى مشارف المدينة مرض ، ومات بهـا وقيل مـات بالأبـواء بين مكة والمدينة (الاعلام ٤ / ١٠٠).

(٢) من بني زهرة بن كلاب من قريش .

(٣) عبد المطلب بن هاشم بن عبد منـاف « أبو الحارث» زعيم قريش في الجـاهلية وأحـد سادات العرب ومقدميهم ، مولده في المدينة ومنشأه بمكة كان عاقلاً ذا أناة ونجدة ، فصيح اللسـان ، حاضر القلب ، أحبه قومه ورفعوا من شأنه فكانت له السقاية والـرفادة ، خلص وطنـه من غارة أبرهة وهو جد النبي ﷺ ، كان أبيض مديـد القامـة وهو الـذي حفر زمـزم وقصته مـذكورة في كتب السير ، مات بمكة عن عمر يناهز ٨٠ سنة .

(٤) من بني مخزوم بن يقظة بن مرة من قريش .

(**ابن هاشم**)[1] من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية[2] (**ابن عبد مناف**)[3] من زوجه عاتكة بنت مُرَّة السلمية[4] (**ابن قصيّ**)[5] من زوجه حُبَّى بنت حُلَيل الخزاعية . وكان إلى قصيّ في الجاهلية : حجابة البيت[6] ، وسقاية الحاج ، وإطعامه المسمى بالرِّفادة ، والندوة : هي الشورى لا يتم أمر إلاّ في بيته ، واللواء : لا تعقد راية لحرب إلا بيده ، ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبد الدار ، لكنْ بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بني عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر ، وكاد يفضي الأمر الى القتال لولا أن تدارك الأمر عقلاءُ الفريقين ، فأعطوا بني عبد مناف السقاية والرِّفادة فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده ، أما الحجابة فبقيت بيد بني عبد الدار ، وأقرَّها لهم الشرع فهي فيهم إلى الآن . وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبد العزَّى بن عثمان بن عبد الدار ، وأما اللواء[7] فدام فيهم حتى أبطله الإسلام ، وجعله حقاً للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له وكذلك الندوة . وقصي (**ابن كلاب**)[8] من زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزد شَنُوءَة[9] (**ابن مرة**) منْ زوجه هند بنت سرير من بني فهر بن

---

(١) هو أول من سَنَّ الرحلتين لقريش للتجارة ، رحلة الشتاء ورحلة الصيف وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ .

(٢) الخزرج إحدى القبيلتين اللتين كانتا تقيمان في المدينة قبل الإسلام وهم الأوس والخزرج وسمَّوا أنصاراً بعد قدوم النبي ﷺ .

(٣) اسمه المغيرة مات بمكة وآل أمر قريش اليه في حياته .

(٤) من بني سليم بن منصور إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر . المؤلف .

(٥) هو سيد قريش في عصره . وكان موصوفاً بالدهاء ، ووُلِّيَ البيت الحرام ، وكانت له : الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، وكانت قريش تتيمن برأيه ، مات بمكة .

(٦) هي أن تكون مفاتيح البيت عنده .

(٧) يعني لواء الحرب أي رايته .

(٨) اسمه حكيم ، ولقّب بكلاب لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب .

(٩) أزد شنوءة : قبيلة يمانية ، وسمّوا بذلك لشنآن كان بينهم ، والشنآن : البغض .

مالك (**ابن كعب**)[1] من زوجه وحشيّة بنت شيبان من بني فهر أيضاً (ابن لؤيّ)[2] من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قُضاعة (ابن غالب) من زوجه أُم لؤي سلمى بنت عمرو الخزاعي (**ابن فهر**)[3] من زوجه أُم غالب ليلى بنت سعد من هُذيل ، وفهر هو قريش - في قول الأكثرين - وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة :

- بنو عبد مناف .
- وبنو عبد الدار بن قصي .
- وبنو أسد بن عبد العُزَّى بن قصي .
- وبنو زهرة بن كلاب .
- وبنو مخزوم بن يقظة بن مُرّة .
- وبنو تَيم بن مرّة .
- وبنو عدي بن كعب .
- وبنو سهم بن هُصَيص بن عمرو بن كعب .
- وبنو عامر بن لؤي .
- وبنو تَيم بن غالب .
- وبنو الحارث بن فهر .
- وبنو مُحارب بن فهر .

والمقيمون منهم بمكة يسمون قريش البطاح ، والذين بضواحيها قريش الظواهر . (ابن **مالك**) من زوجه جندلة بنت الحرث من جرهم (ابن

---

(١) ابن كعب، كان عظيم الجاه، وهو اول مَنْ سَنّ الاجتماع يوم الجمعة.
(٢) لؤي تصغير اللأي، وهو الثور الوحشي أو البقرة.
(٣) واسمه قريش، وإليه تنسب القبيلة، كان رئيس النادي بمكة.

النضـر)[1] من زوجه عـاتكة بنت عَـدوان من قيس عيـلان (**ابن كنـانـة**) من زوجـه بَرَّة بنت مـر بن أُدّ (**ابن خُزيمـة**) من زوجه عَـوانة بنت سعـد من قيس عيـلان (**ابن مُـدركـة**)[2] من زوجـه سلمى بنت أسلم من قُضـاعـة (**ابن إليـاس**)[3] من زوجه جِنـدف المضروب بهـا المثل في الشـرف والمنعة (**ابن مُضـر**)[4] من زوجه الـربـاب بنت جَنـدة بن معـدّ (**ابن نـزار**)[5] من زوجـه سَـودَة بنت علّ (**ابن معـد**)[6] من زوجه مُعـانةَ بنت جـوشم من جُرهـم (**ابن عدنان**)[7] .

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحـدِّثيـن ، أما النسب فـوق ذلك فـلا يصحّ فيـه طـريق ، غـايـة الأمـر أنهم أجمعـوا على أن نسب الـرسـول ﷺ ينتـهي إلـى إسمـاعـيـل بن إبـراهيم أبـي العـرب المستعربة[8] . نسب شريف كما ترى : آباء طاهرون وأمهـات طاهـرات ، لم يـزل عليه السـلام ينتقل من أصـلاب أولئك إلى أرحـام هؤلاء حتى اختاره الله هـادياً مهـدياً من أوسط العـرب نسباً . فهـو من صميم قريش التي لهـا القـدمُ الأولى في الشـرف وعلو المكانـة بين العرب ، ولا تجـد في سلسلة آبـائـه إلا كراماً ليس فيهم مسترذَل بل كلهم سادة قادة ، وكـذلك أُمهـاتَ آبائـه من أرفع قبائلهنّ شأنـاً ، ولا شك أن شـرف النسب وطهارة المـولد من شـروط النبوّة ، وكل اجتماع بين آبائه وأُمهاته كان شرعيـاً بحسب الأصول العـربية ، ولم ينَـلْ نسبه شيء من سفاح الجاهلية بل طهَّره الله من ذلك والحمـد لله[9] .

---

(١) لقِّب به لحسنه وجماله ، واسمه قيس .

(٢) وكانت الابل قد ضلت في أيامه فأدركها فلقب بذلك واسمه عمرو .

(٣) هو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام .

(٤) مُضر مشتق من اللبن الماضر وهو الحامض .

(٥) نزار من النزارة وهي القلّة .

(٦) كان صاحب حروب وغارات على بني اسرائيل ، وكان يعود منتصراً ظافراً في معظم حروبه .

(٧) هو مَنْ تقف عنده أنساب العرب .

(٨) العرب المستعربة : وهم أولاد إسماعيل عليه السلام .

(٩) روي عن النبي ﷺ قوله : إني من نكاح ولست من سفاح (القرطبي ٣٠١/٨)

زواج عبد الله بآمنة وحملها

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبّ ولد أبيه إليه ، فزوّجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب ، وسنّه ثماني عشرة سنة ، وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، ولما دخل عليها حملت بالرسول ﷺ ، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين ، ودفن بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار ، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام ، فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع ، ولما تمّت مدة حمل آمنة وضعت ولدها ، فاستبشر العالم بهذا المولود الكريم الذي بثَّ في أرجائه روح الآداب وتمّم مكارم الأخلاق . وقد حقّق المرحوم محمود باشا(١) الفلكي أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل سنة ٥٧١ من الميلاد ، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل(٢) ، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعْب بني هاشم ، وكانت قابلته الشِّفَاءَ أُم عبد الرحمن بن عوف ، ولما ولد أرسلت أمه لجده تبشِّره فأقبل مسروراً وسمّاه محمداً ، ولم يكن هذا الإسم شائعاً قبلُ عند العرب(٣) ، ولكن أراد الله أن يحقّق ما قدّره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل ، فألهم جدَّه أن يسمّيه بذلك إنفاذاً لأمره ، وكانت حاضِنته أُمُّ أيمن بركة الحبشية أَمةُ أبيه عبد الله(٤) ، وأول من أرضعه

---

(١) محمود باشا الفلكي : من علماء مصر ، توفي سنة ١٣٠٢ هـ .

(٢) قد ذكر القرآن هذه الحادثة في سورة الفيل ، وحاصِلها : أن ملكاً من ملوك الحبشة واسمه أبرهة الحبشي أغار على مكة وقصد هدم كعبتها ، وتحويل حج العرب الى مدينته ، وكان معه فيل عظيم لم يكن العرب رأوا مثله ، فإكراماً للنبي المنتظر وغَيْرَةً على بيته الكريم جعل الله كيد الأعداء في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجّيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وأراح قريش من عناء مقاومتهم . المؤلف . والقصة مذكورة في كتب السير فليراجع هناك .

(٣) لا يعرف في العرب من تَسَمّى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة ، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ وبقرب زمانه أن يكون ولداً لهم .

(٤) مولاة النبي ﷺ وحاضنته ، هاجرت الهجرتين ، وشهدت حُنيناً وأُحُداً وخيبر ، (راجع الكتاب=

ثُويبـة[1] أَمَةُ عمـه أبي لهب .

الـرضـاع

وكـان من عادة العـرب أن يلتمسوا المـراضـع لمـواليـدهم في البـوادي ليكـون أنجبَ للولد ، وكـانوا يقـولـون : إن المـربَّى في المـدن يكـون كليـلَ الـذهن فاتـر العزيمـة ، فجـاءت نِسـوة من بني سعـد بن بكـر يـطلبن أطفـالاً يـرضعنهم ، فكـان الـرضيـع المحمـود من نصيب حليمـة بنت أبي ذُؤَيب السعـدية[2] ، واسم زوجهـا أبو كبشـة ، وهـو الـذي كـانت قـريش تنسبُ لـه الـرسول ﷺ حينمـا يريـدون الاستهزاء بـه فيقولـون : هـذا ابن أبي كبشـة[3] يُكلَّم من السمـاء ! ودُرّت البركـات على أهل ذاك البيت الـذين أرضعـوه مـدة وجوده بينهم وكانت تربو عن أربع سنوات[4] .

حادثة شق الصدر

وحصـل له وهـو بينهم حـادثـة مهمـة وهي شق صـدره[5] وإخـراج حظ الشيطان منه ، فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردّتـه إلى أمه وحـدّثتها قـائلة : بينمـا هو وإخـوته في بَهْم[6] لنـا خلف بيـوتنـا إذ أتى أخـوه يعـدو ، فقـال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثيـاب بيض ، فأضجعـاه ،

= الثاني رقم ٦ ص ١٦) .

(١) أول من أرضع النبي ، وكان يصلها وهو بمكة .

(٢) مُـرْضِعاتـه ﷺ ثمانٍ : أُمَّـه آمنـة ، ثـويبـة ، خـولـة ، أم أيمن ، حليمـة ، وثـلاث نسـوة من العواتك .

(٣) هو الحارث ، أسلم وحَسُن إسلامه .

(٤) قالت حليمة : أخـذت رسول الله ﷺ فجئت بـه رحْلي ، فأقبـل عليه ثـدياي بمـا شاء من لبن فشـرب حتى روي ثم نام ، وشـرب أخوه ، وقـام صاحبي إلى شـارِفنا تلك فـإذا هي حافـل ، فحلب منها ما شرب وشربت حتى روينا فبتنا بخير ليلة » .

(٥) شق صدره مرتان مرة في السنة الثالثة ومرة ليلة الاسراء .

(٦) جمع بهمه ، وهي : أولاد الضأن والمعز والبقر .

فشقّا بطنه فهما يَسُوطانه(١) . فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه(٢)، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : ما لك يا بني ؟ فقال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟؟ قال نعم . فأقبلا يبتدراني فأضجعاني فشقّا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً ، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو .

وفاة آمنة وكفالة عبد المطلب ووفاته وكفالة أبي طالب

ثم إن أمه أخذته منها(٣) ، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار ، وبينما هي عائدة أدركتها منيتها في الطريق فماتت بالأبواء(٤)، فحضنته أُمّ أيمن ، وكفَلَه جده عبد المطلب ، ورقَّ له رِقّةً لم تُعْهد له في ولده ، لما كان يظهر عليه مما يدلّ على أن له شأناً عظيماً في المستقبل ، وكان يكرمه غاية الإكرام ، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن تُوفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول ﷺ(٥) ، فكفله شقيق أبيه أبو طالب فكان له رحيماً وعليه غيوراً ، وكان أبو طالب مُقِلاً من المال فبارك الله له في قليله ، وكان الرسول ﷺ في مدة كفالة عمه مثالَ القناعة ، والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة(٦) ، كما روت ذلك أُمُّ أيمن

(١) يحرِّكانه بسوط . المؤلف .

(٢) انتقع وجهه وامتقع إذا تغير .

(٣) جاء في سيرة ابن هشام قولها : إن لبُنيَّ شأناً ، رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء له قُصُور بصرى من أرض الشام ، ثم حملتُ به فوالله ما رأيت من حمل قطّ كان أخفّ عليَّ ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضِع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلقي راشدة .

(٤) وهو ابن ست سنين . والأبواء : محل بين مكة والمدينة ، وهو إلى المدينة أقرب . المؤلف .

(٥) ودفن بالحجون والحجون : جبل بأعلى مكة .

(٦) وقال ابن هشام في السيرة كان رسول الله ﷺ فيما ذكر يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال «لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فاني لأقبل معهم كذلك وأدبر ولكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال شد عليك إزارك . .

حاضنته ، فكان إذا أقبل وقتُ الأكل جاء الأولاد يختطفون وهو قانع بما سييسره الله له[1].

السفر إلى الشام

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة ، أراد عمّه وكفيله السفر بتجارة إلى الشام ، فاستعظم الرسول ﷺ فراقه ، فرقّ له ، وأخذه معه ، وهذه هي الرحلة الأولى ، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً ، وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب بُصرى[2] بحيرى الراهب[3] ، فسألهم عمّا رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبي من العرب في هذا الزمن ، فقالوا إنه لم يظهر للآن[4] ، وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾[5] .

حرب الفجار

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام عشرين سنة حضر حرب الفِجار[6] ، وهي حرب كانت بين كِنانة ومعها قريش ، وبين قيس .

---

(١) فكان يوضع الطعام له وللصبية من أولاد أبي طالب ، فيتطاولون إليه ، ويتقاصر هو ، (الروض الانف) .

(٢) قرية في جنوب بلاد الشام .

(٣) كان حبراً من أحبار اليهود .

(٤) فلما رأى محمد ﷺ يوافق ما عنده من علمٍ عن صفته ، نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوّة ، فأقبل على عمّه أبي طالب وأوصاه أن يعود به حذراً عليه من اليهود قائلاً له : إنه كائن لإبن أخيك هذا شأن عظيم ، فعاد به إلى مكة . وفي الترمذي حديث صحيح يؤيد ذلك .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٨٩ .

(٦) بكسر الفاء بمعنى المفاجرة ، كالقتال بمعنى المقاتلة ، وذلك أنه كان قتال في الشهر الحرام ففجروا فيها جميعاً .

وسببها : أنه كان للنعمان بن المنذر ملك العرب بالحيرة[١] تجارة يرسلها كل عام إلى سوق عُكاظ[٢] لتُباع له ، وكان يرسلها في أمان رجل ذي مَنَعةٍ وشرف في قومه ليُجيزها[٣] ، فجلس يوماً وعنده البَرَّاضُ بن قيس الكناني ـ وكان فاتكاً خليعاً خلعه قومه لكثرة شرّه ـ وعروةُ بن عتبة الرحّال فقال : مَنْ يُجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ ؟؟ فقال البرّاض : أنا أُجيزها على بني كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد مَنْ يجيزُها على الناس كلهم ؟ فقال عروة : أبيتَ اللعن[٤] أكلبٌ خليع يجيزها لك ؟ أنا أُجيزُها على أهل الشِّيح والقَيْصوم من أهل نجد[٥] وتهامة[٦] فقال البَرَّاض : أو تُجيزُها على كنانة يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، فأسرّها في نفسه ، وتربَّص له حتى إذا خرج بالتجارة ، قتله غدراً ، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر ، ويحذرهم قيساً قوم عروة . وأما قيس فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همّت لتدرك ثأرها ، حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة[٧] ، فاقتتلوا ، ولما اشتدّ البأس ، وحميت قيس ، احتمت قريش بحرمها ، وكان فيهم رسول الله . ثم إن قيساً قالوا لخصومهم : إنّا لا نترك دم عروة ، فموعدنا عكاظ العام المقبل ، وانصرفوا إلى بلادهم يُحرِّض بعضهم بعضاً ، فلما حالَ الحَوْلُ جمعت قيس جُمُوعها وكانت معها ثقيف وغيرها ، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش ـ وهم حلفاء قريش ـ وكان رئيس بني هاشم الزبيرُ بن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي

(١) بلدة غرب الفرات كان يقيم بها ملك العرب من قبل ملوك الفرس.

(٢) سوق كانت تعقدها العرب كل عام لتعرض فيه تجارتها، وما قاله فُصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك من مفاخر العرب، المؤلف.

(٣) في بعض السِّيَر: ليُجيزها بالزاي.

(٤) تحية عربية، ومعناها باعدت كل ما استحق المذمّة. المؤلف.

(٥) هو المرتفع من بلاد العرب وهو وسطها. المؤلف.

(٦) هو ما انخفض من سواحل البلاد العربية، والشرقي منها يسمى البحرين، الفاصل بين نجد وتهامة الحجاز في الغرب واليمامة في الشرق. المؤلف.

(٧) موضع بين مكة والطائف. المؤلف.

الكريم ، وكان على بني أميّة حرب بن أميـة ، وله القيـادة العامـة لمكانـه في قـريش شرفـاً وسناً . وهكـذا كان على كـل بطن من بـطون قريش رئيس ، ثم تناجزوا الحرب ، فكان يوماً من أشدّ أيام العرب هَوْلاً ، ولمـا استُحِلَّ فيـه مِنْ حُـرُمات مكـة التي كانت مقـدسة عنـد العرب سُمِّي يـوم الفِجَار[1] . وكـادت الـدائـرة تـدور على قيس حتى انهـزم بعض قبـائلهـا ولكن أدركهم من دَعَـا المتحـاربين للصلح[2] على أن يُحصُوا قتلى الفـريقين ، فمَن وجد قَتْـلاه أكثر أخـذ ديَة الـزائد ، فكـانت لقيس زيادة أخـذوا ديتها من قـريش ، وتعهـد بهـا حرب بن أمية ، ورهن لسَدَادها ولـده أبا سفيـان . وهكذا انتهت هـذه الحرب التي كثيراً ما تشبـه حروب العـرب تبدؤهـا صغيرات الأمـور حتى ألّف الله بين قلوبهم وأزاحَ عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم .

حلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفِجَـار تداعَـوا لحلف الفُضُول[3] فتمَّ في دار عبـد الله بن جُدْعـان التَّيْمي[4] أحد رؤسـاء قريش ، وكـان المتحالفـون : بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف ، وبني أسـد بن عبد العـزّى ، وبني زهرة بن كلاب ، وبني تَيْم بن مُرَّة تحالفـوا وتعاقـدوا ألاَّ يجدوا بمكـة مظلومـاً من أهلهـا أو من غيـرهم من سـائـر النـاس إلا قـامـوا معـه ، حتى تـردّ إليـه مَظْلمته ، وقد حضر هـذا الحلف رسول الله ﷺ مـع أعمامـه ، وقال بعـد أن شـرّفه الله بـالرسـالة : « لقـد شهدت مـع عمـومتي حلفـاً في دار عبـد الله بن جُـدعـان مـا أحبّ أن لي بـه حُمـر النَّعم[5] ولـو دعيت بـه في الإسـلام

(١) جاء في سيرة ابن هشام أن القتال لم يقع في مكة، بل سمي كذلك لأنه وقع في الأشهر الحُرُم.

(٢) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، كبير قريش.

(٣) وهو أشرف حلف في العرب، وسمي كذلك لأنهم تحالفوا أن تردَ المظالم الى أهلها، وألاَّ يغزو ظالم ظالماً.

(٤) هو أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية.

(٥) أي لا أُحب نقضه، وإن دفع لي حمر النعم، أنفس إبل العرب وأكرمها.

لأجبت »(1) وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بمكارم الأخلاق وهذا منها وقد أقرّ دينُ الإسلام كثيراً منها ، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت لأتمِم مكارم الأخلاق »(2) وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا .

رحلته إلى الشام المرّة الثانية

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام المرّة الثانية ، وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتُضارِبهم(3) إياه ، فلما سمعت عن السيد من الأمانة وصِدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سمّاه قومه الأمين ، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ، فسافر مع غلامها مَيْسرة فباعا وابتاعا وربحا ربحاً عظيماً ، وظهر للسيد الكريم في هذه السفرة من البركات(4) ما حبّبه في قلب ميسرة غلام خديجة(5) .

زواجه خديجة

فلما قَدِما مكة ورأت خديجة ربحها العظيم سُرَّت من الأمين عليه

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده ١ / ١٩٠ .

(2) رواه الإمام مالك في الموطأ بلفظ «بعثت لأتمّم حسن الأخلاق» .

(3) تضاربهم أي تقارضهم وتتجار في الأموال .

(4) منها اظلال الغمامة لرسول الله ﷺ في الحر .

(5) خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى من قريش زوجة رسول الله ﷺ الأولى ، وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة ولدت بمكة ونشأت في بيت شرف ويسار ، ومات أبوها يوم الفجار ، وتزوجت بأبي هالة فمات عنها . وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها الى الشام تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة فلما بلغ رسول الله ﷺ الخامسة والعشرين خرج في تجارة لها إلى سوق بصرى وعاد رابحاً ، تزوجها رسول الله ﷺ فولدت له القاسم وعبد الله =

الصلاة والسلام وأرسلت إليه تَخْطُبُهُ لنفسها وكانت سنّها نحو الأربعين وهي من أوسط[1] قريش حسباً وأوسعهم مالاً ، فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمّها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب فزوّجها عمّها . وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وضئضىء[2] معدّ ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسُوّاس حرمه ، وجعله لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً ، وجعلنا حكّام الناس ، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن به رجل (إلا رجح به) شرفاً ونبلاً وفضلاً (وعقلاً) ، وإن كان في المال قُلّ ، فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردّة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق (كذا)[3] وعلى ذلك تم الأمر ، وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة[4] توفي عنها وله منها ولد اسمه هالة وهو ربيب[5] المصطفى عليه الصلاة والسلام .

بناء البيت

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة ، جاء سيل جارف فصدّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل ، فأرادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها[6] ، فإنها كانت

= وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، ولما بعث رسول الله ﷺ دعاها الى الإسلام فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء.

(١) أوسط قريش أي أفضل قريش.

(٢) ضئضىء: أصل الشيء ومعدنه.

(٣) ما عاجله وآجله خمسمائة درهم.

(٤) اختُلِف في اسمه، مات في الجاهلية.

(٥) الربيب : ابنُ امرأة الرجل من غيره.

(٦) بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات بيقين.

١ ـ حين بناها إبراهيم استجابة لأمر الله « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت » . =

رضيمة(١) فوق القامة، فاجتمعت قبائلهم لذلك،ولكنهم هابوا هدمها لمكانها في قلوبهم . فقال لهم الوليد بن المغيرة(٢) أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟ قالوا بل الإصلاح ، قال إن الله لا يهلك المُصْلِحين ، وشرع يهدم فتبعوه وهدموا حتى وصلوا الى أساس إسماعيل ، وهناك وجدوا صِحافاً نُقش فيها كثير من الحِكَم على عادة منْ يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين . ثم ابتدؤوا في البناء وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مَهرُ بغيّ ولا بيعُ رِبا ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم ، وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل ، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه «باقوم»(٣)، وقد خصّص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون اليه الحجارة ، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل ، فأخرجوا منها الحِجر ، وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة . ولما تمّ البناء ثماني عشرة ذراعاً بحيث زيدَ فيه عن أصله تسعة أذرع ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يُصعد اليه إلا بدرج أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه ، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه ، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشبّ بينهم نار الحرب ، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أمية بن المغيرة المخزومي عمُّ خالد بن الوليد فقال لهم : يا قوم لا تختلفوا وحكّموا بينكم من ترضَون بحكمه . فقالوا : نَكِل الأمر لأوّل داخل ، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام ، فاطمأن الجميع له لِمَا يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث وقالوا : هذا الأمين رضيناه ، هذا محمد لأنهم كانوا يتحاكمون اليه إذ كان لا يُداري ولا يُماري . فلما أخبروه الخبر بسط

= ٢ ـ حين بَنَتها قريش واشترك في بنائها النبي ﷺ .
٣ ـ حين احترقت زمن يزيد بن معاوية، فنقضها الزبير وأعاد بناءها.
٤ ـ حين بناها الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان.

(١) الرضم: أن تنضدّ الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط.
(٢) الوليد بن المغيرة: من زعماء قريش، وكان ممّن حرّم الخمر في الجاهلية.
(٣) وهو مولى سعيد بن العاص.

رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه فأخذه ووضعه فيه . وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب لولا أن يمنّ الله عليهم بعاقل مثل أبي أمية يرشدهم الى الخير ، وحكيم مثل الرسول ﷺ يقضي بينهم بما يُرضي جميعهم .

ولا يُستغرب من قريش تنافسهم هذا ، لأن البيت قِبلَة العرب وكعبتهم التي يحجون اليها ، فكل عمل فيه عظيم ، به الفخر والسيادة ، وهو أول بيت وُضِع للعبادة بشهادة القرآن الكريم قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاس للَّذِي بِبَكَّةَ مُباركاً وهُدًى للعالمين ، فيه آياتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبراهيمَ ومَنْ دَخَلهُ كَانَ آمناً ﴾[1] وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلة جُرهم فلما بَغوا وظلموا مَنْ دخل مكة اجتمعت عليهم خزاعة وأجلوهم عن البيت ، ووليته خزاعة حيناً من الدهر ، ثم أخذته منهم قريش في عهد قصي بن كلاب ، وبسببه أُمِنوا في بلادهم ، فكانت قبائل العرب تهابهم . وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين ، وامتنّ الله عليهم بذلك في تنزيله فقال في سورة العنكبوت : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناسُ مِنْ حَوْلِهمْ ﴾[2] .

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

لم يَرِث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً ، بل ولد يتيماً عائلاً[3] فاسترُضِع في بني سعد ، ولما بلغ مبلغاً يمكّنه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع اخوته من الرضاع في البادية ، وكذلك لمّا رجع إلى مكة كان

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٦ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٦٧ .

(٣) فقيراً لا مال له ، قال تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ .

يـرعاهـا لأهلهـا على قـراريط[1] كمـا ذكـر ذلـك البخـاري في صحيحـه[2] . ووجود الأنبياء في حال التجرّد عن الـدنيا ومشـاغلها أمـر لا بد منـه ، لأنهم لو وجـدوا أغنياء لألهتهم الـدنيا وشغلوا بهـا عن السعادة الأبـدية ، ولـذلك تـرى جميع الشرائع الإلّهية متفقة على استحسان الزهد فيها والتباعـد عنها ، وحـال الأنبيـاء السالفين أعـظمُ شاهـد على ذلك ، فكـان عيسى عليـه السـلام أزهـدَ الناس في الدنيا وكذلـك كان مـوسى وابراهيم . وكـانت حالتهم في صغـرهم ليست سَعَـة بـل كلهم سـواء ، تلك حكمـة بـالغـة أظهـرهـا الله على أنبيـائـه ليكـونـوا نمـوذجـاً لمتبعيهم في الإمتنـاع عن التكـالب على الـدنيـا والتهـافت عليها ، وذلك سبب البلايا والمحن . وكـذلك رعـاية الغنم ، فمـا من نبي إلا رعـاها كمـا أخبر عن ذلـك الصادق المصـدوق في حديث للبخـاري ، وهـذه أيضاً من بالـغ الحِكَم فإن الإنسـان إذا استرعى الغنم ـ وهي أضعف البهـائم ـ سكن قلبه الرأفةُ واللطفُ تعطفـاً ، فإذا انتقـل من ذلك الى رعـاية الخلق كـان لمـا هُـذِّب أولاً من الحـدّة الطبيعيـة والـظلم الغـريـزي ، فيكـون في أعـدل الأحـوال . ولمـا شبّ عليـه الصـلاة والسـلام كـان يتجـر ، وكـان شـريكـه السـائب بن أبي السائب . وذهب بـالتّجارة لخـديجة ، رضي الله عنهـا ، إلى الشام على جُعْل[3] يأخذه . ولما شُرِّفَتْ خديجة بـزواجه ، وكـانت ذات يَسَار عمـل في مالهـا وكان يـأكل من نتيجـة عمله . وحقّق الله ما امتنّ عليـه به في سـورة الضحى بقولـه جلّ ذكـره : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيْمـاً فـآوَى ،وَوَجَـدَكَ ضَـالاً فَهَدى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾[4] بالإيواء والإغناء قبل النبوّة والهـداية بـالنبوّة ، هداه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم عليه السلام ولم يكن يـدري ذلك قبـل . قـال تعالى في سـورة الشورى : ﴿ وَكَـذَلِكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ رُوْحَـاً مِنْ أَمـرِنَـا مَـا

(١) القراريط أجزاء من الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج الصغيرة.

(٢) عن أبي هـريرة رضي الله عنـه، عن النبي ﷺ قـال: «مـا بعث الله نبيّاً إلا رعى الغنم» فقـال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». رواه البخاري في كتاب الإجارة، رقم: ٢٢٦٢.

(٣) ما يُجْعَل للإنسان من أجر على عمله.

(٤) سورة الضحى الآيات: ٧ ـ ٩.

كُنْتَ تَـدْري مَا الكِتَـابُ ولا الإِيمانُ ولَكِنْ جَعَلْنَـاهُ نُوراً نَهْـدِي بِهِ مَنْ نَشَـاءُ مِنْ عِبَادِنا ﴾(١) .

سيرته في قومه قبل البعثة

كـان عليه الصـلاة والسلام أحسن قـومـه خُلقـاً ، وأصـدقهم حـديثـاً ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدَهم عن الفحش والأخـلاق التي تدنس الـرجال ، حتى كـان أفضلَ قـومه مروءةً، وأكـرمهم مخـالـطةً ، وخيـرهم جـواراً ، وأعـظمهم حلمـاً ، وأصـدَقهم حـديثـاً ، فسمّـوه الأمين لمـا جمـع الله فيـه من الأمــور الصـالحـة الحميـدة ، والفِعـال السـديـدة من الحلم ، والصبــر ، والشكـر ، والعدل ، والتواضع ، والعِفّة ، والجـود ، والشجاعـة ، والحياء ، حتى شهـد له بذلك ألدُّ أعدائه النضر بن الحارث(٢) من بني عبـد الدار حيث يقـول : قد كـانَ محمد فيكم غـلاماً حَـدَثاً ، أرضـاكم فيكم وأصدقكم حـديثاً وأعـظمكم أمانةً ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جـاءكم قلتم : ساحـر ! لا والله ما هو بساحر ، قال ذلك في معـرض الإتفاق على مـا يقولـونه للعـرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبـول يقولـونه . ولمـا سأل هرقل ملك الروم أبـا سفيان قـائلاً : هـل كنتم تتهمونـه بالكـذب قبل أن يقـول ما قـال ؟ قال : لا ، فقـال هرقـل : ما كـان ليدع الكـذب على النـاس ويكذب على الله ، ورد ذلك في أول صحيح البخاري(٣) .

وقـد حفظه الله في صغـره من كل أعمـال الجـاهليـة التي جـاء شـرعـه الشريف بضدها(٤) وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضاً شـديداً حتى مـا كان يحضـر لها احتفـالاً أو عيداً ممـا يقوم بـه عُبَّادُهـا . وقال عليـه الصـلاة والسـلام : « لمـا نشـأتُ بُغِّضَتْ إليَّ الأوثان ، وبُغِّضَ إليَّ الشعـر ، ولـم أهمَ بشيءٍ ممـا كـانت

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢ .

(٢) كان من شياطين قريش وقُتل كافراً يوم بدر.

(٣) انظر حديث أبي سفيان في فصل مكاتبة الملوك من هذا الكتاب في كتب السيرة .

(٤) الشفاء للقاضي عياض . المؤلف.

الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أُريد من ذلك . ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته . قلت ليلة لغلام كان يرعى معي لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسْمُر كما يسمر الشباب ، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم ، فجلست لذلك ، فضرب الله على أُذنيَّ فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس ولم أقضِ شيئاً ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك » . وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب[1] وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيما ، وذلك كله من الصفات التي يُحلِّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الإستعداد لتلقّي وحيه ، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوّة وبعدها : أمَّا قبل النبوّة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيُسْند إليهم ، وأمَّا بعدها فليكونوا قدوة لأممهم . عليه من الله أفضل الصلوات وأتمّ التسليمات .

ما أكرمه الله به قبل النبوة

أول منحة من الله ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم ، فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجدبين[2] فلما صار بينهم صارت غُنَيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيل لبناً ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته :

وإذا سخَّر الإلّه أناساً   لسعيدٍ فإنَّهم سُعداءُ

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظّ الشيطان منه ، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى ، فمن استبعد ذلك كان قليل

(١) هي حجارة تنصب وتصب عليها دماء الذبح وتعبد . المؤلف.
(٢) الجدب : ضد الخصب.

النظر ، لا يعرف من قوة الله شيئاً ، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب .

ومن المكرمات الإلّهية تسخير الغمامة له في سفره إلى الشام ، حتى كانت تظله في اليوم الصائف لا يشترك معه أحد في القافلة ، كما روى ذلك ميسرة غلام خديجة الذي كان مُشاركاً له في سفره ، وهذا ما حبّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها ، وتيقنت أن له في المستقبل شأناً . ولذلك لما جاءته النبوّة كانت أسرعَ الناس إيماناً به ولم تنتظر آيةً أخرى زيادة على ما علمته من مكارم الأخلاق ، وما سمعته من خوارق العادات .

ومن منن الله عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار(١) ، فكان إذا خرج لحاجته أبعدَ حتى لا يرى بناء ويفضي إلى الشِعاب وبطون الأودية فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا سمع : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً ، وقد حدَّث بذلك عن نفسه(٢) . وليس في ذلك كبير إشكال فقد سخّر الله الجمادات للأنبياء قبله ، فعصا موسى التقمت ما صنع سَحَرَة فرعون بعد أن تحوّلت حيّة تسعى ثم رجعت كما كانت ، ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً ، لكل سبط(٣) من أسباط بني اسرائيل عين . وكذلك غيره من الأنبياء سخّر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم وخَطَارة شأنهم .

---

(١) السيرة الحلبية . المؤلف .

(٢) عن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أُبعث ، إني لأعرفه الآن » . رواه مسلم في كتاب الفضائل ، رقم : ٢٢٧٧ . والأحاديث في ذلك كثيرة .

(٣) القبيلة من اليهود : قال تعالى : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أُمماً ﴾ .

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن ، ونوّه فيها بذكرٍ كثيرٍ من الأنبياء الذين علم الله أنه سيُرسلهم ، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم خطاباً لسيّدنا موسى عليه السلام[(١)] (وسوف أُقيم لهم نبيّاً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به ، ومَنْ لم يُطِع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا الذي أنتقم منه ، فأما النبي الذي يجترىء عليّ بالكبرياء ويتكلم باسمي بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببتَ أن تميّز بين النبي الصادق والكاذب فهذه علامتك أن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) . ويقول اليهود إن هذه البشارة ليوشع بن نون[(٢)] خليفة موسى عليه السلام مع أنهم كانوا ينتظرون في مدّة المسيح نبيّاً آخر غير المسيح فإنهم[(٣)] أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له : أنت إيليا ؟ فقال : لا ، فقالوا أنت المسيح ؟ فقال : لا ، فقالوا أنت النبي ؟ فقال : لا ، فقالوا ما بالك إذاً تُعَمِّدُ إذا كنت لست إيليا ولا المسيح ولا النبي ؟ فهذه تدلّ على أن التوراة تبشِّر بإيليا والمسيح ونبي لم يأتِ حتى زمن المسيح ، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي إنه مثل موسى وقد نَصَّت في آخر سفْر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى[(٤)] ، وورد في هذه البشارة أن النبي الذي يفتري على الله يُقتل ، ويُشْبِهُ ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيْلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِيْنِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾[(٥)] . ونبيّنا ﷺ مكث بين أعدائه الألدّاء من مشركين ويهود ثلاثاً

(١) الاصحاح الثامن : سفر التثنية . المؤلف .

(٢) ليست هذه البشارة ليوشع بن نون لأنه ليس كموسى .

(٣) الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا ، آية : ٤٦ . المؤلف .

(٤) قد أخبر برسالته عليه الصلاة والسلام ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، إذ قال له : هذا هو الناموس الذي أُنزل على قومي .

(٥) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ ـ ٤٦ . والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه . المؤلف .

وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله ، ومع ذلك عصمه الله منهم وأنزل عليه تطميناً لخاطره في سورة المائدة : ﴿ وَالله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس ﴾[1] أكان يعجز الله ـ وهو القادر على كل شيء ـ أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله وهو الذي قال في سورة الشورى : ﴿ أَمْ يَقُولُون ٱفْتَرى عَلى الله كَذِباً فَإِنْ يَشأ الله يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ الله البَاطِلَ وَيُحِقُّ الحَقَّ بِكلمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾[2] وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه وهي الإخبار بما سيأتي . وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشياء كثيرة فحدثت كما أخبر عنها ، ومنها ما لا ينفع معه الحَدْسِ والتخمين كالإخبار بأن الروم سَيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً حتى كادوا يحتلون القسطنطينية عاصمة مُلْكِهم[3] ، فالإخبار إذاً بأن الروم سَيَرُدُّون ما فُقد منهم بعد بِضع سنين لا يكون إلا من عند الله ، ولذلك استغربه جداً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد حقّق الله الخبر فاستحق الصديق الرهن . وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله إن شاء الله تعالى .

وروى القاضي عياض في الشفاء[4] أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : أجل ! والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلناكَ شَاهِداً وَمُبَشِراً وَنَذِيراً ﴾[5] . و « حرزاً للأمّيين أنت عبدي ورسولي سمّيتك المتوكل ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخّاب[6] في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة

---

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧ .

(٢) سورة الشورى الآية : ٢٤ .

(٣) قال تعالى في سورة الروم : ﴿ ألَم ، غلبت الروم ، في أدنى الأرض ، وهم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبون في بضع سنين . . ﴾ .

(٤) فصل وصف الله تعالى له بالشهادة ١ /٧٢ .

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٤٥ .

(٦) شديد الصوت : المؤلف .

العوجاء ، بأن يقولوا لا إلّه إلاّ الله ويفتح به أعيناً عُمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غُلْفاً »(1) .

وروي مثله عن عبد الله بن سَلام(2) رضي الله عنه وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تُعْمِه الرياسة حتى يترك الدين القويم ، وكذلك كعب الأحبار(3) وفي بعض طرق الحديث : ولا صَخَّابٍ في الأسواق ، ولا قوَّال للخنا(4) ، أُسدِّده لكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبرّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملَّته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلِّم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة . وأُسمّي به بعد النكرة ، وأُكثِّر به بعد القلّة ، وأغني به بعد العَيْلة(5) ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأُؤلِّف به بين قلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأُمم متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أُخرجت للناس . وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته في التوراة فقال وهو الصادق الأمين : عبدي أحمد المختار مولده مكة ومهاجره المدينة ـ أو قال طَيْبة ـ وأمته الحمَّادون الله على كل حال(6) .

تبشير الإنجيل

بشّر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط ومعناه قريب من محمد أو أحمد ويصدّقه في القرآن قول الله تعالى في سورة الصف : ﴿ وَإِذْ

(1) رواه البخاري في البيوع، باب: كراهية الصخب في الأسواق، رقم: ٢١٢٥ .
(2) هو أبو يوسف بن الحارث الإسرائيلي ، صحابي ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، فسمّاه النبي ﷺ عبد الله، وأقام بالمدينة إلى أن مات فيها سنة ٤٣ هـ .
(3) هو كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، من كبار علماء أهل الكتاب، أسلم زمن أبي بكر، وتوفي في حمص سنة ٣٢ هـ . عن مائة وأربع سنين.
(4) الخنا : الفحش.
(5) العيلة : الفقر.
(6) انتهى ما قاله القاضي عياض في الشفاء.

قَالَ عِيْسَى ابنُ مَرْيَمَ يَا بَني إِسْرائيلَ إنِّي رَسُوُلُ الله إليكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَديَّ مِنَ التَّوراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يأْتي مِنْ بَعْدِي اسمُهُ أَحْمَدُ ﴾[1] وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبيّنا فقال : إنه يوبخ العالم على خطيئته وإنه يعلِّمهم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ، وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ﴾[2] وقد ورد في إنجيل برنابا الذي ظهر منذ زمن قريب وأخفته حجب[3] الجهالة : ذكرُ اسم الرسول عليه الصلاة والسلام صراحة .

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهِّل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة، فكان اليهود يستفتحون[4] على عرب المدينة برسول منتظر .

فقد حدَّث عاصم بن عمر بن قتادة[5] عن رجال من قومه ، قالوا : إنما دعانا للإسلام ـ مع رحمة الله تعالى لنا ـ ما كنا نسمع من أحْبار يهود ، كنا أهل شِرك وأصحابَ أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكثيراً ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمداً أجَبْنا حين دعانا إلى الله وعرّفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا وكفروا[6] ، وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم أن

(١) سورة الصف الآية: ٦ .

(٢) سورة النجم الآية: ٤ .

(٣) ترجم الى العربية وهو الآن مطبوع بمصر . المؤلف.

(٤) الإستفتاح: الإستنصار .

(٥) كان عارفاً بالمغازي، توفي سنة ١٢٠ هـ .

(٦) انتهى ما قاله عاصم بن عمر، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١ .

هذا النبي يستأصل المشركين بالقوة ، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم فينبذون الدين القيّم فيحقّ عليهم العذاب في الدنيا والآخرة . وكان أميّة بن أبي الصلت(١) المتنصر العربي كثيراً ما يقول : إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا . وحدَّث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً(٢) فكان يقول له : يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد ، يخرج من جبال تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان(٣) .
ولما راسل عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض لم يُهِنْ كتابه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب ، وأما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر ، وقيصر ملك الروم ، فأكرموا وفَادَة رسله . ومنهم من آمن كالنجاشي ، ومنهم من ردّ ردّاً لطيفاً وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر ، ومنهم من هادى(٤) كالمقوقس ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوّة يُرهِبُ بها هؤلاء الملوك اللهمّ ما ذاك إلَّا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشّر برسول يأتي من بعده ، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم فأجابوا بالتي هي أحسن ، وأما ما سُمع من الهواتف والكُهان قبيل زمنه فهو ما لا يدخل تحت حصر(٥) . وليس بعد ما ذكرته لك زيادةٌ لمستكثِر . ومع ذلك كله فالأعمال التي جاد الله بها على يديه والأقوال التي أتانا بها أعظم مقوٍّ لحجته ومؤيدٍ لدعوته . وسيأتي عليك بيان ذلك كله بأجلى بيان فتأمَّلْه تُرْشَد . هداك الله الى الصراط السويِّ .

---

(١) أميـة بن أبي الصلت، حكيم، اطّلع على الكتب القديمة، ونبذ عبادة الأوثان، ولم يكن نصرانياً، وإنما كان حنيفياً ، وهو أوّل من جعل في الكتب: باسمك اللهمّ، مات سنة ٥ هـ .
(٢) هو صاحب عمورية من بلاد الروم .
(٣) انظر حديث إسلام سلمان في سيرة ابن هشام ١ / ٢١٤ .
(٤) هادى : أرسل هدية .
(٥) وقد كانت الملائكة تذكره ﷺ في السماء قبل وجوده . كما جاء في بعض كتب السيرة .

بدء الـوحي

لمّا بلغ عليه الصلاة والسلام سن الكمال ، وهي أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليُخْرِجهم من ظُلُماتِ الجهالة الى نور العلم وكان ذلك في أول فبراير (شباط) سنة ٦١٠ من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي ، تبيّن بعد دقة البحث أن ذلك كان في ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة وذلك يوافق يوليو (تموز) سنة ٦١٠ .

وأول ما بدىء به الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلق الصبح[١] ، وذلك لما جرت به عادة الله في خلقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال . ومن الصعب جداً على البشر تلّقي الوحي من المَلَكَ لأول مرة ، ثم حبّب إليه عليه الصلاة والسلام الخلاء[٢]، ليبتعد عن ظُلُمات هذا العالم وينقطع عن الخلق إلى الله فإن في العزلة صفاء السريرة . وكان يخلو بغار حِراء[٣] فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارة عشراً . وتارة أكثر إلى شهر . وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام ويأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حِراء : فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل إذ ظهر له شخص وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: إقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فإنه عليه الصلاة والسلام أميّ لم يتعلم القراءة قبلاً . فأخذه فغطّه[٤] بالنمط[٥] الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال : إقرأ ،

---

(١) أي كضيائه وإنارته ، .

(٢) الإنفراد.

(٣) جبل على مقربة من مكة ـ المؤلف.

(٤) الغط : الضم.

(٥) النمط : بساط من ديباج، وليس المراد النمط الذي ينام عليه كما ذكر المؤلف. وانظر السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٣٩ .

قال: ما أنا بقارىء[1]. فأخذه فغطّه ثانية ثم أرسله، فقال: إقرأ. قال: ما أنا بقارىء، فأخذه فغطّه الثالثة، ثم أرسله فقال: ﴿ اقْرَأْ، بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . إقرأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2] فرجع بها عليه الصلاة والسلام يرجف فؤاده ، مما ألمّ به من الرَّوْع الذي استلزمته مقابلة المَلك لأول مرة ، فدخل على خديجة زوجه ، فقال : زمِّلوني[3] زمِّلوني ، لتزول عنه هذه القُشعَريرة ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَوْع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، لأن المَلك غطَّه حتى كاد يموت ، ولم يكن له عليه الصلاة والسلام عِلمٌ قبل ذلك بجبريل ولا بشكله فقالت (كلا ! والله ما يُخزيك الله أبداً إنك لتصل الرَحِم وتحمل الكَلَّ[4] وتَكْسِبُ المعدوم[5] وتَقْري الضيف[6] وتُعين على نوائب الحق[7] ، فلا يسلّط الله عليك الشياطين والأوهام . ولا مِراء أن الله اختارك لهداية قومك). ولتتأكد خديجة مما ظنته أرادت أن تتثبت ممّن لهم علم بحال الرُسُل ، ممّن اطّلعوا على كتب الأقدمين ، فانطلقت به حتى أتت وَرقة بن نوفل ابن عم خديجة ، وكان أمرأً قد تنصَّر[8] في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك ، فقال يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره عليه الصلاة والسلام خبر ما رأى . فقال له ورقة . هذا الناموس[9] الذي نزَّل الله على موسى ، لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه

---

(١) أي لا أعرف القراءة ولا أحسنها.

(٢) سورة العلق الآيات: ١ ـ ٥.

(٣) غطوني بالثياب.

(٤) أي الشيء الذي يحصل منه التعب والإعياء لغيرك.

(٥) تصل من لا مال له ولا يجده إلاَّ عندك.

(٦) ما يقدّم للضيف من طعام وشراب.

(٧) جمع نائبة.

(٨) أي ترك عبادة الأوثان واعتنق النصرانية.

(٩) الناموس: والمراد جبريل عليه السلام.

هو جبريل ، ثم قال : يـا ليتني فيها جَـذَعاً (شـاباً جَلداً) إذ يُخْـرِجك قـومك من بلادك التي نشأت بها لمعاداتِهم إيَّاك وكراهيتهم لـك حينما تـطالبهم بتغيير اعتقـادات وجدوا عليهـا آباءهم ، فـاستغرب عليـه الصـلاة والسـلام مـا نسب لقومه مع ما يعلمه من حبّهم له لاتّصـافه بمكـارم الأخلاق وصـدق القول حتى سَمَّـوه الأمين ، وقال : أوَ مُخْـرِجيّ هم ؟ قال : لم يـأتِ رجـل قطّ بمثـل مـا جئتَ به إلا عُودِيَ . وقـد نطق بـذلك القـرآن الكريم . قـال تعالى في سـورة إبـراهيم : ﴿ وَقَالَ الَّـذِينَ كَفَروا لِـرُسُلهم لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنـا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا ﴾[١] ولتمام تصديق ورقة بـرسالـة الرسـول الأكرم عليـه الصلاة والسـلام قال : وإن يدركني يومك أنصـرك نصرا مؤزّراً[٢] (معضـداً) ثم لم يلبث ورقة أن توفي[٣].

فترة الـــوحي

وفَتَـرَ الوحي[٤] مـدّة لم يتفق عليها المؤرخـون ، وأرجـح أقـوالهم فيهـا أربعون يوماً ، ليشتدّ شوق الرسـول للوحي ، وقد كـان ، فإن الحـال اشتدّ بـه عليـه الصلاة والسـلام حتى صار كلمـا أتى ذروة جبل بـدا له أن يـرمي نفسـه منها ، حذراً من قـطيعة الله لـه بعد أن أراهُ نعمتـه الكبرى ، وهي اختيـاره لأن يكـون واسطة بينـه وبين خلقـه ، فيتبـدى لـه الملك قـائـلاً : أنت رسـول الله حقاً ، فيطمئن خاطره ويرجع عمّـا عزم عليـه ، حتى أراد الله أن يظهـر للوجود نور الدين فعاد اليه الوحي[٥].

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٣ .

(٢) أي شديداً .

(٣) روى البخاري حديث بدء الوحي في صحيحه في كتاب بدء الوحي ، رقم : ٣ .

(٤) أي احتبس جبريل عنه .

(٥) وقد ذكر عدنان المغربي في التعليق على عودة الـوحي كان الـوحي يأتي رسـول الله ﷺ على مراتب وأنواع انحصرت فيما يلي :

١ ـ الرؤيا الصادقة : فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

=

عودة الـــوحي

فبينمـا هو يمشي إذ سمـع صوتـاً من السمـاء فـرفـع إليـه بصـره ، فـإذا المَلَك الـذي جاءه بحِـراء جالس بين السمـاء والأرض ، فرُعب منـه لتذكّـر ما فعله في المـرة الأولى فـرجـع وقـال : دثـروني دثـروني . فـأنـزل الله تعـالى عليه : ﴿ يَا أَيُّها المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ حذِّر النـاس من عذاب الله إن لـم يـرجعوا عن غيِّهم ومـا كان يعبـد آباؤهم ﴿ وَرَبَّـك فَكَبِّر ﴾ خصّـه بالتعـظيم ولا تشـرك معه في ذلك غيره ﴿ وثِيَابكَ فَطَهِّـر ﴾ لتكون مستعـداً للوقوف بين يـدي الله إذ لا يليق بـالمؤمن أن يكـون مستقـذراً نجسـاً ﴿ وَالـرُّجْـزَ فَـاهْجُـر ﴾ أي اهجـر أسباب الرّجز ـ وهو العذاب ـ بأن تـطيع الله وتنفـذ أمره ﴿ وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِـر ﴾ ولا تهب أحداً هبة وأنت تـطمع أن تستعيض من المـوهوب أكثـر مما وهبت ، فهذا ليس من شأن الكِـرام ﴿ وَلِرَبِّـك فَاصْبِـر ﴾ (١) على ما سيلحقـك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله .

الـــدعوة ســـرّاً

فقـام عليه الصـلاة والسلام بـالأمر ودعـا لعبادة الله أقـوامـاً جُفـاة لا دين لهم ، إلا أن يسجـدوا لأصنـام لا تنفـع ولا تضـر ، ولا حجـة لهم إلا أنهم متّبعـون لما كـان يعبد آبـاؤهم ، وليس عندهم من مكـارم الأخلاق إلا مـا كان

= ٢ ـ ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يـراه ، كما قـال ﷺ : إن روح القدس نفث في روعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب.

٣ ـ كان يتمثل له المَلَك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، فقد كان يأتيه في صورة دحية الكلبي.

٤ ـ كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدّه عليه، حتى إن جبينه ليتفصّد عَـرَقاً في اليـوم الشديد البرد، وحتى إن راحِلته لتبرُك به على الأرض.

٥ ـ أن يـرى المَلَك في صورتـه التي خُلِق عليها لـه ستمائـة جناح، فيُـوحي إليه مـا شـاء الله أن يُوحيه، وهذا وقع له مرتين. الأولى: حين سأله أن يُـريه نفسـه أوائل البعثـة بعد فتـرة الوحي. والثانية: كما في سورة النجم: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سِدْرة المنتهى ﴾.

(١) سورة المدثر الآيات: ١ ـ ٧.

مرتبطاً بالعزّة والأنَفَة ، وهو الذي كثيرا ما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء ، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه . فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان ، ومن أعْمته الرياسة أدبر واستكبر كيلا تُسلب منه عظمته .

وكان أول من سَطَع عليه نور الإسلام خديجة بنت خويلد زَوجهُ[1] ، وعلي بن أبي طالب ابن عمه[2] ، وكان مُقيماً عنده يُطعمه ويسقيه ويقوم بأمره ، لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة وكان أبو طالب مُقِلاً كثير الأولاد ، فقال عليه الصلاة والسلام لعمّه العباس بن عبد المطلب : إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدّة ، فانطلق بنا لنخفِّف من عياله تأخذ واحداً وأنا واحداً ، فانطلقا وعرضا عليه الأمر ، فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب وأخذ عليه الصلاة والسلام عليّاً ، فكان في كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوّة وقد ناهز الإحتلام ، فكان تابعاً للنبي في كل أعماله ، ولم يتدنس بدَنَس الجاهلية من عبادة الأوثان واتّباع الهوى ، وأجاب أيضاً زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي[3] مولاه عليه الصلاة والسلام ، وكان يُقال له زيد بن محمد ، لأنه لمّا اشتراه أعتقه وتبنّاه ، وكان المتنبى معتبراً كابن حقيقي يرث ويورث ، وأجابت أيضاً أُمُّ أيمن حاضنته التي زوّجها لمولاه زيد . وأول منْ أجابه من غير أهل بيته أبو بكر[4] بن أبي قحافة بن عامر بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرّة التيمي القرشي كان صديقاً لرسول الله ﷺ قبل النبوّة يعلم ما اتّصف به من مكارم الأخلاق ولم يَعْهد عليه كذباً منذ اصطحبا ، فأوّل ما أخبره برسالة الله أسرع بالتصديق ، وقال : بأبي أنت وأمي ، أهل الصدق أنت ، أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأنك

---

(١) كانت أول مَنْ آمن بالله وبرسوله على الاطلاق.

(٢) كان أول ذكر من الناس وهو ابن عشر سنين على بعض الروايات.

(٣) مولى رسول الله ﷺ .

(٤) واسمه عبد الله وسمي عتيقاً، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفاً لقومه، وكان لقبه الصدّيق، لأنه صدّق بما جاء به رسول الله في خبر الإسراء توفي سنة ١٣ هـ .

رسول الله . كان رضي الله عنه صدراً معظّماً في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق ، وكان من أعفّ الناس ، سخياً ، يبذل المال ، محبّباً في قومه حسن المجالسة ، ولذلك كله كان من رسول الله ﷺ بمنزلة الوزير ، فكان يستشيره في أموره كلها ، وقال في حقه : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر » . وكانت الدعوة إلى الإسلام سرّاً حذراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا ، فيصعب استسلامهم فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلا مَنْ يثق به . ودعا أبو بكر إلى الإسلام مَنْ يثق به من رجال قريش ، فأجابه جمع :

(منهم) عثمان بن عفان(1) بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي ، ولما علم عمه الحكم(2) بإسلامه ، أوثقه كتافاً وقال : ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدث !!! والله لا أحلّك حتى تدع ما أنت عليه ، فقال عثمان : والله لا أدعه ولا أُفارقه . فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه ، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره .

(ومنهم) الزبير بن العوّام(3) بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي ، وأمه صفية بنت عبد المطلب ، وكان عمّ الزبير يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه فقوّاه الله بالثبات وكان شاباً لا يتجاوز سن الإحتلام .

(ومنهم) عبد الرحمن بن عوف(4) بن عبد عوف بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الهاشمي ، وكان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسمّاه عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن .

---

(1) لقِّب بذي النورين لزواجه من بنتي النبي ﷺ رقية وأم كلثوم، وهو ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

(2) هو الحكم بن أبي العاص بن أمية، عم عثمان ووالد مروان، أسلم يوم الفتح.

(3) هو أبو عبد الله، أحد العشرة المبشرين بالجنة. وأول من سَلّ سيفه في الاسلام.

(4) هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وسمّاه رسول الله ﷺ عبد الرحمن، وكان يحترف التجارة، توفي سنة ٣٢ هـ .

(ومنهم) سعد بن أبي وقاص[١] مالك بن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري القرشي . ولما علمت أمه حَمْنَةُ بنت أبي سفيان بن أمية بإسلامه قالت له : يا سعد بلغني أنك قد صبأت[٢] ! فوالله لا يظلُّني سقف من الحر والبرد وإنَّ الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه أمر أمِّه فنزل في ذلك تعليماً ، قول الله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنا الإنسانَ بِوَالِدَيهِ حُسناً وإنْ جَاهَداكَ لِتُشْرِك بي ما لَيْس لَكَ بِهِ عِلْم فَلا تُطِعْهُمَا إليَّ مَرْجِعُكُم فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾[٣] وصّاه جلّ ذكره بوالديه وأمره بالإحسان إليهما مؤمنين كانا أو كافرين ، أما إذا دَعَواه للإشراك فالمعصية متحتمة . لأن كل حق ، وإن عظم ساقط هنا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ثم قال : إليَّ مرجعكم مَنْ آمن منكم ومَنْ أشرك فأجازيكم حق جزائكم . وفي ختام هذه الآية فائدتان : التنبيه على أن الجزاء إلى الله فلا تحدّث نفسك بجفوتهما لإشراكهما ، والحضّ على الثبات في الدين لئلا ينال شرّ جزاء في الأخرى .

(ومنهم) طلحة بن عبيد الله[٤] بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة التيمي القرشي وقد كان عَرَفَ من الرهبان ذكر الرسول وصفته ، فلما دعاه أبو بكر وسمع من رسول الله ما نفعه الله به ، ورأى الدين متيناً بعيداً عمّا عليه العرب من المثالب ، بادر إلى الإسلام .

(وممّن) سبقوا إلى الإسلام صهيب الرومي[٥] وكان من الموالي ،

---

(١) هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، فاتح العراق ومدائن كسرى، ويقال له فارس الإسلام .

(٢) صبأ: وهو ما كان يطلقه المشركون على من يدخل في الإسلام.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٨.

هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية السابقين الى الإسلام، من الأجواد، ويقال له

(٤) ولأبي بكر «القرينان» قتل يوم الجمل ودفن بالبصرة سنة ٣٦ هـ .

(٥) هو صهيب بن سنان بن مالك، من أرمى العرب سهماً، وفي الحديث « أنا سابق العرب، =

وعمّار بن ياسر العنسي[1] وقد قال رضي الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر[2] ، وكذلك أسلم أبوه ياسر وأمه سميّة .

(ومن) السابقين الأوّلين عبد الله بن مسعود[3] كان يرعى الغنم لبعض مُشركي قريش ، فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه الإسلام من مكارم الأخلاق ، ترك عبادة الأوثان ولزم رسول الله ، وكان رضي الله عنه كثير الدخول على الرسول لا يُحجب ، ويمشي أمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويُلبسُه نعليه إذا قام ، فإذا جلس أدخلهُما في ذراعيه .

(ومن) السابقين الأوّلين أبو ذر الغفاري[4] وكان من أعراب البادية فصيحاً حلو الحديث ، « ولما بلغه مَبْعَث رسول الله قال لأخيه[5] : إركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني ، فانطلق الأخ حتى قدم مكة وسمع من قول الرسول ﷺ ثم رجع إلى أبي ذر فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر ، فقال : ما شفيتني مما أردت . فتزوّد وحمل قِربة له فيها ماء ، حتى قَدِمَ مكة فأتى المسجد ، فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه ، وكَرِه أن يسأل عنه لما يعرفه من كراهة قريش لكل مَنْ يخاطب رسول الله ، حتى إذا أدركه الليل رآه عليّ فعرف أنه غريب فأضافه عنده ، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء (على قاعدة الضيافة عند العرب لا

= وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة ».

(١) هو أحد السابقين الى الاسلام والجَهر به، وفي الحديث: « ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما ».

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، رقم ٣٦٦٠.

(٣) هو أبو عبد الرحمن، وأول من جهر بالقرآن بمكة، توفي بالمدينة سنة ٣٢ هـ .

(٤) هو جندب بن جنادة من بني غفار، وهو أوّل من حيّا رسول الله بتحية الإسلام.

(٥) واسمه أُنيس.

يُسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث) فلما أصبَحَ احتمل قِربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمرّ به عليّ فقال : أما آن للرجل أن يعرف منزله الذي أُضيف به بالأمس ؟ فأقامه ، فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليّ مثل ذلك ، ثم قال له علي : ألا تحدّثني ما الذي أقدَمَكَ ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لتُرْشِدني فعلت ، ففعل فأخبره ، قال : فإنه حق وهو رسول الله ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل . فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : إرجع إلى قومك فاخبرهم حتى يأتيك أمري ، قال : والذي نفسي بيده لأصرُخنَّ بها بين ظَهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكبَّ عليه وقال : ويلكم أوَلَسْتُمْ تعلمون أنه من غِفار ؟ وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه ! فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها ، فضربوه وثاروا إليه ، فأكبَّ العباس عليه » . (رواه البخاري)(1) . كان رضي الله عنه من أصدق الناس قولاً ، وأزهدهم في الدنيا .

(ومن) السابقين سعيد بن زيد العدوي القرشي(2) وزَوجه فاطمة(3) بنت الخطاب أخت عمر ، وأُم الفضل لُبابة بنت الحارث الهلالية(4) زوج العباس بن عبد المطلب ، وعُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف(5) بن

---

(1) في كتاب مناقب الأنصار، باب: إسلام أبي ذر، رقم ٣٨٦١.

(2) هو من السابقين والمهاجرين الأوّلين، وكان إسلام عمر بن الخطاب عنده في بيته، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

(3) فاطمة بنت الخطاب من فواضل نساء عصرها، كانت ذات إيمان قوي بالله وبالإسلام.

(4) من نبيلات النساء، وتسمى «لبابة الكبرى» تمييزاً لها عن أخت لأبيها تسمى «لبابة الصغرى» وهي التي ضربت أبا لهب بعمود فشجّته حين رأته يضربِ رافع مولى رسول الله ﷺ .

(5) في الأصل: عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم وهو خطأ.

عم رسـول الله ﷺ[١] وأبـو سلمـة عبـد الله بن عبـد الأسـد المخـزومي القرشي[٢] ابن عمة رسـول الله ﷺ ، وزوجه أم سلمـة ، وعثمان بن مـظعون الجمحي القرشي[٣] ، وأخواه قُـدامة ، وعبـد الله ، والأرقم بن أبي الأرقم[٤] المخزومي القرشي .

(ومن) السـابقين الأوّلين خالـد بن سعيـد بن العـاص بن أميـة بن عبـد شمس الأمـوي القرشي[٥] : كـان أبـوه سيـد قـريش إذا اعتمَّ لم يعتمُّ قـرشي إجـلالاً له ، وكـان خالـد بن سعيد قـد رأى في منامـه أنه سيقـع في هاويـة ، فأدركه رسول الله وخلّصه منها فجاء إليه وقال : إلامَ تـدعو يـا محمد ؟ قـال : (أدعـوك إلى عبـادة الله وحـده لا شـريـك لـه ، وأن تخلع مـا أنت عليـه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضـرّ ولا ينفع ، والإحسـان إلى والديـك ، وأن لا تقتـل ولدك خشيـة الفقر ، وأن لا تقـرب الفـاحشـة مـا ظهـر منهـا ومـا بـطن ، وأن لا تقتل نفسـاً حرّم الله إلا بـالحق ، وأن لا تقـرب مـال اليتيم إلا بـالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه ، وأن تـوفي الكيل والميـزان بالقسط ، وأن تعـدل في قولـك ولو حكمت على ذوي قـربـاك ، وأن تـوفي لمن عـاهـدت) فـأسلم رضي الله عنه ، وحينئـذ غضب عليـه أبـوه وآذاه حتى منعـه القـوت ، فـانصرف إلى رسـول الله ﷺ فكان يلزمـه ويعيش معـه ، ويغيب عن أبيـه في ضواحي مكة ، وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد .

وهكـذا دخل هؤلاء الأشـراف في دين الإسـلام ، ولم يكن مـع رسـول الله ﷺ سيف يضـرب به أعنـاقهم حتى يـطيعـوه صـاغـرين ، وليس معـه مـا

---

(١) أبو الحارث، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام.

(٢) أحد السابقين إلى الإسلام، هاجر مع زوجتـه أُمّ سلمة إلى الحبشـة، وشهد بـدراً، وكان آخـا رسول الله ﷺ من الرضاعة، وأمه عمة رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب.

(٣) كان من حكماء العرب في الجاهلية، وأسلم بعد ثلاثة عشـر رجلاً، وهـاجر الهجـرتين، وشهد بدراً، وكان أول رجل مات بالمدينة من المهاجرين. وهو أحد من حرّم الخمر في الجاهلية.

(٤) من المهاجرين الأوّلين، أسلم بعـد عشرة، وهـو صاحب حلف الفضـول، وكان النبي ﷺ في داره حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلماً.

(٥) من الولاة الغُزاة، وكان الثالث أو الرابع من الداخلين في الإسلام.

يـرغب فيـه حتى يتــرك هؤلاء العـظمــاء آبـاءهـم وذوي الثــروة منهم ويتبعـوا الرسول ليـأكلوا من فضل مـاله ، بـل كان الكثيـر منهم واسع الثـروة أكثر منه عليـه الصلاة والسـلام كأبي بكـر وعثمان وخـالد بن سعيـد وغيرهم ، والـذين اتّبعـوه من الموالي اختـاروا الأذى والجـوع والمشقّـات مـع اتّبـاع الـرسـول ، بحيث لو اتبعوا سادتهم لكانـوا في هذه الـدنيا أهـدأ بالاً وأنعم عيشـة ، اللهمّ ليس ذلك إلا من هدايـة الله وسطوع أنـوار الدين عليهم ، حتى أدركـوا ما هم عليه من الضلالة وما عليه رسول الله من الهدى .

الجهر بالتبليغ

مضت كل هذه المـدة[1] والنبي عليه الصـلاة والسلام لا يُـظهر الـدعوة في مجـامـع قــريش العـمـوميــة ، ولم يكن المسلمـون يتمكّنــون من إظهـار عبــادتهم حـذراً من تعصب قــريش ، فكـان كــلًّ من أراد العبـادة ذهب إلى شِعـاب مكة يصلّي مستخفيـاً ، ولمّا دخـل في الدين مـا يربـو على الثلاثين ، وكـان من اللازم اجتمـاع الرسـول بهم ليرشـدهم ويعلّمهم ، إختار لـذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم[2] ـ وهـو ممّن ذكـرنـا إسـلامهم ـ ومكث عليــه الصـلاة والسلام يدعو سرّاً حتى نزل عليه قـوله تعـالى في سورة الحجـر : ﴿ فَاصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْـرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِيْنَ ﴾[3] ، فبـدَّل الدعـوة سرّاً بـالدعـوة جهراً[4] ممتثلاً أمر ربه واثقاً بوعده ونصره ، فصعد على الصفـا فجعل ينـادي : يا بني فِهر ، يا بنيٍ عـدي ، لبطون قـريش ، فجعل الـرجل إذا لم يستـطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب قريشاً ، فقال عليه

---

(١) قـال صاحب السيـرة الحلبية : المـدة التي صار يـدعو النـاس فيها خفيـة بعد نـزول ﴿ يـا أيهـا المدّثر ﴾ ثلاث سنين .

(٢) دار الأرقم : هي المعروفة بدار الخيزران عند الصفا، اشتراها الخليفـة المنصور وأعـطاها ولـده المهدي ، ثم أعطاها المهدي للخيزران .

(٣) سورة الحجر الآية : ٩٤ .

(٤) لعل الأصوب : فبدّل بالدعوة سراً الدعوة جهراً .

الصلاة والسلام : (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتمُ مصدقيّ ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) ، فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله في شأنه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ فِي جِيْدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾[1] والقصد من حمل الحطب المشي بالنميمة لأنها كانت تقول على رسول الله الأكاذيب في نوادي النساء . ثم نزل عليه في سورة الشعراء : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ ﴾ وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِيْنَ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي العشيرة والأقربون ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2] فجمعهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم : « إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبتُ الناسَ جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذي لا إلّه إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتُنَّ كما تَنامون ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون ، ولَتُحاسبنَّ بما تعملون ، ولتجزُونَّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنّة أبداً أو لنار أبداً »[3] . فتكلم القوم كلاماً ليّناً غير عمه أبي لهب الذي كان خصماً لدوداً فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه إذاً ذللتم ، وإن منعتموه قُتلتم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعنّه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع .

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة سَخِرت منه قريش واستهزؤوا به في مجالسهم ، فكان إذا مَرَّ عليهم يقولون : هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السماء ! وهذا غلام عبد المطلب يُكلم من السماء لا يزيدون على ذلك ، فلما عابَ آلهتهم وسَفَّهَ عقولهم وقال لهم : والله يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم ، ثارت في رؤوسهم حميّة الجاهلية غَيْرَة على

---

(١) سورة المسد. رواه مسلم في الإيمان، رقم: ٢٠٨.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ٢١٤ ـ ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٣) هذه الخطبة لرسول الله ﷺ ذكرها صاحب السيرة الحلبية ١ / ٢٨٥.

تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم فذهبوا[1] إلى عمه أبي طالب سيد بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه فطلبوا منه أن يُخْلي بينهم وبينه أو يكفّه عمّا يقول ، فردّهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله لما يريده لا يصدّه عن مراده شيء ، فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله ﷺ ، وحثَّ بعضهم بعضاً على ذلك .

ثم مشوا الى أبي طالب مرة أخرى وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة منّا ، وإنَّا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنّا ، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه عقولنا ، وعيب آلهتنا . فإنهم كانوا إذا احتجّوا بالتقليد في استمرارهم على عدم اتّباع الحق ذمّهم لعدم استعمال عقولهم فيما خُلقت له قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَو كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئَاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾[2] وقال في سورة المائدة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إلى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءنَا أَوَ لو كَانَ آباؤُهُمْ لاَ يَعْلَمون شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدونَ ﴾[3] وقال في سورة لقمان : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله قَالُوا بَل نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَو كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السَّعِيْرِ ﴾[4] وقال في سورة الزخرف في بيان حجتهم الداحضة : ﴿ قَالَ مُتْرِفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾[5] ولما شبّههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدّالة على التعصب والعناد قال : ﴿ قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾[6] فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جرّ

---

(١) ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ، أبو سفيان، والعاص بن هشام، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٧٠ .

(٣) سورة المائدة الآية: ١٠٤ .

(٤) سورة لقمان الآية: ٢١ .

(٥) سورة الزخرف الآية: ٢٣ .

(٦) سورة الزخرف الآية: ٢٤ .

ذلـك إلى وصف آبائهم بعـدم العقل وعـدم الهداية ، فهاجَ ذلـك أضغانهم ، وقـالوا لأبي طـالب : إما أن تكفّـه أو نُنازلـه وإياك في ذلـك حتى يهلك أحـد الفـريقين ، ثم انصرفـوا فعظم على أبي طـالب فـراق قـومـه ولم يـطب نفسـاً بخذلان ابن أخيه ، فقال له : يا ابن أخي إن القوم جـاؤوني فقالـوا لي كذا ، فأبق على نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فـظن الرسـول أن عمّه خـاذله فقـال : « والله يا عم لـو وضعوا الشمس في يميني والقمـر في يسـاري على أن أتـرك هذا الأمـر ما فعلت حتى يُـظهره الله أو أهلك دونـه » ، ثم بكى وولى . فقـال أبو طـالب أقبل يـا ابن أخي فأقبـل عليه ، فقـال اذهب فقل مـا أحببت والله لا أسلمك .

الإيـــــذاء

ورأى رسـول الله من المشركين كثيـر الأذى وعظيم الشـدّة ، خصـوصـاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت ، وكـان من أعظمهم أذىً لـرسول الله جمـاعة سمّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين .

(فأوّلهم) وأشدّهـم أبـو جهل عمـرو بن هشام[1] بن المغيـرة المخزومي القـرشي ، قال يـوماً : يـا معشر قـريش إنَّ محمداً قـد أتى ما تـرون من عيب دينكم وشتم آلهتكم ، وتسفيـه أحـلامكم ، وسبّ آبـائكم ، إني أُعـاهـد الله لأجلسنّ لـه غداً بحجـر لا أطيق حمله ، فـإذا سجـد في صـلاتـه رضَخْتُ بـه رأسه فأَسْلِمُوني عند ذلـك أو امنعوني ، فليصنـع بي بعد ذلـك بنو عبـد مناف مـا بـدا لهم ، فلمـا أصبـح أخـذ حجـراً كمـا وصف ثم جلس لـرسـول الله ينتظره ، وغدا عليه الصلاة والسـلام كما كـان يغدو إلى صـلاته ، وقـريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعِل ، فلما سجد عليه الصـلاة والسلام احتمـل

---

(١) من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، وكان يقال له « أبـا الحكم » فدعـاه المسلمون « أبـا جهل » حتى كانت وقعة بدر ، فشهدها مع المشركين فكان من قتلاها .

أبو جهل الحجر وأقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً[1] لونه من الفزع ورمى حجره من يده . فقام اليه رجال من قريش فقالوا : ما لكَ يا أبا الحكم ؟ قال قدمت إليه لأفعل ما قلت لكم فلما دنوتُ منه عرض لي فحل من الإبل، والله ما رأيت مثله قطّ هَمَّ بي أن يأكلني ! فلما ذُكر ذلك لرسول الله قال : ذاك جبريل ولو دنا لأخذه[2] . وكان أبو جهل كثيراً ما ينهي الرسول عن صلاته في البيت[3] فقال له مرة بعد أن رآه يصلي : ألم أنهَكَ عن هذا ؟ فأغلظ له رسول الله القول وهدده ، فقال : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ، فأنزل الله تهديداً له في آخر سورة إقرأ : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بالنَّاصيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ واقْتَرِبْ ﴾[4] .

ومن أذيته للرسول ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخاري . قال : كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فَرْث[5] جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبي مُعَيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبي ﷺ وهو ساجد ، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم ، ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته . فلما قام دعا على مَنْ صنع هذا الصنع القبيح فقال : اللهمّ عليك بالملأ من قريش وسمّى أقواماً[6] ، قال ابن مسعود فرأيتهم قُتلوا يوم بدر .

---

(١) منتقعاً ، متغيراً.

(٢) روى مسلم في صحيحه في صفات المنافقين وأحكامهم، رقم: ٢٧٩٧ ، عن أبي هريرة بعد ذكر الحديث، فقيل له (أي لأبي جهل): ما لك، فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نارٍ وهَوْلاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ « لو دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضواً ».

(٣) الصواب: عند البيت.

(٤) سورة العلق الآيات: ١٥ ـ ١٩ .

(٥) الفرث: الكرش.

(٦) رواه البخاري في الوضوء. عن عبد الله بن مسعود وتتمة الحديث: «اللهمّ عليك بقريش ثلاثاً، =

ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن هذا ابتاع أجمالاً من رجل يقال له الإراشي[1] فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله فدلّوه على رسول الله ليُنصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول ، فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل فخرج معه حتى ضرب عليه بابه فقال : مَنْ هذا ؟ قال : محمد ، فخرج منتقعاً لونه فقال له الرسول : أعطِ هذا حقه ، فقال أبو جهل لا تبرحْ حتى تأخذه ، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دَيْنه ، فقالت قريش : ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثل ما صنعت ! قال ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي حتى سمعت صوته فملئت منه رعباً ، وإن فوق رأسي فحلا من الإبل ما رأيت مثله[2] .

(ومن جماعة المستهزئين) أبو لهب بن عبد المطلب[3] عمّ رسول الله كان أشدّ عليه من الأباعد ، فكان يرمي القذر على بابه لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول يطرحه ويقول : يا بني عبد مناف أيُّ جوار هذا ، وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجه أمّ جميل بنت حرب بن أمية ، فكانت كثيراً ما تسبّ رسول الله ، وتتكلم فيه بالنمائم ، وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب .

(ومن المستهزئين) عُقبة بن أبي مُعَيط كان الجار الثاني لرسول الله وكان يعمل معه كأبي لهب ، صنع مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل طعامك حتى تؤمن

= فشقّ عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: اللهمَّ عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة؛ وأُميَّة بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعدَّ السابع فلم نحفظه، قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عَدَّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب قليب بدر ».

(١) الإراشي: نسبة إلى إراشة بطن من خثعم.

(٢) لو أبيت أو تأخرت لأكلني. كذا في السيرة الحلبية.

(٣) اسمه عبد العزّى، من أشد الناس عداوة للمسلمين في الإسلام، نزلت فيه الآية: ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾.

بالله ، فتشهَّد ، فبلغ ذلك أبيّ بن خَلف الجُمحي القرشي ، وكان صديقاً له فقال : ما شيء بلغني عنك ؟ قال : لا شيء ، دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يَطعم فشهدت له . قال أُبيّ : وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمداً فلم تطأ عنقه ، وتبزق في وجهه ، وتلطم عينه[١] ، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه سورة الفرقان : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُول سَبيلاً يَا وَيلتى لَيْتني لم أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيْلاً لَقَدْ أَضَلّني عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكانَ الشَّيْطَانُ للإنسانِ خَذُولاً ﴾[٢] ومن أشدّ ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه[٣] قال : بينما النبي يصلّي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال : ﴿ أَتَقْتُلون رَجُلاً أَنْ يقُولَ ربِّي الله وَقَدْ جَاءَكُم بِالبيِّناتِ منْ رَبِّكُمْ ﴾[٤] .

(ومن جماعة المستهزئين) العاص بن وائل السهمي القرشي والد عمرو بن العاص ، كان شديد العداوة لرسول الله ، وكان يقول : غرَّ محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر ، فقال الله ردّاً عليه في دعواه في سورة الجاثية : ﴿ وَقالوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنا الدُّنْيَا نَموتُ وَنَحْيا

---

(١) في سيرة ابن هشام : أن أُبيّاً قال لعقبة : وجهي من وجهك حرام أن أُكلمك إن أنت جلست إليه أو سمعت منه ، أو لم تأته فتتفل في وجهه ، ففعل ذلك عدو الله عقبة بن أبي معيط لعنه الله . اهـ . والمسألة ليست ضعفاً أو قوة بل هو موقف متخذ بعدم رد الأذى واحتمال الذل حتى لا يقع صدام ودماء تحول في المستقبل دون إسلامهم وهذا من وحي علّام الغيوب .

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ .

(٣) باب : تفسير سورة المؤمن ، رقم : ٤٨١٥ ، عن عروة بن الزبير ، قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشدّ ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال : فذكر الحديث .

(٤) سورة غافر الآية : ٢٨ .

وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ وما لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُم إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[١]. وكان عليه دَيْن لِخَبَّاب بن الأرتِّ أحد رجال المسلمين[٢] فتقاضاه إياه فقال العاص : أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما يبتغي أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟ قال خباب : بلى ، قال : فانظرني إلى هذا اليوم فسأوتى مالاً وولداً وأقضيك دينك ، فأنزل الله فيه في سورة مريم : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لأُوتَينَّ مالاً وولداً . أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحمَنِ عَهْداً . كَلاّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً وَنَرِثُه مَا يَقُولُ وَيَأْتِيْنا فَرْداً ﴾[٣] .

(ومن جماعة المستهزئين) الأسود بن عبد يغوث الزهري[٤] القرشي من بني زهرة أخوال رسول الله كان إذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض ، استهزاءً بهم لأنهم كانوا متقشفين : ثيابهم رثّة ، وعيشهم خشن ، وكان يقول لرسول الله سخرية : أما كُلِّمتَ اليوم من السماء ؟ .

(ومنهم) الأسود بن عبد المطلب الأسدي ابنُ عم خديجة كان هو وشيعته إذا مرّ عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل في سورة المطفِّفِيْن : ﴿ إِنَّ الَّذينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وإِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُون وإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِيْنَ وإذا رَأوهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤلاءِ لَضَالُّونَ ﴾[٥] .

(ومنهم) الوليد بن المغيرة عم أبي جهل ، كان من عظماء قريش

---

(١) سورة الجاثية الآية : ٢٤ .

(٢) هو أبو عبد الله ، من السابقين ، قيل أسلم سادس ستة ، وهو أول من أظهر إسلامه ، عذِّب كثيراً ليرجع عن دينه فصبر ، قال علي بن أبي طالب : رحم الله خباباً ، أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً .

(٣) سورة مريم الآيات : ٧٧ ـ ٨٠ .

(٤) هو الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف زهرة ابن أخي آمنة أم رسول الله ﷺ .

(٥) سورة المطففين الآيات : ٢٩ ـ ٣٢ .

وفي سعة من العيش ، سمع القرآن مرة من رسول الله ﷺ ، فقال لقومه بني مخزوم والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو كلام الإنس ولا من كلام الجن وإنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمُثمر ، وإن أسفله لمُغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، لتصبأنَّ قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه فتوجه وقعد اليه حزيناً وكلّمه بما أحماه[1] ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يُهَوِّس[2] ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ ؟ وتزعمون أنه كذّاب فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك اللهمّ لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ ففكَّر قليلاً ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فارتجّ النادي فرحاً فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدّثر مخاطباً لرسوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيْدَاً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِيْنَ شُهوداً ومهَّدت لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّه كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً . سأُرهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّه فَكَّرَ وَقَدَّر . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر . ثُمَّ نَظَرَ ثم عَبَسَ وَبَسَر ثُمَّ أَدْبَر واستَكْبَر فَقَال إنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤثَرُ إنْ هذا إِلَّا قَولُ البَشَرِ . سَأُصْلِيه سَقَر ﴾[3] وأنزل فيه أيضاً في سورة ن : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ ﴾ كثير الحلف وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف ﴿ مَهِيْنٍ ﴾ حقير وأراد به الكذاب لأنه حقير في نفسه ﴿ هَمَّازٍ ﴾ عيّاب طعان ﴿ مَشَّاءٍ بنَمِيمٍ ﴾ بنقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَير مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ ﴾ غليظ جاف ﴿ بَعدَ ذلك زَنِيْمٍ ﴾ دخيل ﴿ أن كَانَ ذَا مَالٍ وَبنينَ إذاً تُتْلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَساطِيْرُ الإوّلِيْنَ سَنَسِمُهُ على الخُرطُومِ ﴾[4] كناية عن الاذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه ولذلك اشتقّوا منه كل ما

---

(١) أحماه أغضبه.

(٢) الهوس طرف من الجنون.

(٣) سورة المدّثر الآيات: ١١ ـ ٢٦.

(٤) سورة القلم الآيات: ١٠ ـ ١٦.

يـدل على العظمـة كـالأنفـة وهي الحميـة فـالـوسم على أشـرف عضـو دليـل الإذلال والإهانة .

(ومن المستهـزئين) النضر بن الحـارث العبدري من بني عبـد الدار بن قصي كـان إذا جلس رسول الله مجلسـاً للناس يحـدِّثهم ويذكِّـرهم ما أصـاب مِنْ قبلهم قـال النضر : هلّمـوا يـا معشـر قـريش فـإني أحْسَنُ منـه حـديثـاً ثم يحـدِّث عن ملوك فارس ، وكـان يعلم أحاديثهم ، ويقـول ما أحـاديث محمـد إلا أساطير الأوّلين وفيه نزل في سـورة لقمان : ﴿ وَمِنَ النَّـاس مَنْ يَشْتَرِي لَهْـوَ الحَـدِيْثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبيـل الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِـذَهَـا هُـزواً أُولئـك لَهُم عَـذابٌ مُهينٌ وإذا تُتلى عَلَيـه آياتُنـا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَـأنْ لم يَسْمَعْها كـأَنَّ في أُذُنَيْـهِ وَقْـراً فَبَشِّـرهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] وكـل هؤلاء انتقم الله منهم كمـا قـال الله تعـالى في سـورة الحِجر : ﴿ إنَّـا كَفَيْنَاكَ المسْتَهْـزئينَ الـذِيْنَ يَجْعلونَ مـع الله إلَهـاً آخـر فَسـوفَ يعلمون ﴾[2] وقـد وضـع الله جـلَّ ذكـره الـوعـد في صـورة المـاضي للتحقّق من وقـوعه ، لأن الآيـة مكيّة وهـلاك هـذه الفئـة كـان بعـد الهجـرة ، فمنهم من قُتِـل كأبي جهـل والنضر بن الحـارث وعقبـة بن أبي معيط ، ومنهم من ابتـلاه الله بـأمـراض شـديـدة فهلك منهـا كـأبي لهب والعـاص بن وائـل والوليد بن المغيرة .

إسلام حمزة[3]

وكـان بعض إيذائهم هـذا سبباً لإسـلام عمّه حمـزة بن عبـد المـطلب ، فقـد أدركتـه الحميّـة عنـدمـا عيّـرتـه بعض الجـواري بـإيـذاء أبي جهـل لابن

(١) سورة لقمان الآية ٦ ـ ٧ .

(٢) سورة الحجر الآية ٩٦ .

(٣) حمزة بن عبد المطلب، سيد الشهداء أسد الله وأسد رسولـه، أسنّ من النبي ﷺ بسنتين، أحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام، شجاعـاً، ويوم أُحُـد رماه وحشي بحـربة فقتله فدفن بالمدينة سنة ٣ هـ .

أخيه(١)، فتوجه إلى ذلك الشقي وغاضبه وسبّه ، وقال : كيف تسبّ محمداً وأنا على دينه ، ثم أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً ، وأشدّهم غيرة على المسلمين ، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمي أسدَ الله .

وكما أُوذي الرسول عليه الصلاة والسلام أُوذي أصحابه لاتِّباعهم له خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه وتردّ كيد عدوه عنه ، وكل هذا الأذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضاء الله ، فلم يفتنوا عن دينهم بل ثبتهم الله حتى أتمّ أمره على أيديهم ، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها ، كما قال جلّ ذكره في سورة القصص : ﴿ وَنُرِيْدُ أَن نَمُنَّ عَلى الَّذيْنَ اسْتُضْعِفوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلَهم أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِيْنَ ﴾(٢) وقد حقّق ما أراد .

(ومن) الذين أُوذوا في الله بلال بن رباح كان مملوكاً لأميّة بن خلف الجمحي القرشي ، فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبُون به وهو يقول : أحد أحد . لم يَشْغَلْهُ ما هو فيه عن توحيد الله . وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء ـ وهي الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لَنَضِجت ـ ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى ، فيقول : أحد أحد(٣) . مرَّ به أبو بكر يوماً فقال يا أميّة أما تتقي الله في هذا المسكين حتى متى تعذبه ؟ قال أنت أفسدته فأنقذه مما ترى . فاشتراه منه وأعتقه فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لا يصْلاها إلاَّ الأَشْقَى ﴾ أمية بن خلف ﴿ الذي كَذَّبَ وَتَوَلّى وَسَيُجَنَّبُهَا

---

(١) وقد أخبرته مولاة عبد الله بن جدعان بذلك وهو راجع من قنص له، فجاء المسجد فعلا رأس اللعين أبي جهل بقوسه فشجّه شجّة منكرة، وقال أتشتمه وأنا على دينه فردّ ذلك عليّ إن استطعت، ديني دين محمد إن كنتم صادقين فامنعوني.

(٢) سورة القصص الآية: ٥

(٣) يقولها وهو صادق الإسلام، طاهر القلب، مزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان.

الأَتْقَى ﴾ الصدّيق ﴿ الذي يُؤْتِي مـاله يَتَـزَكّى وَما لأَحَـدٍ عِنْدَهُ من نِعْمَـةٍ تُجْزَى إلَّا ابْتِغـاءَ وَجْه رَبِّـهِ الأَعْلى وَلَسَوْفَ يَـرْضَى ﴾[1] بما يعـطيـه الله في الأخـرى جـزاء أعمالـه . وقد نبّـه الله جلّ ذكـره على أن بذل الصـديق مالـه في شـراء بـلال وعتقه لم يكن إلا ابتغـاء وجه ربـه ، وكفى بهذا شـرفاً وفضـلاً للصـديق رضي الله عنـه وأرضـاه ، وقـد أعتق غيـرَ بـلال جمـاعـة من الأرقـاء أسلمـوا فعذبهم مواليهم . (ومنهم) حَمامَةُ أُم بـلال ، وعامـر بن فُهَيرة[2] كـان يعذب حتى لا يـدري مـا يقـول، وأبـو فُكيهـة كـان عبـداً لصفـوان بن أميـة بن خلف . (ومنهم) امـرأة تسمى زِنِّيرة عـذّبت في الله حتى عميت فلم يـزدهـا ذلـك إلَّا إيماناً[3] ، وكان أبو جهل يقول : ألا تعجبـون لهؤلاء وأتباعهم لـو كان مـا أتى به محمد خيراً ما سبقـونا إليـه أفتسبقنا زنيـرة إلى رشد ، فـأنزل الله في سـورة الأحقاف : ﴿ وَقَالَ الـذِيْنَ كَفَرُوا لِلَّذينَ آمَنُـوا لَو كَـانَ خَيْرَاً مَـا سَبَقُونَـا إلَيْه وَإِذْ لَمْ يَهْتَـدوا بِهِ فَسَيَقُـولونَ هَـذا إِفْكٌ قَـدِيْمٌ ﴾[4] . (وممّن) أعتق أبو بكـر بعد شرائه : أم عُنَيْس كانت أمَة لبني زهرة وكان يعذبها الأسود بن عبد يغوث .

و (ممّن) عُذب في الله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمـه كانـوا يعذبـون بالنار فمرّ بهم رسول الله ﷺ فقال : صبراً آل ياسر فمـوعدكم الجنـة ، اللهمّ اغفر لآل ياسـر وقد فعلت . أمـا أبو عمـار وأمه فمـاتا تحت العـذاب رحمهما الله ، وأما هو فثقل عليه العذاب فقال بلسانه كلمة الكفر ، فإن أبا جهل كان يجعـل لـه دروعـاً من الحـديـد في اليوم الصـائف ويلبسـه إيّـاهـا ، فقـال المسلمـون : كفر عمـار ، فقال عليـه الصلاة والسـلام : (عمارٌ مليء إيمـانـاً من فـرقه إلى قـدمه) ، وأنـزل الله في شأنـه استثناء في حكم المـرتد ، فقـال جلّ ذكره في سورة النحل : ﴿ مَنْ كَفَرَ بالله مِنْ بَعْـدِ إِيْمَانِـهِ إلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُـهُ

---

(١) سورة الليل الآيات : ١٤ ـ ٢١ .
(٢) شهد بدراً وأُحُداً، وقتل يوم بئر معونة شهيداً.
(٣) أَمَة عمر بن الخطاب أسلمت قبله، فكان يضـربها، فـذهب بصرهـا، فتأبى إلَّا الإسلام ، فقال المشركون : ما أصاب بصرها إلا اللات والعزّى. فقـالت: والله ما هـو كذلـك، فردّ الله عليهـا بصرها .
(٤) سورة الأحقاف الآية : ١١ .

مـطْمَئِنٌّ بالإيمـانِ وَلَكِنْ مَنْ شَـرَحَ بِـالكُفْـرِ صَـدْراً فَعَلَيْهِـمْ غَضَبٌ مِنَ الله وَلهم عَذابٌ عَظِيْمٌ ﴾[1] .

(وممّن أُوذي في الله) خبَّـاب بن الارَت ، سُبي في الجاهليـة فاشتـرته أم أنمار ، وكان حداداً وكان النبي يألفه قبـل النبوة ، فلمـا شَرّفـه الله بها أسلم خبـاب ، فكانت مـولاتـه تعـذبـه بـالنـار فتـأتي بـالحـديـدة المحمّـاة فتجعلهـا على ظهـره ليكفر ، فـلا يزيـده إلا إيمانـاً ، وجاء خبـاب مـرة إلى رسـول الله وهو متوسـد بُرْدَة في ظـل الكعبة فقـال يا رسـول الله ألا تدعـو الله لنا ؟ فقعـد عليـه الصـلاة والسـلام محمّـراً وجهــه فقـال : (إنــه كـان مَنْ قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ويـوضع المنشـار على فرق رأس أحدهم فيشقّ مـا يصرفـه ذلك عن دينـه ، وليظهـرن الله تعالى هـذا الأمـر حتى يسيـر الـراكب من صنعـاء إلى حضـــر مـوت[2] لا يخــاف إلا الله والذئب على غنمه)[3] ، قال ذلك عليـه الصلاة والسـلام وهو في هـذه الحال الشديدة التي لا يتصور فيها أعقـل العقلاء وأنبـل النبلاء قـوة منتظرة أو سعـادة مستقبلة ، اللهمّ إلا أن ذلـك وحي يـوحى إليــه ، ثم أنـزل الله تعــالى تثبيتـاً للمؤمنين أول سورة العنكبوت : ﴿آلم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولوا آمَنّا وهُم لا يُفتَنُونَ وَلقد فَتَنّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَليَعْلَمنَّ الله الذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾[4] .
(وممَّن أُوذي في الله) أبو بكر الصديق ، ولمـا اشتــد عليـه الأذى أجمــع أمـره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة ، فخـرج حتى أتى بَرْكَ الغِمـاد[5] فلقيه ابن الدُغُنَّة (وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها القارةُ)[6] فقـال : إلى أين يا أبـا بكر ؟

(١) سورة النحل الآية: ١٠٦ .-
(٢) حضر موت : وهي ناحية في شرقي عدن .
(٣) رواه البخاري ، في مناقب الأنصار ، رقم : ٣٨٥٢ .
(٤) سورة العنكبوت الآيات : ١ ـ ٣ .
(٥) برك الغماد : موضع وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر . من ياقوت . المؤلف .
(٦) قبيلة مشهـورة من بني الهون ، يُضـرب بهم المثل في قـوة الرمي . واسم ابن الـدغنة ربيعـة بن رفيع وفي السيرة الحلبية الحارث بن رفيع .

فقال أخرجني قومي فأُريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، فقال ابن الدغنة : مِثْلُك يا أبا بكر لا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتَصِل الرَّحم وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتُعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، فارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل ابن الدغنة معه ، وطاف في أشراف قريش ، فقال لهم : أبو بكر لا يُخْرَجُ مثله . أتخرجون رجلاً يُكْسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويُعين على نوائب الحق ! فلم تُكذِّب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا له مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصلِّ فيها ما شاء ، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن ، فإنَّا نخشى أن يفتِن نساءنا وأبناءنا ، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر ، فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يَعْجَبُون منه وينظرون إليه . وكان رجلاً بكَّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم فقالوا : إنَّا كنَّا قد أجَرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنَّا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فإنَّ أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره فعل ، وإن أبى إلَّا أن يعلن ذلك فسَلْه أن يردّ إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَك[1] ولسنا مقرّين لأبي بكر الإستعلان . فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال : قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه . فإمَّا أن تقتصر على ذلك ، وإما أن تُرْجع إليَّ ذمتي ، فإني لا أحبُّ أن تسمع العرب أني أُخْفِرتُ في رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإني أردّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله . (رواه البخاري)[2] وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبي بكر رضي الله عنه .

وبالجملة فلم يخلُ أحد من المسلمين من أذيّةٍ لحقته ولكن كل ذلك

---

(١) الخفر : نقض العهد .

(٢) في كتاب الكفالة ، رقم : ٢٢٩٧ .

ضاع سدىً تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم ، فانهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله فيسهل إرجاعهم ، ولكن وفّقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان فرأوا كل شيء دونه سهلاً .

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يُجْدِهم نفعاً ، بل كلما زادوا المسلمين أذىً ازداد يقينهم ، اجتمعوا للشورى فيما بينهم ، فقال لهم عتبة بن ربيعة العبشمي من بني عبد شمس بن عبد مناف وكان سيداً مطاعاً في قومه : يا معشر قريش ألا أقومُ لمحمد فأُكلِّمه وأعرضُ عليه أمورا علَّه يقبلُ بعضها فنعطيه إياها ويكفَّ عنَّا ؟ فقالوا يا أبا الوليد فقمْ إليه فكلمه . فذهب إلى رسول الله وهو يصلي في المسجد ، وقال : يا ابن أخي إنك منّا حيث قد علمتَ من خيارنا حسبا ونسباً وإنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم ، فرَّقْتَ به جماعتهم ، وسفَّهتَ أحلامهم ، وعِبتَ آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت مَنْ مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها : فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع .

فقال : يا ابن أخي إن كنتَ تريدُ بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ تريدُ شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمراً دونك ، وإن كنتَ تريد مُلكاً ملكناكَ علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا[1] من الجن لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد فرغتَ يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال فاسمع مني فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصِّلت :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ . حمٓ . تَنْزِيْلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لقومٍ يَعْلَمونَ بَشِيْرَاً ونَذِيْراً فَأَعْرَضَ أكثرُهُمْ فَهُم لا يَسْمَعونَ وَقَالُوا قلوبُنا فِي أكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعمَل إنَّنا عَامِلون قُل إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم يُوحَى إليَّ أنَّما

(١) ما يتراءى للإنسان من الجن.

إِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوه وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِيْنَ الذِيْنَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ إِلاَّ الذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ لَهُم أَجرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالَّذي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِيْنَ وَجَعَلَ فِيْهَا رَواسِيَ مِنْ فَوقِها وَبَارَكَ فِيْهَا وَقَدَّر فِيْهَا أَقْواتَها في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً للسَّائِلِيْنَ ثُمَّ استوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَها وللأَرْضِ ائْتِيَا طَوعاً أو كَرْهاً قالتَا أَتَيْنا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ في يَوْمَيْنِ وَأَوْحى في كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيَا بِمَصَابِيْحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيْرُ العَزِيْزِ العَلِيْمِ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُل أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدوا إِلاَّ الله قَالُوا لَو شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾[١] .

فأمسك عتبة بفيه ، وناشده الرحم أن يَكُفّ عن ذلك ، فلما رجع عتبة سألوه فقال : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قطّ ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر ، يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها بي ، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنَّ لكلامه الذي سمعت نبأ ، فإن تُصِبه[٢] العرب كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزّه عزّكم ، فقالوا لقد سحرك محمد ، فقال هذا رأيي .

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم ويشاركوه في عبادته فأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ولا أنا عَابِدٌ مَا عَبدتُّمْ وَلاَ أَنْتُم عَابِدُون مَا أَعْبد . لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ ﴾[٣] فلا تتوهموا أني أُجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله ، فأيسوا منه ، وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد ، فيأتي بقرآن غيره أو يبدِّله فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا

(١) سورة فصِّلت الآيات : ١ ـ ١٤ .

(٢) تصبه العرب : تقتله .

(٣) سورة الكافرون .

يُوحَى إِلَيَّ ﴾[1] وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به ، وهو أنه بينما الرسول عليه الصلاة والسلام مع كُبراء قريش وأشرافهم يتألفهم ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين إذ أقبل عليه عبد الله ابن أُم مكتوم الأعمى[2] . (وهو ممّن أسلموا قديماً) والنبي مشتغل بالقوم ، وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم ، فقال له عبد الله : يا رسول الله علِّمني مما علّمك الله وأكثر عليه القول ، فشقّ ذلك على الرسول ، وكره قطعه لكلامه ، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف فأعرض عنه فعاتبه الله على ذلك بقوله أول سورة عبس : ﴿ عَبَسَ وَتولّى أَنْ جَاءهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيْكَ لَعَلّهُ يَزَّكّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى . أَمَّا مَنْ استَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾[3] فما عبس رسول الله ﷺ بعدها في وجه فقير ، وكان إذا أقبل عليه عبد الله ابن أُم مكتوم يقول له : (مرحباً بمن عاتبني فيه ربي) .

ولمّا رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تُقبل منهم أرادوا أن يدخلوا في باب آخر ، وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات ، فاجتمعوا وقالوا : يا محمد إن كنت صادقاً فأَرِنا آيةً نطلبها منك وهي أن تشقّ لنا القمر فرقتين ، فأعطاه الله هذه المعجزة ، وانْشَقَّ القمرُ فرقتين ، فقال رسول الله : اشهدوا[4] ، وهذه القصة رواها عبد الله بن مسعود وهو من السابقين الأوّلين رُويت عنه من طرق كثيرة ، ورواها عبد الله بن عباس وغيره ، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر وقد ذكرها

---

(١) سورة يونس الآية : ١٥ .

(٢) نسب إلى أمه أُم مكتوم عاتكة بنت عبد الله من بني مخزوم . كان يؤذّن لرسول الله ﷺ واستخلفه على المدينة . توفي سنة ٢٣ هـ .

(٣) سورة عبس الآيات : ١ ـ ١٠ .

(٤) رواه البخاري في المناقب ، رقم : ٣٦٣٦ . ومسلم في صفات المنافقين ، رقم : ٢٨٠٠ .

القرآن الكريم في قوله تعالى أول سورة القمر : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال بعضهم : لقد سحركم ابنُ أبي كبشة فأنزل الله فيهم : ﴿ وإنْ يَروا آيةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾[١] ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا التعنت والعناد ، فمنها أن قالوا كما في سورة الإسراء : ﴿ لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً أو تَكونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فتُفَجِّر الأَنْهارَ تَفْجيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله وَالمَلائِكَةِ قَبيلاً أَوْ يَكُونَ لك بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى في السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّل علينا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ ﴾ ولم يجبهم الله إلا بقوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبي هَلْ كُنْتُ إلَّا بَشَراً رَسُولاً ﴾[٢] لأن الله علم ما تُكِنُّهُ جوانِحَهم من التعصب والعناد ، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات كما قال جلّ ذكره في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إذا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[٣] وكيف يرجى الخير ممّن قالوا كما في سورة الأنفال : ﴿ اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحقَّ مِنْ عِنْدِكَ فأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذابٍ أَلِيمٍ ﴾[٤] ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، وهذه سنّة من سُنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً ، وأنهم يطلبونها تعجيزاً لا يسألون الله انفاذ هذه الآيات كيلا يحلّ بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم . وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بالآيَاتِ إلَّا أَنْ كَذَّبَ بها الأَوَّلُونَ ﴾[٥] وقد حصل للمسيح عليه السلام أنه لما وقف أمام هيردوس طلب منه آية فلم يُجبهُ إلى طلبه ، فلما رأى ذلك سخر منه وردّه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه ويتمنى لقاءه ، وذلك مذكور في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا .

---

(١) سورة القمر الآية: ١ ـ ٢.

(٢) سورة الإسراء الآيات: ٩٠ ـ ٩٣.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٠٩.

(٤) سورة الأنفال الآية: ٣٢.

(٥) سورة الإسراء الآية ٥٩.

هـذا ولمـا رأى المشـركـون ضعفهم عن مقـاومـة المسلمين بـالبـرهـان تحولوا إلى سيـاسة القـوة التي اختارهـا قوم إبـراهيم عندمـا عجزوا عنـه حيث قـالـوا : ﴿ حَـرِّقُـوهُ وانْصُـرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾[1] كمـا في سـورة الأنبيـاء أمـا هؤلاء فـازدادوا بـالأذى على كـل مَن أسلم رجـاء صـدّهم عن اتّبـاع الـرسـول عليـه الصـلاة والسلام ، ولـم يتـركوا بـاباً إلا ولجـوه ، فقال عليـه الصـلاة والسـلام لأصحـابه : (تفـرقوا في الأرض ، فـإن الله سيجمعكم ، فسألـوه عن الـوجـه فأشار إلى الحبشة)[2] .

هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهـزَ ناس للخـروج من ديارهم وأمـوالهم فراراً بـدينهم كما أشار عليه الصلاة والسلام ، وهـذه هي أول هجرة من مكـة ، وعدّة أصحـابها عشـرة رجال وخمس نسـوة ، وهم : عثمان بن عفـان وزوجه رقيّـة بنت رسول الله ، وأبو سلمة وزوجه أُم سلمة ، وأخـوه لأمه أبـو سَبْرة بن أبي رُهْم وزوجـه أُم كلثـوم ، وعامـر بن ربيعـة وزوجـه ليلى ، وأبـو حـذيفـة بن عتبـة بن ربيعـة وزوجـه سهلة بنت سهيل ، وعبـد الرحمن بن عـوف ، وعثمان بن مـظعـون ، ومصعب بن عميـر ، وسُهيـل بن البيضـاء ، والـزبيـر بن العـوّام ، وجُلّهم من قـريش ، وكان عليهم فيمـا روى ابن هشام عثمـان بن مظعـون ، فساروا على بـركـة الله ، ولمـا انتهـوا إلى البحـر ، استـأجـروا سفينـة أوصلتهم إلى مقصـدهم ، فـأقـامـوا آمنين من أذىً يلحق بهم من المشـركين ، ولم يبق مـع النبي عليه الصلاة والسلام إلا القليل .

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٨ .

(٢) لما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء ، قـال لهم : لو خـرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

إسلام عمـــر

وفي ذلـك الـوقت أسلم الشهم الهمـام عمـر بن الخـطاب العـدوي القـرشي[1] بعـدمـا كـان عليـه من كـراهيـة المسلمين وشـدة أذاهم ، قـالت ليلى[2] : إحـدى المهـاجـرات لأرض الحبشـة مـع زوجهـا ، كـان عمـر بن الخطاب من أشـد النـاس علينـا في إسـلامنـا ، فلمـا ركبتُ بعيـري أُريـد أن أتـوجه إلى أرض الحبشـة إذا أنـا بـه ، فقـال لي : إلى أين يـا أُم عبـد الله ؟ فقلت قـد آذيتمونـا في ديننـا ، نـذهبُ في أرض الله حيث لا نُؤذى ، فقـال : صحبكم الله ، فلما جاء زوجي عامر أخبرته بمـا رأيت من رقة عمـر ، فقال : تـرجين أن يُسْلِم ! والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخـطاب ! وذلك لمـا كـان يـراه من قسـوتـه وشـدتـه على المسلمين ، ولكن حصلت لـه بـركـة دعـوة المصطفى ﷺ فانه قال قبيـل إسلامـه : « اللهمّ أعِزّ الإسـلام بعمر » ، وكـان إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كـان المسلمون يجتمعـون فيها وقـد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه الصلاة والسلام ، فقد قال عبد الله بن مسعود من رواية البخاري : « مـا زلنا أعـزّة منذ أسلم عمـر »[3] فإنـه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته في المسجد ففعل ، وقد أدرك الكفار كـآبةٌ شـديدة حينمـا رأوا عمـر أسلم ، وكـانـوا قـد أرادوا قتله حتى اجتمـع جمـع حـول داره ينتـظرونه ، فجـاء العـاص بن وائـل السَّهمي (وهـو من بني سهم حلفـاء بني عدي قوم عمـر) وعليه حُلَّة حِبَـرَة[4] وقميص مكفوف بحـرير ، فقـال لعمر : مـا بالُـكَ ؟ فقال : زعم قـومك انهم سيقتلونني إن أسلمت . قـال : لا سبيل إليك فأنـا لك جـار ، فأمِنَ عمـر ، وخرج العـاص فوجـد الناس قـد سال بهم الوادي ، فقال أين تريدون ؟ قالوا نريد هذا ابن الخطاب الـذي صبأ . قـال :

---

(١) وكان إسلامه بعد حمزة بثلاثة أيام، والمسلمون إذ ذاك بضعة وأربعون رجلاً.

(٢) هي ليلى بنت أبي حثمـة بن حذيفـة، أسلمت قديمـاً وبايعت، ويقـال انهـا أول ظعينـة دخلت المدينة في الهجرة.

(٣) رواه البخاري في مناقب الأنصار، رقم: ٣٨٦٣.

(٤) حبرة: يعني بردة مخططة بالنقش.

لا سبيل إليه . فرجع الناس من حيث أتوا(١) .

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها لأنهم قليلو العدد ـ وفي الكثرة بعض الأنس ـ وأضِف إلى ذلك أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم ، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة .

وقد أُولع بعض المؤرخين بحكاية يجعلونها سبباً في رجوع مهاجري الحبشة ، وهي أنه بلغهم إسلام قومهم حينما قرأ عليهم الرسول سورة النجم ، وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ والعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾(٢) تلك الغرانيق ـ جمع غرنوق وهي الطيور ويُراد بها الملائكة ـ العلى ، وإن شفاعتهن لتُرتجى ، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً .

وهذا مما لا تجوز روايته إلا من قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صحته ، وها نحن أُولاء نسوق لك أدلة النقل والعقل على بطلان ما ذكر ، أما الحديث فسنده ومتنه قلقان ، فالسند قال فيه القاضي عياض في الشفاء(٣) : لم يخرّجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم ، وأما المتن فليس أصحاب رسول الله ولا المشركون مجانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذم ويجوز ذلك عليهم ، فبعد ذكر الأصنام قال : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾(٤)

---

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار، رقم: ٣٨٦.
وروى ابن ماجة قال ابن عباس لما أسلم عمر قال جبريل للنبي ﷺ : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر.

(٢) سورة النجم الآية: ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) ٢/ ٢٨٨ .

(٤) سورة النجم الآية: ٢٣ .

فالكلام غير مُنْتَظِم ، ولو كان ذلك قد حصل لاتخذه الكفار عليه حجة يحاجّونه بها وقت الخصام ، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس في أدنى حجة ، فكيف بهذه ؟ وليس ذلك القيل أقل من تحويل القبلة إلى الكعبة ، وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سمَّاهم الله سفهاء وأنزل فيهم في سورة البقرة : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾(١) ولكن لم يُسمع عن أي واحد من رجالاتهم والمتصدرين للعناد منهم أن قال مالك ذَممتَ آلهتنا بعد أن مدحتها ، وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف وبذل مُهج الرجال .

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجري الحبشة يقولون أثناء كلامهم : إن الهجرة كانت في رجب ، والرجوع كان في شوال ، ونزول سورة النجم كان في رمضان ، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد ، والمتأمّل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذاك الزمن للذهاب من مكة الى الحبشة والإياب منها ، لأنه لم يكن إذ ذاك مراكب بخارية تسهّل السير في البحر، ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة ، فلا غرابة بعد ذلك إن قلنا إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين ، ولكن الحمد لله فقد منَّ علينا بحفظ كتابنا المجيد ، الذي يحكم بيننا وبين كل مُفترٍ كذاب ففي السورة نفسها : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ﴾(٢) والذي يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى ، فكيف يقوله عليه الصلاة والسلام أو يجري على لسانه مما يثبت الشكوك في الوحي ؟ الأمر الذي يريده السفهاء ردّ الله كيدهم في نحرهم . والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود ما رواه عبد الله بن مسعود « أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ والنجم ، فسجد ، وسجد مَنْ كان معه إلا رجلاً أخذ كفاً من حصى وضعه

(١) سورة البقرة الآية: ١٤٢ .
(٢) سورة النجم الآية : ٣ .

على جبهته وقال يكفيني هذا ، فرأيته قُتِلَ بعد كافراً »[1]، وليس في هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون ، بل الذي يفيده قوله : فرأيته قُتل بعد كافراً انه كان مسلماً ثم رأيته ارتدّ ، وهذا ما حصل من بعض ضِعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى ، فكفروا : منهم علي بن أمية بن خلف[2] . (هذا) ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة لم يتمكن من الدخول إليها إلا مَنْ وجد له مُجيراً ، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب ، ودخل عثمن بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة ، وقد ردّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين[3] ، فلم يرَ أن يكون مرتاحاً وإخوانه يعذبون .

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيلُ بكفار قريش عرضوا على بني عبد مناف الذين منهم الرسول عليه الصلاة والسلام دية مضاعفة ويسلمونه فأبوا عليهم ذلك ، ثم عرضوا على أبي طالب أن يُعطوه سيداً من شبابهم يتبناه ، ويسلّم إليهم ابن أخيه ، فقال : عجباً لكم تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ فلما رأوا ذلك أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب ولَدَيْ عبد مناف وإخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم فلا يبيعونهم شيئاً ، ولا يبتاعون منهم حتى يسلّموا محمداً للقتل ، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة ، فانحاز بنو هاشم ـ بسبب ذلك ـ في شِعْب أبي طالب ، ودخل معهم بنو المطلب سواء في ذلك مسلِمَهم وكافرهم ما عدا أبا لهب فإنه كان مع قريش ، وانخزلَ عنهم بنو عَمَّيْهم عبد شمس ونوفل ابني عبد

---

(١) رواه البخاري في سجود القران، رقم: ١٠٧٠ .

(٢) ارتد بعد إسلامه وقتل كافراً.

(٣) قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يَلْقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد فقال له: وفَتْ ذمتك، وقد رددتُ إليك جوارك.

مناف ، فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر ، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب .

هجرة الحبشة الثانية

وبعد دخول الرسول وقَومِهِ الشِّعْبَ أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الإغتراب ، فهاجر معظمهم وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب وزوجه أسماء بنت عُمَيْس ، والمقداد بن الأسود ، وعبد الله بن مسعود ، وعبيد الله بن جحش ، وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن وهم الأشعريون : أبو موسى وبنو عمه[1] . ولما رأت قريش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي لِيُسَلِّم المسلمين ، فرجعا شَرَّ رجعة[2] ، ولم ينالا من النجاشي إلَّا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في قوم لاذوا به ، أما بنو هاشم فمكثوا في الشعب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شيء من الطعام إلا خُفية .

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة ، وهم : هشام بن عمرو بن الحارث العامري ، وهو أعظمهم في ذلك بلاءً ، وزُهير بن أبي أمية المخزومي ابن عمة الرسول عاتكة ،

---

(١) روى البخاري في فضائل الصحابة، رقم: ٣٨٧٦، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: بلغنا مخرج النبي ﷺ الى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قَدِمنا، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فقال النبي ﷺ : « لكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان » .

(٢) موضوع إرسال الهدايا إلى النجاشي كان في الهجرة الثانية.

والمُـطْعِم بن عديّ النـوفلي ، وأبو البَخْتـريّ بن هشـام الأسـدي ، وزَمْعَـة بن الأسـود الأسدي ، واتفقـوا على ذلك ليـلاً ، ، فلما أصبحـوا غدا زهيـر وعليه حلّة، فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس ، فقال : يا أهـل مكة أنـأكل الـطعام ونَلْبَسُ الثيـاب وبنو هـاشم والمطلب هَلْكى لا يبيعـون ولا يبتـاعـون ! والله لا أقعد حتى تُشَق هذه الصحيفة الظالمـة القاطعـة . فقال أبـو جهل : كـذبتَ ، فقـال زَمْعة لأبي جهـل : أنت والله أكـذب ! مـا رضينـا كتـابتهـا حين كتبت ، فقـال أبو البختـري : صدق زمعـة، وقال المـطعم بن عدي : صـدقتما وكـذب من قـال غيـر ذلـك. وصـدّق على مـا قيـل هشـام بن عمـرو، فقـام إليها المـطعم بن عدي فشقّهـا ، وكانت الأَرَضَـة[1] قد أكلتهـا فلم يبقَ فيهـا إلاَّ مـا فيه اسم الله ، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عمه أبا طـالب بذلـك قبل أن يفعل ما ذكر ، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدّة[2] .

وفود نجـــران

وقـد وفـد على الـرسـول بعـد الخـروج من الشِّعب وفـد من نصـارى نجران[3] بلغهـم خبرُهُ من مهاجري الحبشة ، فسارعوا بالقـدوم عليه حتى يـروا صفاته مع ما ذكـر منها في كتبهم ، وكـانوا عشـرين رجلاً أو قـريباً من ذلـك ، فقـرأ عليهـم القرآن فـآمنوا كلهم ، فقـال لهم أبو جهـل : ما رأينـا ركبـاً أحمق منكمِ أرسلكم قـومكم تعلمون خبـر هـذا الـرجـل فصبـأتم ! فقـالـوا : سـلام

---

(١) دودة تأكل الورق والخشب.

(٢) جـاء في سيرة ابن هشـام : أن رسـول الله ﷺ قـال لأبي طالب : يـا عم، إن ربي الله قـد سلط الأرضـة على صحيفة قـريش، فلم تدع فيهـا اسماً هـو لله إلا أثبتتـه فيهـا، ونَفَت منـه الـظلم والقطيعة والبهتان ، فقال : أربك أخبرك بهذا؟ قال : نعم، قال : فوالله ما يدخـل عليك أحـد، ثم خـرج إلى قـريش، فقـال : يـا معشـر قـريش إن ابن أخي أخبـرني بكـذا وكـذا، فهلمّ صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قطيعتنا وانزلوا عمّـا فيها، وإن يكن كـاذباً دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم : رضينا، فتعاقدا على ذلك، ثم نـظروا، فإذا هي كمـا قال رسول الله ﷺ .

(٣) نجران : بلدة بين مكة واليمن.

عليكم لا نجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه ، فأنزل الله في ذلك في سورة القصص : ﴿ الذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِم قَالوا آمنَّا به إِنَّه الحقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبرُوا وَيَدْرَأوْنَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ . وإذا سَمِعُوا اللَّغْو أَعْرَضُوا عَنْهُ وقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنا وَلكم أَعْمَالُكم سَلامٌ عَلَيْكُم لا نَبْتَغي الجَاهِلِيْنَ ﴾[1] . وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة وبالكذب أخرى ، وبالجنون طوراً وبالكهانة تارة ، كل ذلك شأن العاجز المُعانِد الذي لا يستحي لمزيد عِناده أن يقول : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذا هُو الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِر عَلَيْنَا حِجَارةً مِنَ السّماءِ أو ائْتِنَا بِعذابٍ أَلِيْمٍ ﴾[2] .

وفاة خديجة رضي الله عنها

وبعد خروجه عليه الصلاة والسلام من الشعب بقليل وقبل الهجرة بثلاث سنين توفيت خديجة بنت خويلد زوجه رضي الله عنها ، كان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يذكرها ويترحم عليها ، ولا غرابة فهي أول نفس ذكية صدَّقت رسول الله فيما جاء به عن ربه ، وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم[3] فمنها زينب وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع[4]، وأعقب منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، ومنها رقيّة وأم كلثوم تزوجهما عثمان. الأولى بمكة قبل الهجرة ، وهاجر بها إلى الحبشة ، والثانية بالمدينة بعد أن ماتت

(١) سورة القصص الآيات: ٥٢ ـ ٥٥.
(٢) سورة الأنفال الآية: ٣٢.
(٣) فإنه من مارية القبطية التي أهداها له المقوقس.
(٤) هو القاسم بن الربيع بن عبد العزّى، تزوج زينب في الجاهلية، وتأخر إسلامه، فكانت عند أبيها، حتى أسلم فأعيدت اليه.

أختها ، ومنها فاطمة وهي أصغر بناته تزوجها علي بن أبي طالب[1] ، وقد جاءت خديجة بأولاد توفّوا صغاراً ، ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلاَّ فاطمة عاشت بعده قليلاً . ولما توفيت خديجة حزن عليها رسول الله حزناً شديداً لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ومحاجزة الكفار عنه لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد ، ومنها القاسم وكان به يكنى رسول الله ﷺ ، وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر .

زواج سودة

وعقد عليه الصلاة والسلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سَوْدة بنت زَمْعَة العامرية القرشية بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو ، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني عمها ، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة ، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها ، فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول بزوج رجل آمن به ، ولو تركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الاسلام لفتنوها ، وكرمُ نسبها في قومها يمنعها من التزوّج برجل أقل منها نسباً وشرفاً .

زواج عائشة رضي الله عنها

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة بنت صديقه أبي بكر وهي لا تتجاوز السابعة من عمرها ، ولم يتزوج عليه الصلاة والسلام بِكراً غيرها ، ودخل عليها بالمدينة أما سودة فدخل عليها بمكة .

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر توفي عمه أبو طالب[2] الذي كان يمنعه

(١) وأما بناته فكلهنّ أدركن الإسلام ، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ ، وأما القاسم وعبد الله فتوفيا قبل البعثة صغيري السن . وتوفيت السيدة فاطمة بعده ﷺ بستة أشهر .

(٢) وذلك في السنة العاشرة من البعثة .

من أذى أعدائه ، ومع أنه كان لا يُكَذِّب رسول الله فيما جاء به بل يعتقد صدقه لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته(١) ، وفيه نزل في سورة القصص : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي من أَحْببتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُو أَعْلَمُ بالمُهْتَدِينَ ﴾(٢) . ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله نرجو أن يخفّف عنه(٣) . وعدم إسلامه هو وغالب أقارب الرسول فيه من الحكمة ما لا يخفى ، فإنهم لو بادروا باتِّباعه لقيل : قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم فجاؤوا بهذا الأمر المفترى ، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه الذين ليسوا من عشيرته بل من أعدائها أحياناً(٤) كعثمان بن عفان من بني أمية ، لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها ، اللهمّ إلا دعاويهم الكاذبة التي كانوا يتمسكون بها حينما تصدعهم الحجة من قولهم ساحر يُفَرِّق بين المرء وزوجه وكاهن يتكهن بالغيب .

وقد سمى رسول الله هذا العام الذي فقد فيه زوجه وعمه « عام الحزن » . ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنها نيله في حياة أبي طالب ، واشتد الأمر عليه حتى كانوا ينثرون التراب على رأسه وهو سائر ، ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته ، وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له : أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلَهاً واحداً؟ فما

---

(١) روى البخاري في مناقب الأنصار، رقم: ٣٨٨٤، أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: « أي عم، قل لا إله إلاَّ الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية. يا أبا طالب ترغب عن ملّة عبد المطلب، فلم يزالا يكلِّمانه، حتى قال آخر شيء كلمهم به، على ملّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ : «لاستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ .

(٢) سورة القصص الآية: ٥٦ .

(٣) قال رسول الله ﷺ : « هو في ضحضاحٍ من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » والضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين.

(٤) لم يكن بنو أمية أعداء لبني هاشم وكل ما في الأمر أنهم متنافسون على مكارم معينة داخل القبيلة دون عداوة وثأر أو حرب.

تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم لما هم عليه من الضعف إلا أبو بكر فانه تقدم وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟! .

هجرة الطائف

فلما رأى عليه الصلاة والسلام إستهانة قريش به أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف(١) يرجو منهم نصرته على قومه ومساعدته حتى يتمّم أمر ربه ، لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خؤولة(٢) ، فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بني سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف ، فلما توجه إليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة قابل رؤساءهم وكانوا ثلاثةً : عبدُ ياليْل ومسعود وحَبيب أولاد عمرو بن عمير الثقفي ، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته فردّوا عليه رداً قبيحاً ولم يرَ منهم خيراً(٣) ، وحينذاك طلب منهم أن لا يُشيعوا ذلك منه كيلا تعلم قريش فيشتدّ اذاهم لأنه استعان عليهم بأعدائهم ، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه الصلاة والسلام بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق ويرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه(٤) وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كَرْم واستظلّ بها ، وكانت بجوار بستان لعُتبة وشَيبة ابني ربيعة وهما من أعدائه وكانا في البستان ، فكره رسول الله مكانهما فدعى الله قائلاً : « اللهمّ إني أشكو إليك ضعفَ قُوَّتي وقِلَّة حيلتي وهَواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تَكِلني إلى بعيد يتجهَّمني(٥) أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي ، ولكن

(١) بلد في الجنوب الشرقي من مكة.

(٢) ولم يكن بينه وبينهم عداوة. خاصة أنهم كانوا أخواله.

(٣) قال له أحدهم: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك، وقال الآخر: والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسول الله لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام.

(٤) ورموا عراقيبه بالحجارة، حتى اختضبت نعلاه بالدماء.

(٥) أي يلقاني بالغلظة.

عـافيتك هي أوسـع لي ، أعوذ بنـور وَجْهـكَ الـذي أشـرقت لـه الـظُّلمـات ، وَصَلُح عليــه أمـرُ الــدنيـا والآخــرة من أنْ تُنـزِلَ بي غضبــكَ أو يحـلّ عليّ سخطك ، لك العُتبى حتى تـرضى ولا حول ولا قـوة إلا بك » . فلمـا رآه ابنا ربيعـة رَقًّا لـه وأرسلا إليـه بِقـطْفٍ من العنب مع مـولى لهمـا نصـراني اسمـه عَدَّاس : فلما ابتدأ رسول الله ﷺ يـأكل قـال : « بسم الله الرحمن الـرحيم » فقال عداس : هذا الكلام مـا يقولـه أهل هـذه البلاد ، فقـال له عليـه الصلاة والسـلام : من أي البلاد أنت ومـا دينـك ؟ فقـال : نصـراني من نِيْنَـوى[1] ، فقـال له عليـه الصلاة والسـلام : من قريـة الرجـل الصـالـح يُـونُس بن متَّى ؟ قـال : وما علمـك بيونس[2] ؟ فقـرأ له من القـرآن ما فيـه قصة يـونس ، فلما سمع ذلك عداس أسلم ، وأتى جبريـل برسـالة من الله جـلّ ذكراه ، وقـال إن الله أمـرني أن أطيعـك في قــومـك لمــا صنعـوه معــك فقـال عليــه الصـلاة والسـلام : « اللهمّ اهدِ قـومي فانهم لا يعلمـون » فقال جبـريـل : صـدق من سمّاك الرؤوف الرحيم .

ولمـا كان بِنَخْلَة[3] وفـد عليه نفـر من الجن يستمعون القـرآن وهم ممّن ينتمـون إلى موسى صلوات الله عليـه ، فلما سمعـوه أنصتـوا لـه ورجعـوا إلى قــومهم منــذرين وأبلغــوهم خبــر رســول الله ﷺ وفيهم نــزل فـي ســورة الأحقاف : ﴿ وَإذَ صَرَفْنَـا إِلَيْكَ نَفَـراً مِنْ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُـرْآنَ فلمَّا حَضَـرُوهُ قَالوا أَنْصِتُوا فَلما قُضِيَ ولَّوا إلى قَوْمِهِمْ مُنْـذِرينَ . قالـوا يا قـومَنا أجِيْبُـوا دَاعِيَ الله وَآمِنُـوا بِـهِ يَغْفِـر لَكُمْ ذُنُـوْبكُمْ وَيُجِـرْكُمْ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيْمٍ . وَمَنْ لاَ يُجِبْ

(١) بلد على شاطىء دجلة، مدينة الموصل. المؤلف.

(٢) فقال له رسول الله ﷺ : ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبـل رأسه ويديه ورجليه. ثم ذهب إلى سيده وقال يا سيدي: ما في الأرض شي خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس: لا يصـرفنّك عن دينـك، فإن دينـك خير من دينه.

(٣) مكان بعيد عن مكة مسافة ليلة.

دَاعِيَ الله فَلَيْسَ بِمُعجِزٍ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِـهِ أَوْلِياء أُوْلَئِـكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾[١] وقـد قصّ الله قصـة الجن بعبـارة أطـول في سـورة سميت بـاسمهم أولهـا : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِن الجِنِّ فَقـالوا إِنَّـا سَمِعْنَا قُـرآناً عَجَبـاً يهدي إلى الرُّشدِ فآمَنَّا بِهِ وَلنْ نُشْرِكَ بِربِّنا أحداً ﴾[٢] .

الإحتماء بالمطعم بن عدي

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف هكذا لم يتمكن من دخوله مكة لما علمه كفار قريش من أنه تـوجه الى الـطائف يستنصرُ بـأهليها عليهم ، فـأرسل عليـه الصلاة والسـلام إلى المطْعِم بن عـديّ بن نوفـل بن عبـد منـاف يخبـره أنه سيـدخـل مكـة في جـواره فـأجـاب إلى ذلـك ، وتسلح هـو وبنـوه وتوجهوا مـع رسول الله إلى المـطاف ، فقال لـه بعض المشركين[٣] : أَمُجِيـرٌ أنت أم تابع ؟ فقال بل مجير ، قالوا إذاً لا تُخْفَرُ ذِمَّتُكَ .

وفـــد دَوْس

وقـدم على رسول الله وهـو بمكة الـطُّفَيْـل بن عمـرو الـدَّوسي من قبيلة دوس عشيـرة أبي هريـرة الصحابي الشهيـر ، وكان الـطفيل شـريفـاً في قـومـه شاعراً نبيـلاً ، فلما قـرأ عليه القـرآن أسلم ، فقال لـه رسول الله : إذهب إلى قومك فادعهم إلى الإسلام ، ودعـا لهم رسول الله فقـال : اللهمّ اهدِ دَوْسَـاً ، فتوجه إليهم الطفيل ودعاهم فآمن بدعوته كثير منهم[٤] . وستـأتي وِفَادَتـهُ على الرسول مرة ثانية بقومه في المدينة .

---

(١) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ ـ ٣٢ .

(٢) سورة الجن الآية : ١ ـ ٢ .

(٣) هو أبو سفيان .

(٤) قال الطفيل : فلم أزل أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ الى المدينة ومضى بـدر وأحد والخندق ، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي ، وهو بخيبر .

الإسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج ، أما الإسراء فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته ، واما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوي ، وقد قال جمهور أهل السُّنة : إن ذلك كان بجسمه الشريف(١) ، وكانت عائشة رضي الله عنها تمنع رؤية رسول الله ربه ، وتقول : من قال إن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله ، والإسراء مذكور في القرآن الكريم قال تعالى في أول سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المسْجِدِ الحَرَامِ إلى المَسْجِدِ الأَقْصَى الذي بَارَكْنا حَولَهُ لِنُرِيه مِنْ آياتِنَا إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيْرُ ﴾(٢) .

وأما المعراج فقد ورد في صحيح السنّة وأصحّ أحاديثه ما رواه الشيخان ونقله القاضي عياض في شفائه(٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ(٤) : « أتيت بالبُراق (وهو دابّة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرْفه) قال : فركبته حتى أتيتُ بيتَ المقدس فربطته بالحلقة التي تربط بها لأنبياء(٥)، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فأتاني جبريل بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ فاخترت اللبن ، فقال جبريل : اخترت الفطرة؟(٦) ، ثم عُرِجَ بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال جبريل : قيل ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير .

---

(١) أُسرِيَ بروحه وجسده يقظة لا مناماً في ليلة واحدة. واحذر بعض الكتب المدسوسة كمعراج ابن عباس .ابن عباس منه بريء.

(٢) سورة الإسراء الآية: ١.

(٣) رواه مسلم في الإيمان، رقم: ١٦٢. وذكره القاضي عياض في الشفاء ١/٣٤٣ فصل: كرامة الإسراء. والبخاري ٣٢٠٧.

(٤) في رواية البخاري ذكر لحادثة شقّ بطنه ﷺ مرة ثانية راجع ص١٣.

(٥) عند النسائي : كانت تسخّر للأنبياء قبلي.

(٦) الفطرة: ما فطر الله عليه الخلق.

ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابنَي الخالة يحيى وعيسى بن مريم فرحبا بي ودَعَوا لي بخير .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول ، ففتح لنا وإذا أنا بيوسف ، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن ، فرحب ودعا لي بخير .

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة فذكر مثله ، فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير . قال تعالى في سورة مريم : ﴿ وَرَفَعْنَاه مَكاناً عَلِيَّاً ﴾[1] .

ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة ، فذكرَ مثله ، فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فذكر مثله ، فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فذكر مثله ، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يَدْخُلُهُ كل يوم سبعون ألف ملَكَ لا يعودون إليه ، ثم ذُهِبَ بي إلى سِدْرَةِ المنتهى[2] ، فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقِلال[3] فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها تغيّرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يَنْعَتها من حسنها ، فأوحى الله إليَّ ما أوحى ، ففرض عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة . فنزلتُ إلى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت : خمسين صلاة ، قال : ارجع إلى ربك فَسَلْهُ التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإني قد بلوت بني اسرائيل قبلك وخبرتهم ، قال : فرجعت إلى ربي وقلت له : يا ربي خفف عن أمتي ، فحطَّ عني خمساً ، فرجعت إلى موسى ، فقلت حطّ عني

(١) سورة مريم الآية : ٥٧ .

(٢) شجرة ينتهي اليها عِلم الملائكة ، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ . ولله الحمد.

(٣) جمع قلة وهي : الوعاء أو الجرة.

خمسـاً ، قـال : إن أمتـك لا يُطيقـون ذلـك ، فـارجـع إلى ربـك فَسَلْهُ التخفيف ، قـال فلم أزل أرجـع بين ربي تعـالى وبين مـوسى حتى قـال سبحانه : يا محمد إنهنّ خمس صلوات كـل يوم وليلة لكـل صلاة عشـر فتلك خمسـون صـلاة ، ومن همَّ بحسنـة فلم يعملهـا كُتبت لـه حسنـة ، ومن همّ بحسنـة فعملهـا كُتِبت لـه عشـراً ، ومن همّ بسيئـة فلم يعملهـا لم تُكتب لـه شيئـاً ، ومن همَّ بسيئة فعملهـا كتبت لـه سيئـة واحـدة . قـال : فنـزلتُ حتى انتهيتُ إلى مـوسى فـأخبـرتـه ، فقـال : ارجـع إلى ربـك فَسَلْهُ التخفيف ، فقلت : قـد رجعتُ إلى ربي حتى استحييت منـه » . ثم رجـع عليـه الصـلاة والسلام من ليلته ، فلما أصْبَحَ إلى نادي قريش فجـاء إليه أبـو جهل بن هشـام فحـدّثه رسـول الله ﷺ بما جـرى له فقـال أبـو جهـل : يـا بني كعب بن لؤي هلمّـوا ، فأقبـل عليه كفـار قريش ، فـأخبرهم الـرسول الخبـر ، فصـاروا بين مصفق وواضـع يده على رأسـه تعجباً وإنكاراً ، وارتد نـاس ممّن كان آمن بـه من ضعـاف القلوب . وسعى رجال إلى أبي بكـر فقـال : إن كـان قـال ذلـك لقـد صدق ، قـالوا أتصـدقه على ذلـك ؟ قال : إني لأصـدقـه على أبعـد من ذلـك ، فسُمِّي من ذلك اليـوم صدِّيقـاً ، ثم قـام الكفـار يمتحنـون رسـول الله فسـألـوه نعت بيت المقـدس وفيهم رجـال رأوه ، أمـا رسـول الله فلم يكن رآه قبل ذلك فجلاه الله له فصار يصفه لهم باباً باباً وموضعاً مـوضعاً[1] ، فقـالوا : أمـا النعت فقد أصـاب ، فأخبـرنـا عن عِيـرنـا ، وكـانت لهم عِيـر قـادمـة من الشام ، فأخبـرهم بعدد جمـالها وأحـوالها ، وقـال : تقدم يـوم كذا مـع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق[2] فخرجوا يشتدون ذلـك اليوم نحـو الثنية ، فقـال قائل منهـم : هذه والله الشمس قد أشـرقت ، فقال آخـر : وهذه والله العِيـر قد أقبلت يقـدمهـا جمـل أورق كمـا قـال محمـد ، فلم يـزدهم ذلـك إلا كبـراً وعناداً ، حتى قالوا هذا سحر مبين .

---

(١) روى البخـاري عن جابـر بن عبد الله رضي الله عنهمـا أنه سمـع رسول الله ﷺ يقـول: « لمـا كذبني قريش، قمت في الحجر، فَجَلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أُخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه ».

(٢) الأورق: أي لونه بين الغبرة والسواد.

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلَّم رسول الله كيفية الصلاة وأوقاتها : فيصلي ركعتين إذا ظهر الفجر ، وأربع ركعات إذا زالت الشمس ، ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء ، وثلاثاً إذا غربت ، وأربعا إذا غاب الشفق الأحمر . وكان عليه الصلاة والسلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً ومثلهما مساء كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام .

العرض على القبائل

ولما رأى رسول الله ﷺ أنه يجد من قريش منعه من تأدية الرسالة وتَسَلُّط الكبر والعظمة على قلوبهم ، أراد الله أن يظهر أمر الدين على أيدي غيرهم من العرب ، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج في المواسم العربية (وهي أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة) ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه ، فكان بعضهم يردُّ ردّاً جميلاً ، وآخرون ردّا قبيحاً . وكان من أقبح القبائل ردّاً بنو حنيفة (رهطُ مُسَيْلَمَة الكذاب) ، وطلب منه بنو عامر إنْ هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده ، فقال لهم : الأمر لله يضعه حيث يشاء ، وكان من الذين يحجّون البيت عرب يثرب وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان : إحداهما من ولد الأوس ، والثانية من ولد الخزرج وهما اخوان وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين ، فكانوا دائماً في شقاق ونزاع ، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود وهم : بنو قَينُقاع ، وبنو قُرَيظة وبنو النضير وكان لهم الغلبة على يثرب أولاً ، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة ، وكان اليهود إذا خذلوا يستفتحون على أعدائهم باسم نبي يُبعث قد قَرُبَ زمانه . ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم وشُقَّت عصا الإلفة حالفوا اليهود على أنفسهم . فحالف الأوس بني قريظة ، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع ، وآخر الأيام بينهم يوم بُعَاث[1] قتل فيه أكثر رؤسائهم ولم يبق إلا عبد الله بن أُبيّ بن

(١) بُعاث : مكان كانت فيه الحرب بين الأوس والخزرج .

سلول من الخزرج ، وأبو عامر الراهب من الأوس ، ولذلك كانت عائشة تقول : كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسول الله ﷺ ، وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج ، فأرسلوا إياس بن معاذ وأبا الحيسر أنسَ بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش ، فلما جاؤوا مكة جاءهم رسول الله وقال : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وقد أرسلني الله إلى الناس كافة ، ثم تلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : يا قوم هذا والله خير مما جئنا له ، فحصبه أبو الحيسر وقال له : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا ، فسكت(١) .

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم تعرَّض رسول الله لنفر منهم يبلغون الستة ، وكلهم من الخزرج وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث من بني النجار ، ورافع بن مالك من بني زريق ، وقُطْبة بن عامر من بني سَلمة ، وعقبة بن عامر من بني حَرَام ، وجابر بن عبد الله من بني عبيد بن عدي ، ودعاهم إلى الإسلام وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه ، فقال بعضهم لبعض : إنه للنبي الذي كانت تَعِدُكم به يهود . فلا يَسْبِقُنَّكم إليه ، فآمنوا به وصدّقوه ، وقالوا : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزّ منك ، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل ، وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب .

العقبة الأولى(٢)

فلما كان العام المقبل قدم إثنا عشر رجلاً ، منهم عَشرة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا

(١) وهذا كان سبب إسلام إياس بن معاذ.

(٢) هي العقبة التي تضاف اليها الجمرة، فيقال: جمرة العقبة.

الحارث ، ورافع بن مالك ، وذكوان بن قيس ، وعُبادة بن الصامت[1]، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة ، وعقبة بن عامر ، وقطبة بن عامر ، وهؤلاء من الخزرج وأبو الهيثم بن التَّيِّهان ، وعُوَيم بن ساعدة وهما من الأوس، فاجتمعوا به عند العقبة، وأسلموا وبايعوا رسول الله على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب، على ألَّا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف، فإن وَفَوا فلهم الجنة، وإن غَشُّوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء غفر وإن شاء عذب، وهذه هي العقبة الأولى.

فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام مصعب بن عمير العبدري وعبد الله بن أُم مكتوم ـ وهو ابن خالة خديجة ـ يقرآنهم القرآن ، ويفقهانهم في الدين ،ونزل مصعبةعلى أحد المبايعين أبي أمامة أسعد بن زرارة وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام . وبينما هو في بستان مع أسعد بن زرارة إذ قال سعد بن معاذ[2] رئيس قبيلة الأوس ، لأُسَيْد بن حُضير[3]،ابن عم سعد : ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يُسَفِّهان ضعفاءنا لتزجرهما ، فقام لهما أسيد بحربته ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه وقد جاءك فاصدق الله فيه ، فلما وقف عليهما قال : ما جاء بكما تُسَفِّهان ضعفاءنا إعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة ، فقال مصعب : أَوَ تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره ، فقرأ عليه مصعب القرآن فاستحسن دينَ الاسلام ، وهداه الله له فتشهد

---

(١) وتمام البيعة «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله ، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه».

(٢) شهد بدراً وأُحداً والخندق، وتوفي بعد ذلك بشهر سنة ٥ هـ .

(٣) وكان من السابقين إلى الإسلام، وكان ممّن ثبت يوم أُحُد؛ وجرح وتوفي على أثرها.

ورجع إلى سعد ، فسأله عمّا فعل ، فقال : والله ما رأيتُ بالرجلين بأساً ، فغضب سعد وقام لهما متغيظاً ، ففعل معه مصعب كسابقه فهداه الله بالإسلام ، ورجع لرجال بني عبد الأشهل (وهم بطن من الأوس) فقال لهم ما تعدُّونني فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا . قال : كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تُسلموا ، فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه ، وقد انتشر الإسلام في دور يثربَ حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام .

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى ، قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج ، وبينهم كثير من مُشركيهم ، ولما قابل وفدهم رسول الله ، واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة ، فأمرهم أن لا يُنَبِّهوا في ذلك الوقت نائماً ، ولا ينتظروا غائباً ، لأن كل هذه الأعمال كانت خفية من قريش كيلا يطّلعوا على الأمر ، فيسعوا في نقض ما أبرم ، شأنهم مع رسول الله في أول أمره . ولما فرغ الأنصار من حجهم توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمّن معهم من المشركين ، وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الأول ، فكانوا يتسللون الرجل والرجلين حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً ، منهم اثنان وستون من الخزرج ، وأحد عشر من الأوس ، ومعهم امرأتان وهما : نُسَيبة بنت كعب من بني النجار ، وأسماء بنت عمرو من بني سَلِمة ، ووافقهم رسول الله هناك وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه ، ولكن أراد أن يحضر أمر أخيه ليكون متوثقاً له ، فلما اجتمعوا عرَّفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزلْ في مَنَعة من قومه حيث لم يمكِّنوا منه أحداً ممّن أظهر له العداوة والبغضاء وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ، ثم قال لهم : إن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممّن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإلا فدعوه بين عشيرته فإنه لبمكان عظيم . فقال كبيرهم المتكلم عنهم البراء بن معرور : والله لو

كان لنا في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مُهَجنا دون رسول الله ، وعند ذلك قالوا لرسول الله ﷺ : خذ لنفسك ولربك ما أحببت . فقال : أشترط لربي أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمتُ عليكم . فقال له أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال[1] عهوداً وإنَّا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم عليه الصلاة والسلام ، وقال بل الدَّمَ الدَّمَ والهَدَمَ الهَدَم[2] ، أي إن طالبتم بدم طالبت به وإن أهدرتموه أهدرته .

وحينذاك ابتدأت المبايعة وهي العقبة الثانية ، فبايعه الرجال على ما طلب ، وأول من بايع أسعد بن زرارة ، وقيل البراء بن معرور ، ثم تخير منهم إثني عشر نقيباً[3] لكل عشيرة منهم واحد ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وهم : أبو الهيثم بن التيهان ، وأسعد بن زرارة ، وأسيد بن حضير ، والبراء بن معرور ، ورافع بن مالك ، وسعد بن أبي خيثمة[4] ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، والمنذر بن عمرو ، ثم قال لهم : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريِّين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ، ولأمر ما أراده الله بَلَغَ خبرُ هذه البيعة مشركي قريش ، فجاءوا ودخلوا شِعْبَ الأنصار وقالوا : يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا ؟ فأنكروا ذلك ، وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يَحْصُل منهم شيء في ليلتهم

---

(١) أي اليهود.

(٢) كانت العرب تقول عند عقد الحِلْف والجوار: دمي دمك وهدمي هدمك، يعني اني أُبايعك على أن دمي في دمك وهدمي في هدمك.

(٣) النقيب: العريف، اقتداءً بقوله تعالى في قوم موسى ﴿ وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾.

(٤)في سيرة ابن هشام سعد بن خيثمة.

وعبـد الله بن أُبَيّ كبير الخـزرج يقول : مـا كان قـومي ليفتاتـوا[1] عليَّ بشيء من ذلك .

هجرة المسلمين الى المدينة

ولمـا رجـع الأنصـار إلى المـدينـة ظهـر بينهم الإسـلام أكثـر من المـرة الأولى . أمـا رسـول الله ﷺ وأصحـابـه فـازداد عليهم أذى المشـركين لمـا سمعوا أنه حـالف قومـاً عليهم ، فأمـر عليه الصـلاة والسلام جميـع المسلمين بـالهجرة إلى المـدينة ، فصـاروا يتسلَّلون خيفـة قـريش أن تمنعهم[2] . وأول من خـرج أبو سلمـة المخزومي[3] زوجُ أم سلمـة ومعه زوجـه ، وكان قـومهـا منعوها منه ولكنهم أطلقوها بعد فَلَحِقت به ، وتـابـع المهاجـرون فراراً بـدينهم ليتمكنـوا من عبـادة الله الـذي امتـزج حبّـه بلحمهم ودمهم ، حتى صـاروا لا يعبؤون بمفـارقة أوطـانهم والإبتعاد عن آبـائهم وأبنائهم مـا دام في ذلـك رضـا الله ورسـولـه . ولـم يبق منهم إلا أبـو بكـر وعلي وصهيب وزيـد بن حـارثـة ، وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكِّنهم حالُهم من الهجـرة ، وقد أراد أبـو بكر الهجرة فقـال له عليـه الصلاة والسـلام : على رِسْلك فإني أرجـو أن يؤذن لي ، فقـال أبو بكـر : وهل تـرجو ذلـك بأبي أنت ؟ قـال نعم فحبس أبو بكـر نفسـه على رسول الله ليصحبـه ، وعلف راحلتين كـانتـا عنـده ورق السَّمُـر[4] استعداداً لذلك .

(١) هذا الأمر لا يفتات أي لا يفوت.

(٢) إلَّا عمر بن الخطاب، فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وأخرج سهماً من كنانته. قال: شاهدت الوجوه، لا يرغم الله إلا هـذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمـه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه أحد.

(٣) هو عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، أخو المصطفى من الرضاعة، وابن عمته برّة.

(٤) هو ضرب من شجر الطّلح.

دار الندوة

أما قريش فكانوا كأنهم أُصيبوا بمسِّ الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذَّوْد عنه حتى الموت ، فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم في دار الندوة[1] (وهي دار قصيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها) يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه ، فقال قائل منهم : نخرجه من أرضنا كي نستريح منه ، فرُفض هذا الرأي لأنهم قالوا إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه ، وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت ، فَرُفض هذا الرأي كسابقه ، لأنهم قالوا إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره ، ونحن أدرى الناس بمن دخل في دينه حيث يُفَضلونه على الآباء والأبناء ، فإذا سمعوا ذلك جاؤوا لتخليصه وربما جرّ هذا من الحرب علينا ما نحن في غنىً عنه . وقال لهم طاغيتهم[2] : بل نقتله ، ولنمنع بني أبيه من الأخذ بثأره ، نأخذ من كل قبيلة شاباً جلداً يجتمعون أمام داره ، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيفترق دمه في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم بل يَرْضَون بالدية ، فأقرّوا هذا الرأي . هذا مكرهم ، ولكن ارادة الله فوق كل إرادة ﴿ وَيَمْكُرونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكِرِيْنَ ﴾[3] فأعلم نبيّه بما دبره الأعداء في سرّهم ، وأمره باللحاق بدار هجرته ، بدار فيها ينشر الإسلام ، ويكون فيها لرسول الله ﷺ العزةُ والمنعة . وهذا من الحكمة بمكان عظيم فإنه لو انتشر الإسلام بمكة لقال المبغضون : إن قريشا أرادوا مُلْكَ العرب ، فعمدوا إلى شخص منهم ، وأوعزوا إليه أنْ يدَّعي هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم ، ولكنهم كانوا له أعداء ألدَّاء آذوه شديد الأذى حتى اختار الله له مفارقة بلادهم والبعد عنهم .

---

(١) وهي أول دار بنيت بمكة .

(٢) أبو جهل .

(٣) سورة الأنفال الآية : ٣٠ .

هجرة المصطفى

فتوجّه من ساعته إلى صديقه أبي بكر ، وأعلمه أن الله قد أذِنَ له في الهجرة فسأله أبو بكر : الصحبة ، فقال : نعم ، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدَّتين لذلك ، فجهزهما أحثَّ[1] الجهاز ، وصُنعت لهما سُفْرَة[2] في جِراب ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر[3] نِطاقها ، وربطت به على فم الجراب ، واستأجرا عبد الله بن أُرَيقط من بني الدِّيل بن بكر ، وكان هادياً ماهراً ، وهو على دين كفار قريش فأمِناه ودفعا اليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ . ثم فارق الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر وواعده المقابلة ليلاً خارج مكة ، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقرّوا عليه ، فاجتمعوا حول باب الدار ، ورسول الله داخله ، فلما جاء ميعاد الخروج ، أمر ابن عمه عليّاً بالمبيت مكانه كيلا يقع الشك في وجوده أثناء الليل ، فإنهم كانوا يردِّدون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده ، ثم سجَّى[4] عليَّاً ببرده ، وخرج على القوم وهو يقرأ: ﴿ وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْديهم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْناهم فَهُمْ لَا يُبْصِرونَ ﴾[5] فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد ، ولم يزل عليه الصلاة والسلام سائراً حتى تقابل مع الصدّيق ، وسارا حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه .

أما المشركون فلما علموا بفساد مكرهم وأنهم إنما باتوا يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ، هاجت عواطفهم ، فأرسلوا الطلب من كل جهة ، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد أو يدلّ عليه ، وقد وصلوا في طلبهم الى ذلك الغار الذي فيه طِلْبَتُهم بحيث لو نظر أحدهم

---

(١) أحثّ : أسرع .

(٢) الزاد الذي يصنع للمسافر .

(٣) أسلمت قديماً بمكة بعد إسلام سبعة عشر إنساناً، ولها من العمر مائة سنة .

(٤) سجَّى : غطَّى .

(٥) سورة يسٓ الآية : ٩ .

تحت قدميه لنظرهما حتى أبكى ذلك أبا بكر فقال له عليه الصلاة والسلام : ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾[(١)] فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يَحِنْ لأحد منهم التفاتةٌ إلى ذلك الغار بل صار أعدى الأعداء أمية بن خلف يبعد لهم اختفاء المطلوبين في مثل هذا الغار . فأقاما فيه ثلاث ليالٍ حتى ينقطع الطلب ، وكان يبيت عندهم عبد الله بن أبي بكر وهو شاب ثَقِفٌ[(٢)] وَلِقنٌ[(٣)] فَيُدْلِج[(٤)] من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائتٍ بها ، فلا يسمع أمراً يكتادان به[(٥)] إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، وكان عامر بن فُهَيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعة من العشاء ، ويغدو بها عليهما ، فإذا خرج من عندهما عبد الله تَبِعَ أثره عامر بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثر . ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل[(٦)] بالراحلتين صبح ثلاث ، وسارا متَّبعين طريق الساحل ، وفي الطريق لحقهم طالباً ، سُراقة بن مالك المدْلجي[(٧)] وكان قد رأى رُسُلَ مشركي قريش يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما هو في مجلس من مجالس قومه بني مُدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام عليهم وهم جلوس فقال : يا سُراقة إني رأيت آنفاً أَسْوِدَة[(٨)] بالساحل أراها محمداً وأصحابه ، فعرف سراقة أنهم هم ، ولكنه أراد أن يثني عزم مُخبره عن طلبهم ، فقال : إنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا يبتغون ضالَّةً لهم ، ثم لبث في المجلس ساعة ، وقام وركب فرسه ثم سار حتى دنا من الرسول ومن معه ، فعثرت به فرسه فخرّ عنها ثم

---

(١) سورة التوبة الآية : ٤٠ .
(٢) ثقف : حاذق فطن .
(٣) لقن : سريع الفهم .
(٤) يدلج : يخرج وقت السحر .
(٥) يكتادان به ، أي يُدَبَّر بشأنهما .
(٦) عبد الله بن أريقط .
(٧) هو سُراقة بن مالك بن جعشم المدلجي .
(٨) رجالاً .

ركبها ثانيا وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يُكثِر الإلتفات فساخت قائمتا فرس سُراقة في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخرّ عنها ، ثم زجرها حتى نهضت ، فلم تكد تُخرج يديها حتى سَطَع لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان ، فعلِمَ سراقة أن عمله ضائع سُدىً، وداخله رعب عظيم، فناداهما بالأمان فوقف عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه حتى جاءهم، ويقول سُراقة: وقع في نفسي حين لقيت ما ليقيت أن سيظهر أمر رسول الله، فقلت؛ إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرهم بما يريد بهم الناس، وعرض عليهم الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً بل قالا له: أخفِ عنّا، فسأله سراقة أن يكتب له كتابَ أمنٍ، فأمر أبا بكر فكتب[1]. وبذلك انقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها مزيد عنايته برسوله.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله وقدومه عليهم يخرجون إلى الحرّة[2] حتى يردّهم حرّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد أن أطالوا انتظارهم ، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم[3] من آطامهم لأمر ينظر اليه ، فبصر برسول الله وأصحابه يزول بهم السراب يظهرهم تارة ويخفيهم أخرى ، فقال اليهوديُّ بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جَدُّكُمْ - أي حظكم - الذي تنتظرون ، فثاروا إلى السلاح فتلقّوا رسول الله بظهر الحَرَّة .

النزول بقباء

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقُباء[4] . والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي أن ذلك كان في اليوم

(١) وفي ذلك خلاف هل هو أبو بكر أم عامر بن فهيرة.
(٢) هي الأرض ذات الحجارة السود، المؤلف.
(٣) الأطم: الحصن، أم بناء من حجر كالقصر.
(٤) وصلها يوم الاثنين في شهر ربيع الأول.

الثاني من ربيع الأول الذي يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢، وهذا أول تاريخ جديد(١) لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاث عشرة سنة ، وهو مضيق عليه من مشركي قريش ، ورسول الله ممنوع من الجهر بعبادة ربه ، أما الآن فقد آواه الله هو وصحابته رضوان الله عليهم بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس .

هجرة الأنبياء

وبهذه الهجرة تمّت لرسولنا ﷺ سُنّةُ إخوانه من الأنبياء من قبله ، فما من نبي منهم إلا نَبَتْ به بلاد نشأته ، فهاجر عنها ، من إبراهيم أبي الأنبياء ، وخليل الله إلى عيسى كلمة الله وروحه ، كلهم على عظيم درجاتهم ورفعة مقامهم أُهينوا من عشائرهم ، فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متّبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في طاعة الله . فَسَلْ مصر وتاريخها تُنبئك عن إسرائيل (يعقوب) وبنيه أنهم هاجروا إليها حينما رأوا من بَنِيها ترحيباً بهم ، وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته . ولما مضت سنون ، نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضله عليهم، فاضطهدوا بني إسرائيل وآذوهم، خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله حقه في عبادته، وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذَّبوه ، فأرادوا الفتك به حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه (طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات) ثم قال بعد (افرحوا وتهلّلوا لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم) وسَلْ القرى التي حلّت بها نقمة الله بكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مُهَاجَرة الأنبياء منها قبل حلول النقمة ، فلا غرابة أن هاجر عليه الصلاة والسلام من بلاد منعه أهلها من تتميم ما أراده الله : ﴿ سُنَّةَ الله في الَّذِيْنَ

(١) لما أراد المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضع التاريخ جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة .

خَلَوا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ﴾[1] .

أعمال مكـــة

هذا، ولنبيّن لك مجمل ما دعا إليه الرسول عليـه الصلاة والسـلام بمكة من أصول الدين وذلك أمران :

الأول :الإعـتقـادبوحـدانيـة الله وأن لا يُشـرك معـه في العبـادة غيـره ، سـواء كان ذلـك الغير صنمـاً كما يفعـل مُشرِكـو مكة ، أو أبـاً أو زوجة أو بنتـاً كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى ، ولـولا الإعـتقاد بـوحدانيـة الله ما كَلَّف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق بل كـان يسير فيمـا تأمـره به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس .

الثاني :الإعـتقـاد بالبعث والنشور وأن هنـاك يومـاً ثانيـاًلـلإنـسـان يُجازى فيـه على ما صنعـه في الـدنيـا إن خيـراً فخيـر وإن شـرّاً فشـر ، وعلى هـذين الأمرين جاء غالب الآي المكيّة ، فقلّما نرى سورة من سور مكـة إلا مشحونـة بالإستدلال عليهما وتوبيخ من تركهمـا ، وكل ذلـك بأسـاليب تأخـذ بالعقـل ، وبـراهين لا تحتـاج لفلسفـة الـذين يشغلون أنفسهم بمـا لا طـائـل تحتـه ممـا يضيـع الوقت سـدىً . ونزل على رسـول الله ﷺ بمكة من القـرآن معظمـه ، وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سـورة منه ، وهي : البقـرة ، آل عمران ، النسـاء ، المـائدة ، الأنفـال ، التوبـة ، الحج ، النـور ، الأحزاب ، القتـال ، الفتح ، الحجرات ، الحديد ، المجادلـة ، الحشر ، الممتحنـة ، الصف ، الجمعة ، المنافقون ، التغابن ، الطلاق ، التحـريم ، النصر ، هـذه كلها مـدنية وبـاقي القرآن مكّي .

ولمـا نـزل عليـه الصـلاة والسـلام بقُبـاء ، نـزل على شيـخ بني عمـرو

---

[1] سورة الأحزاب الآية : ٦٢.

كُلثوم بن الهدْم[1] ، وكان يجلس للناس ويتحدث لهم في بيت سعد بن خَيثمة[2] لأنه كان عزباً ونزل أبو بكر بالسُّنْح (محلة بالمدينة) على خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج .

مسجد قباء

وأقام رسول الله بقباء ليالي[3] أسّس فيها مسجد قباء الذي وصفه الله بأنه مسجد أُسِّس على التقوى من أول يوم[4] ، وصلى فيه عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين ، وهم آمنون مطمئنون ، وكانت المساجد على عهد رسول الله في غاية من البساطة ليس فيها شيء مما اعتاده بُناة المساجد في القرون الأخيرة ، لأن الرسول وأصحابه لم يكن جُلُّ همّهم إلا منصرفاً لتزيين القلوب ، وتنظيفها من حظ الشيطان ، فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة وفوقه مظلة يُتَّقى بها حرّ الشمس .

الوصول إلى المدينة

ثم تحوّل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة والأنصار محيطون به متقلدي سيوفهم ، وهنا حدّث ولا حَرَج عن سرور أهل المدينة ، فكان يومُ تحوله اليهم يوماً سعيداً لم يُروا فرحين بشيء فرحهم برسول الله ﷺ ، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن :

طلع البَدرُ علينا من ثَنِيَّاتِ الوداع[5]

(١) كلثوم بن الهدم : أسلم قبل وصول رسول الله ﷺ الى المدينة .
(٢) الأوسي الأنصاري ، كان أحد النقباء بالعقبة .
(٣) لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في حَيٍّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة .
(٤) قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أُسّس على التقوى من أول يوم ٍ أحقُّ أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبّون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين ﴾ .
(٥) المنطقة التي يصل اليها المشيّعون يسمونها بثنية الوداع .

وجب الشكر علينا ما دعا لله داعِ
أيُّها المبعوثُ فينا جئت بالأمرِ المُطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماشٍ وراكب يتنازعون زمام ناقته كلٌّ يريد أن يكون نزيله .

أول جمعة

وأدركته عليه الصلاة والسلام صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف[1] ، فنزل وصلّاها وهذه أول جمعة له عليه الصلاة والسلام ؛ وأول خطبة خطبها عليه الصلاة والسلام حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيُّها الناس فقدِّموا لأنفسكم ، تعْلمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ، ثم لَيَدَعنَّ غَنمه ليس لها راعٍ ، ثم ليقولَنَّ له ربه ، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلَّغك ، وآتيك مالاً وأفضلتُ عليك ، فما قدَّمت لنفسك ؟ فَلَينظُرنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يَقِيَ وجهه من النار ولو بِشَقٍّ تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة فإنَّ بها تُجْزى الحسنةُ عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2] .

النزول على أبي أيوب

ثم ساروا وكلما مرّوا على دار من دور الأنصار يتضرَّعُ إليه أهلها بأن ينزل عندهم ، ويأخذون بزمام الناقة ، فيقول : دعوها فإنها مأمورة[3] ، ولم

---

(١) ابن مالك الأشجعي .
(٢) سيرة ابن هشام ١ / ٥٠٠ .
(٣) قال العلاّمة الزرقاني : الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه عليه الصلاة والسلام لمن خصّه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس ، وتذهب معها المنافسة بين الصحابة ، ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئاً .

تَزَل سائرةً حتى أتت بفناء بني عـدي بن النجار (وهم أخـواله الـذين تزوج منهم هاشـم جده) فبـركت بمحلة من محلاتهم أمـام دار أبي أيوب الأنصـاري واسمه خالد بن زيد[١] ، وذلـك مَحلُّ مسجـده الشريف ، فقـال عليه الصـلاة والسـلام ههنـا المنـزل إن شـاء الله ﴿ رَبِّ أَنْـزِلْني مُنْـزَلًا مُبـاركـاً وَأَنْتَ خَيـرُ المنْـزِلينَ ﴾[٢] فاحتمـل أبو أيـوب رَحْله ووضعه في منـزلـه ، وجـاء أسعـد بن زرارة فأخذ بزمام ناقته فكانت عنده ، وخرجت ولائد بني النجار يقلن :

نحن جَـوارٍ من بني النـجـار يـا حبّـذا محمـد من جـار

فخـرج إليهنّ رسول الله ﷺ فقـال : أتُحببنني ؟ فقلن : نعم ، فقـال : الله يعلم أن قلبي يحبكن[٣] واختـار عليه الصـلاة والسـلام النـزول في الـدَّوْرِ الأسفـل من دار أبي أيوب ليكـون أريح لـزائـريـه ، ولكن لم يـرضَ رضي الله عنه ذلك كرامة لرسول الله لمـا يمكن أن يصيبه من التـراب الذي يُحـدِثه وطء الأقـدام أو المـاء الـذي يهـراق، فقـد اتفق أن كُسـرت من زوجتـه جـرّة مـاء بـالليل ، فقام هو وهي بقـطيفتهما التي ليس لهمـا غيـرُهـا ، يمسحـان المـاء خـوفاً على رسـول الله ، ولذلـك لم يَزَلْ أبـو أيـوب يستعـطفـه حتى كـان في العلو ، وكـانت تأتيـه الجفان[٤] كـل ليلة من سَـرَاة الأنصـار كسعـد بن عبـادة وأسعـد بن زرارة وأُم زيد بن ثـابت[٥] فمـا من ليلة إلا وعلى بـابـه الثـلاث أو الأربع من جِفان الثريد .

نزول المهاجرين

ولمـا تحول مـع رسـول الله أغلب المهـاجـرين تنـافس فيهم الأنصـار ،

---

(١) توفي زمن معاوية في حصار القسطنطينية ودفن هناك خارج المدينة. المؤلف.

(٢) سورة المؤمنون الآية: ٢٩ .

(٣) ذكره الحاكم والبيهقي .

(٤) وهي القصعة.

(٥) هي النوار بنت مالك، تزوجها بعد ثابت عمارة.

فحكَّموا القرعة بينهم ، فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقُرعة .

أخوة الإسلام

ومن يتأمل إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بشر ، بل بفضل من الله ورحمته ، يفهم كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلَّة العدد والعُدد .

وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم قال تعالى في سورة الحشر : ﴿ وَالَّذِيْنَ تَبَوَّؤوا الدَّارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحبُّونَ مَن هَاجَرَ إلَيْهم وَلا يَجِدُونَ فِي صُدورهم حاجةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤثِرونَ على أنفسهم وَلَو كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوق شُحَّ نَفْسِهِ فَأوْلئكَ هُمُ المُفْلِحونَ ﴾[1] . وهذا أعلى درجات الأخوة ، وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم ، فإن رسول الله ﷺ ليُمَكِّنَ بينهم الإخاء ، آخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان كل أنصاري ونزيله أخوين في الله . ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضّح للقارىء أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية بل نَكِلُ ذلك للإحساس الإسلامي فإنه أفصح منطقاً من القلم . وعلى الإجمال فتلك قلوبٌ أَلَّفَ الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً في أجسام متفرقة ، وعسى الله أن يوفّق مسلمي عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون ، وكان هذا الإخاء على المواساة والحق ، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لكل اثنين : « تآخيا في الله أخوين أخوين »[2] ودام هذا الميراث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب : ﴿ وَأُولُوا الأرحَامِ بَعْضُهم أولى بِبَعْضٍ في كتاب الله ﴾[3] .

---

(١) سورة الحشر الآية: ٩.

(٢) قال السهيلي: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة، ليُذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٦.

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة ليأتيا بمن تخلّف من أهله ، وأرسل معهما عبد الله بن أُرَيقط يدلهما على الطريق ، فقَدِما بفاطمة وأُمِّ كلثوم ابنتيه عليه الصلاة والسلام ، وسَودة زوجه ، وأم أيمن زوج زيد وابنها أُسامة ، وأما زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع ، وخرج مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأُمِّ رومان[1] زوج أبيه ، وعائشة أخته ، وأسماء زوج الزبير بن العوّام ، وكانت حاملاً بابنها عبد الله ، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة .

حمّى المدينــة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة ، فأصاب كثيراً منهم الحُمّى[2] ، وكان رسول الله يعُودهم فلما شَكوا إليه الأمر قال : « اللهمّ حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة وأشد وبارِك لنا في مُدِّها وفي صاعها ، وانقل وباءها إلى الجُحْفَة »[3] فاستجاب الله جَلَّ وعلا دعوته ، وعاش المهاجرون في المدينة بسلام .

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة ، وحبسوهم وعذبوهم منهم الوليد بن الوليد ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ، فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته ، وهذا أصل القنوت[4] ، وقد حصل في أوقات مختلفة ومَحالَّ في الصلاة مختلفة ،

(١) أُم رومان امرأة أبي بكر الصديق، توفيت في حياة النبي ﷺ .

(٢) لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وُعِكَ أبو بكر وبلال.

(٣) والجحفة : قرية على اثنتين وثمانين ميلاً من مكة وهي ميقات أهل الشام . وكان بها اليهود فهلكوا وضربت الجحفة وانتقل الميقات الى أربع

(٤) عن أنس رضي الله عنه قال : بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، يقال لهم القرّاء، فعرض =

فكان في وتر العشاء ، وصلاة الصبح بعد الركوع وقبله ، فـروى كل صحـابي ما رآه ، وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت .

= لهم حيَّانِ من بني سُليم، رِعْل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر معونة، فقال القوم: والله ما إياكم أردنا، انما نحن مجتـازون في حاجـة للنبي ﷺ ، فقتلوهم، فدعـا النبي ﷺ عليه شهـراً في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت. النجاري ٤٠٨٨ .

السنة الأولى

بناء المسجد

ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده في مَبْرَك ناقته أمام محلَّة بني مالك بن النجار ، وكان محله مِرْبداً للتمر[1] يملكه غلامان يتيمان[2] في حِجر أسعد بن زرارة ، فدعا الغلامين ، وساومهما بالمِربد ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله ، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة بل ابتاعه منهما[3] ، وكان فيه قبورٌ للمشركين وبعض حفر ونخل ، فأمر بالقبور فَنُبشت ، وبالحفر فَسُوِّيت ، وبالنَّخل فقُطع ، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ وشرعوا في البناء به ، وجعلوا عضادتي الباب من الحجارة ، وسقفوه بالجريد ، وجعلت عَمَدُهُ من جذوع النخلِ ، ولا يزيدُ ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً ، وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغِّب المسلمين في العمل ، وصاروا يرتجزون وهو يقول معهم :

اللهمّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فارحم الأنصارَ والمُهاجرة

وجُعلت قبلة المسجد في شماله إلى بيت المقدس ، وجُعل له ثلاثة أبواب ثم حصبت أرضه لأن المطر كان قد أثَّر فيه ، فأمر عليه الصلاة

(١) المربد: هو الموضع الذي يجفف فيه التمر.

(٢) هما سُهيل وسهل.

(٣) ولم يقبله هبة لأن المالك دون البلوغ وهو لا يصح.

والسلام بحصبه[1] ، ولم يزين المسجد بِفُرُشٍ حتى ولا بالحصر ، وبنى بجانبه حجرتين ، إحداهما لسَودة بنت زمعة ، والأخرى لعائشة ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام متزوجاً غيرهما إذ ذاك ، وكانت الحِجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه ، وصارت الحجرات تبنى كلما جاءت زوج[2] .

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العليّ الأعلى ، فيتبعون أوامره ، ويجتنبون نواهيه ، ولذلك قال في مُحكم كتابه في سورة العنكبوت : ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ﴾[3] . وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة ليذاكر المسلمون بعضهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم . ويقوّوا روابط الإلفة والإتحاد بينهم ، ومتى حان وقت الصلاة فلا بدّ من عمل ينبّه الغافل ، ويذكّر الساهي حتى يكون الإجتماع عامّاً ، فائتمر[4] النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك ، فقال بعضهم : نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس ، فلم يرضوا ذلك لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل ، وقال الآخرون : نُشعل نارا على مرتفع من الهضاب فلم يقبل أيضاً ، وأشار آخرون ببوق (وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم) فكرهه رسول الله لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما ، وأشار بعضهم بالناقوس (وهو ما يستعمله النصارى) فكرهه الرسول أيضاً ، وأشار بعضهم بالنداء فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها فقُبِل هذا الرأي ، وكان أحد المنادين عبد الله بن زيد الأنصاري ، فبينما هو بين النائم واليقظان إذ عرض له شخص وقال : ألا

---

(١) حتى صار عددها تسع حجرات .
(٢) أي أن تلقى فيه الحصباء وهي الحصى الصغار .
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .
(٤) تشاور .

أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة ؟ قال : بلى ، فقال له : قل الله أكبر مرتين ، وتشهَّد مرتين ثم قل حيَّ على الصلاة مرتين ، ثم قل : حيَّ على الفلاح مرتين : ثم كبِّر ربك مرتين ، ثم قل لا إلّه إلا الله فلما استيقظ توجه إلى النبي ﷺ وأخبره خبر رؤياه ، فقال : إنها لرؤيا حق ، ثم قال له لقِّن ذلك بلالاً فإنه أندى[1] صوتاً منك ، وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجر رداءه ، فقال : والله لقد رأيت مثله يا رسول الله ، وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة ، والآخر عبد الله بن أم مكتوم ، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح : « الصلاة خير من النوم » مرتين ، وأقرّه الرسول على ذلك ، وكان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذانين : أولهما يوقظ به الغافلون حتى يَنْتَبِهوا للسحور ، والثاني للصلاة . أما الأذان للجمعة ، فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد نداء آخر على الزوراء . رواه البخاري[2] . ولما تولى هشام بن عبد الملك أخذ الأذان الذي زاده عثمان بالزوراء وجعله على المنار ، ثم نقل الأذان الذي كان على المنار[3] حين صعود الإمام على المنبر في العهد الأول بين يديه .

فعلم بذلك أن الأذان في المسجد بين يدي الخطيب « بدعة » أحدثها هشام بن عبد الملك ، ولا معنى لهذا الأذان لأنه هو نداء إلى الصلاة ، ومن هو في المسجد لا معنى لندائه ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء في المسجد . ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في « المدخل » .

قال الحافظ في فتح الباري[4] : وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من

(١) أي أرفع وأعلى .
(٢) الزوراء : موضع في سوق المدينة .
(٣) كان الأذان على سطح المسجد ولم يكن مناراً .
(٤) ٢ / ٣٩٤ .

الدعاء إليها بالذكر والصلاة على النبي ﷺ فهو في بعض البلاد دون بعض واتباع السلف الصالح أولى . ا هـ .

فعلم من ذلك كله أن سنّة رسول الله ﷺ في أذان الجمعة أنه كان إذا جلس على المنبر أذّن مؤذنه على المنار ، فإذا انتهت الخطبة أُقيمت الصلاة وما عدا ذلك فكله ابتداع[1] .

أما الاقامة وهي الدعوة للصلاة في المسجد ، فقد اختلفت الروايات في نصّها فرَواها محمد بن إدريس الشافعي مفردة إلا لفظ (قد قامت الصلاة) فَمَثْنَى ، ورواها مالك بن أنس مفردة كلها ، ورواها أبو حنيفة النعمان مَثْنَى كلها .

يهود المدينة

هذا ، وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمُشركي قريش ابتلاهم في المدينة بيهودها وهم : بنو قينقاع ، وقريظة ، والنضير ، فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق ، وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب إذا شبّت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه ، فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوّة في ولد إسماعيل ، فكفروا بما أنزل الله بغياً ، مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً لم يأتِ إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين ، مبيّناً ما أفسده التأويل منها ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . ومما عابوه على الإسلام نسخ الأحكام ، وما دَرَوا أن القادر العليم يعلم ما يحتاجه الإنسان أكثر منهم ، فإنه ميال بطبعه للترقّي ، والرسول عليه الصلاة والسلام وجد بادىء بدء بين جماعة من العرب أُميين ليسوا على شيء من

---

(١) تبين مما مضى أن عثمان أحدَثه لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة، فهي إذاً بدعة حسنة لا سيئة.

الإعتقادات الإلّهية ، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج ، لأنه لو حرَّم الله عليهم شرب الخمر وأكل الربا ، وأمرهم بالصلاة والزكاة وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الإسلامي لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبهم ، المختلفة أهواؤهم ، الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل ، فجاءهم رسول الله ﷺ بالأمر شيئاً فشيئاً حتى رُوِّضت عقولهم ، وهُذِّبت نفوسهم ، وكانت الأحكام لا ينزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها ، ليكون التأثير في النفوس أشد ، ولكن اليهود أرادوا غَلَّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون ، وقد حجَّهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البُعد عن الحق ، فقال في سورة البقرة : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوا الموتَ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾[1] ثم حتَّم جلَّ ذكره عدم إجابتهم بقوله : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبداً بما قَدّمتْ أَيْدِيهم والله عَلِيْمٌ بالظَّالِمِيْنَ ﴾[2] فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عمّا طُلب منهم مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين ، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو نُطقاً باللسان . وقد تبيّن الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع وهو عبد الله بن سَلام ، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن ، وبعد أن كان اليهود يعدّونه من رؤسائهم ، عدُّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه ، فـ ﴿ بِئْسَما اشتروا به أَنْفُسَهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُنَزِّل الله من فضله على مَنْ يشاء من عباده ﴾[3] ، ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الإسلام صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره : ﴿ وَيَأْبَى الله إلَّا أَنْ يُتِمّ نُورَهُ وَلو كَرِهَ الكَافِرونَ ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٥.

(٣) سورة البقرة الآية ٩٠

(٤) سورة التوبة الآية: ٣٢.

المنافقون

وكان يُساعدُهُم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم ، فأخفوا كفرهم خوفاً على حياتهم ، وكان يرأس هذه الجماعة عبد الله بن أُبيّ بن سلول الخزرجي الذي كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ(١) ، ولا شكَّ أن ضررَ المنافقين أشدُّ على المسلمين من ضرر الكفار ، لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ، ويُشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً ، والأساس الذي كان عليه رسول الله أن يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ، ولكنه عليه الصلاة والسلام مع ذلك كان لا يأمنهم في عمل ما . فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ، ويولي عليها بعض الأنصار ، ولكن لم يُعْهَد أنه ولى رجلاً ممّن عُهِدَ عليه النفاق ، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم ما يكون منهم لو وُلُّوا عملاً ، فإنهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين ، وهذا درس مهم لرؤساء الإسلام يعلِّمهم ألَّا يثقوا في الأعمال المهمة إلا بمن لم تَظْهر عليهم شبهة النفاق أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد .

معاهدة اليهود

هذا ، وقد علمتَ أنه كان يضاد المسلمين في المدينة فئتان : اليهود ، والمنافقون ، ولكن الرسول قَبِلَ من هؤلاء ظواهرهم ، وعقد مع أولئك عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى ، فلا يُحاربهم ولا يؤذيهم ، ولا يعينون عليه أحداً ، وإن دهمه بالمدينة عدو ينصرونه ، وأقرّهم على دينهم .

---

(١) رأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلكه ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرّاً على النفاق . والعياذ بالله .

مشروعية القتال[1]

قد عُلم مما تقدم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يقاتل أحداً على الدخول في الدين ، بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار ، وكان الله سبحانه ينزل عليه من الآي ما يقوّيه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش ، ومن ذلك قوله في سورة الأحقاف : ﴿ فاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعجِل لَهُم ﴾[1] . وكان كثيراً ما يقصّ الله عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله ليثبِّت به فؤاده ، ولما ازداد طغيان أهل مكة ألجؤوه إلى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله ، فكانوا هم البادئين بالعِداء على المسلمين حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فبعد الهجرة أذن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتِلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا وَأَنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيْرٌ . الَّذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيرِ حَقٍ إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا الله ﴾[2] ثم أمرهم بذلك في سورة البقرة : ﴿ وَقَاتِلوا في سَبِيْلِ الله الَّذينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ المُعتَدِينَ . وَٱقتُلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهم وَاخرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ ولاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَام حَتّى يُقاتِلوكُمْ فِيْهِ فَإنْ قَاتَلوكُمْ فَاقْتلوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينْ . فإن انْتَهوا فإنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهمْ حَتّى لا تَكونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فإنِ انتَهوا فَلاَ عُدْوَان إلاَّ عَلى الظَّالِمِينْ ﴾[3] . وبذلك لم يكن الرسول يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب فلما تمالأ على المسلمين غير أهل مكة من مشركي العرب واتحدوا عليهم مع الأعداء أمر الله بقتال المشركين كافة بقوله في سورة التوبة : ﴿ وَقَاتِلوا المُشْرِكينَ كَافَّة كَما يُقَاتِلونَكُمْ كَافَّةً ﴾[4] وبذلك صار الجهاد عامّاً لكل مَنْ ليس له كتاب من الوثنيين وهذا مصداق قوله عليه الصلاة

(١) سورة الأحقاف الآية : ٣٥

(٢) سورة الحج الآية : ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) سورة البقرة الآيات : ١٩٠ ـ ١٩٣ .

(٤) سورة التوبة الآية : ٣٦ .

والسلام : « أمرتُ أن أُقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله »[1] . ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود حيث انهم ساعدوا المشركين في حروبهم ، أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال : ﴿ وَإمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَومٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إلَيْهم على سَوَاءٍ إنَّ الله لا يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴾[2] وقتالهم واجب حتى يدينوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ليأمن المسلمون جانبهم ، وصار قتال رسول الله للأعداء على هذه المبادىء

١ ـ اعتبار مُشركي قريش محاربين لأنهم بدؤوا بالعدوان فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين .

٢ ـ متى رُئِيَ من اليهود خيانة وتحيّز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم بالنفي أو القتل .

٣ ـ متى تعدّت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالإسلام .

٤ ـ كل من بادأ بعداوة من أهل الكتاب كالنصارى قوتل حتى يذعن بالإسلام أو يعطي الجزية عن يدٍ وهو صاغر .

٥ ـ كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحقه ، والإسلام يقطع ما قبله .

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيراً من الآي تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء وتبعيداً عن الفِرار من الزحف فقال في الموضوع الأول في سورة النساء : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ في سَبِيلِ الله الَّذِيْنَ يَشْرُونَ الحَياةَ الدُّنيا بالآخِرة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، رقم: ٢٥ .
(٢) سورة الأنفال الآية: ٥٨ .

وَمَنْ يُقَاتِل في سَبِيْلِ الله فَيُقْتَل أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤتِيهِ أَجراً عَظِيماً ﴾[1] . وقال في الموضوع الثاني في سورة الأنفال : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا إذا لَقِيْتُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا زَحْفَاً فَلا تُولُّوهُم الأَدْبَارَ وَمن يُولِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَه إلا مُتحرِّفاً لِقتالٍ أو مُتَحيِّزَاً إلى فِئَةٍ فَقد بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيْرُ ﴾[2] .

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهبَ بتجارتها إلى الشام لتبيع وتبتاع ، ويُسمى الركبُ السائر بهذه التجارة عيراً ، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسَرَاتِهم ، ولا بدّ لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة ، فرأى رسول الله ﷺ أن يُصادِرَ تجارتهم ذاهبةً وآيبة ، ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة ، حتى تضعفَ قوتهم المالية ، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال ، الذي لا بدّ أن يكون ، لأن قريشاً لم تكن لتسكت عمّن سفّه أحلامهم ، وعاب عبادتهم خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين .

سرية[3]

ففي شهر رمضان أرسل عمّه حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ، وعقد لهم لواء أبيض حمله أبو مَرْثَد[4] حليف حمزة ، ليعترض عيراً لقريش آيبة من الشام ، فيها أبو جهل وثلاثمائة من أصحابه المشركين ، فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العِيص[5] فصادف العير هناك ، فلما تصافّوا للقتال حجز بين الفريقين مَجدِيُّ بن عمرو الجُهني فأطاعوه وانصرفوا ، وشكر عليه الصلاة والسلام مجدياً على عمله

(١) سورة النساء الآية: ٧٤.
(٢) سورة الأنفال الآية: ١٥ ـ ١٦.
(٣) السرية : القطعة من الجيش.
(٤) هو كنّاز بن حصين الغنوي.
(٥) عرض من أعراض المدينة، أي ناحية منها. المؤلف.

لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم .

وفي شوال أرسل أرسل عُبيدة بن الحارث[1] بن المطلب بن عبد مناف في ثمانين راكباً من المهاجرين ، وعقد له لواء أبيض حمله مِسْطَح بن أُثاثة[2] ليعترض عيراً لقريش ، فيها مائتا رجل ، فوافوا العير ببطن رابغ [3] ، فكان بينهم الرمي بالنبل ، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين فانهزموا ، ولم يتبعهم المسلمون ، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعتبة بن غَزْوان وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين .

وفيات

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون أخو رسول الله ﷺ من الرضاع أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، ولما دفن أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُرَشَّ قبره بالماء ، ووضَعَ على قبره حجراً ، وقال : أتعلم به قبر أخي ، وأدفن إليه من مات من أهلي ، وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر ، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور ، وتصويرها بصور تُرَى في عين الناظر كالأصنام ، ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالات كثيرة ، تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم ، ومن العبث فعل شيء لم يفعله رسول الله مما يتعلق بأمور الآخرة .

ومات من الأنصار أسعدُ بن زُرارة أحد النقباء الإثني عشر ، كان رضي الله عنه نقيبَ بني النجار ، ولما مات اختار رسول الله نفسه للنقابة عليهم لأن ابن أخت القوم منهم ، ومات أيضاً البراء بن معرور أحد النقباء ، وهو

---

(١) في الأصل : ابن عم حمزة وهو خطأ، لأنه إبن إبن عم عبد المطلب.

(٢) اسمه عوف، أسلم قديماً ، ومات سنة ٣٤ هـ .

(٣) وادٍ بين الحرمين قرب البحر . المؤلف.

الـذي كان يتكلم عن القـوم في العقبة الثـانيـة ، ومـات من مشـركي مكـة في هذه السنة الـوليد بن المغيـرة ، ولما احتُضـر جزع ، فقـال له أبـو جهل : مـا جزعك يا عم ، فقال : والله مـا بي جزع من المـوت ، ولكن أخاف أن يـظهر دين ابن أبي كبشة بمكة ، فقال أبو سفيـان : لا تخفْ إني ضامن ألَّا يـظهر ، وفيهـا أيضـاً مـات العـاص بن وائـل السهمي . وقـد كفى الله المسلمين شـر هذين الشَّقِيَّيْـن .

السنة الثانية

غزوة

ولإثنتي عشرة ليلة خَلَت من السنة الثانية خرج رسول الله ﷺ من المدينة بعد أن استخلف عليها سعد بن عبادة ، ليعترض عيراً لقريش ، فسار حتى بلغ وَدَّان[1] ، وكان يحمل لواءه عمّه حمزة ، ولم يلقَ هناك حرباً لأن العير كانت قد سبقته ، وفي هذه الغزوة صالح بني ضمرة على أنهم آمنون على أنفسهم ولهم النصر على من رامهم ، وأن عليهم نُصْرَة المسلمين إذا دُعوا ، ثم رجع إلى المدينة بعد مضي خمس عشرة ليلة .

غزوة بواط

ولم يمضِ على رجوعه غير قليل حتى بلغه أن عِيراً لقريش آيبة من الشام ، فيها أمية بن خلف ومائة من قريش ، وألفان وخمسمائة بعير ، فسار إليها في مائتين من المهاجرين[2] ، وذلك في ربيع الأول ، وكان يحمل لواءه سعدُ بن أبي وقاص ، فسار حتى بلغ بُواط[3] ، فوجد العير قد فاتته

(١) قرية بين مكة والمدينة بينها وبين الأبواء ستة أميال . المؤلف .

(٢) واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون .

(٣) جبل لجهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع . المؤلف .

فـرجع ولـم يلقَ كيـدا[1] ، وذلك كله لمـا كان يـأخذه المشـركـون من الحـذر على أنفسهم والإجتهاد في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة .

غزوة العشيرة[2]

وأعقب رجوعه عليـه الصلاة والسـلام خروج قـريش بأعـظم عِيرٍ لهـا ، فقـد جمعـوا فيهـا أمـوالهم حتى لم يبقَ بمكـة قـرشي أو قـرشيـة لهـا مثقـالٌ فصاعداً إلا بعث به في تلك العير ، وكـان يرأسهـا أبو سفيـان بن حرب ومعـه بضعـة وعشرون رجـلاً ، فخرج لهـا الرسـول في جمادى الأولى ، ومعـه مائـة وخمسون من المهاجرين ، واستخلـف على المدينة أبا سلمـة بن عبد الأسـد ، وحمـل لواءه عمـه حمزة ، ولم يـزل سائـراً حتى بلغ العُشَيْرة فـوجد العيـر قد مضتْ ، ووادع عليه الصلاة والسـلام في هذه الغـزوة بني مُدْلِـج وحلفاءهم ، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع .

غزوة بدر الأولى

وبعـد رجـوعــه عليـه الصــلاة والسـلام بقليــل جـاء كُــرْزُ بن جـابــر الفِهري[3] ، وأغار على سَرْح[4] المدينة وهرب ، فخـرج الرسـول في طلبه ، واستخلـف على المدينة زيـدَ بن حارثـة الأنصاري ، وحمـل لواءه علي بن أبي طـالب ، فسار حتى بلغ سَفَـوان[5] وفاتـه كُرزُ فلم يلق حـربـاً ، وتُسمى هـذه الغزوة بدراً الأولى .

---

(١) أي حرباً.

(٢) رواها البخاري في أول كتاب المغازي .

(٣) كان من رؤساء المشركين، واستشهد في غزوة فتح مكة.

(٤) الابل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة .

(٥) وادٍ من ناحية بدر. المؤلف .

سـريـة[1]

وفي رجب من هـذه السنة أرسـل سريـة عدّتهـا ثمانيـة رجال ، يـرأسها عبد الله بن جحش[2] ، وأعطاه كتاباً مختـوماً لا يَفُضُّـه إلا بعد أن يسيـر يومين ثم ينظر فيه . فسـار عبد الله يـومين ، ثم فتح الكتـاب فإذا فيـه : « إذا نظرت كتـابي هـذا فـامض حتى تنـزل نَخْلَة ، فتـرصَّـدَ بهـا قـريشـاً وتعلم لنـا من أخبـارهم » وإنما لم يخبـرهم عليه الصـلاة والسلام بمقصـدهم وهم بالمـدينة حـذراً من شيوع الخبـر ، فيـدلّ عليهم أحـد الأعـداء من المنـافقين أو اليهـود فتترصد لهم قريش . ولا يخفى أن عدد السرية قليـل لا يمكنه المقـاومة ، ثم سـار عبد الله رضي الله عنـه ، وفي أثنـاء السيـر تخلّف سعـد بن أبي وقـاص وعُتبة بن غَزوان لأنهما أُضلاّ بعيرهما الذي كانا يعتقبانـه ، وسار البـاقون حتى وصلوا نخلة فمـرّت بهم عِير قـرشية تـريـد مكـة فيهـا عمـرو بن الحَضـرمي ، وعثمـان بن عبد الله بن المغيـرة وأخـوه نـوفـل والحَكم بن كَيسـان ، فـأجمـع المسلمـون أمرهم على أن يحملوا عليهم ويـأخذوا مـا معهم ، فحملوا عليهم في آخـر يـوم من رجب ، فقتلوا عمـرو بن الحضـرمي ، وأسـروا عثمـان والحكم ، وهـرب نوفـل ، واستاقـوا العِير وهي أولُ غنيمـة غنمهـا المسلمـون من أعـدائهم قـريش ثم رجعـوا ، ولم يتمكن المشـركـون من اللحـاق بهم ، فلمـا قدمـوا المدينـة وشاع أنهم قـاتلوا في الأشهـر الحـرم ، وعـابتهم قـريش واليهـود بـذلـك ، عَنَّفَهم المسلمـون ، وقـال لهم عليـه الصـلاة والسـلام مـا أمـرتُكم بقتـال في الأشهـر الحُـرُم فنـدمـوا ، فـأنـزل الله في سـورة البقـرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَام قِتَالٍ فِيْهِ قُلْ قِتَـالٌ فِيْهِ كَبِيْـر وَصَدٌّ عَنْ سَبيـل الله وكُفْـرٌ بِهِ والمَسْجِـدِ الحَرَامِ وَإخْـراجُ أهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَـرُ عِنْـدَ الله والفِتنَـةُ أَكْبَـرُ مِنَ القَتْلِ ﴾[3] فَسُرِّي عنهم . وقد طلب المشركـون فداء أسيـريهما ، فقـال عليه الصـلاة والسـلام حتى يـرجـعَ سعـد وعتبـة ، فلمـا رجعـا قبـل عليـه الصـلاة

(١) هي سرية عبد الله بن جحش الى بطن نخلة .

(٢) عبد الله بن جحش بن رياب الأسدي ، دفن هو وحمزة في قبر واحد .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٧ .

والسلام الفدية في الأسيرين ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه مع المسلمين ، وأما عثمان فلحق بمكة كافراً .

تحويل القبلة

مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة ستة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس في صلاته ، وكان يحبّ أن تكون قبلته الكعبة ويقلِّبُ وجهه في السماء داعياً الله بذلك . فبينما هو في صلاته إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول وتحوّل مَنْ وراءه . وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدوا على أعقابهم(١) . وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام بهذا التحويل . وما دَرَوا أن لله المشرق والمغرب يهدي من يشاءُ إلى صراط مستقيم .

صوم رمضان

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم شهر رمضان على الأمة الإسلامية ، وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، والصيام من دعائم هذا الدين ، والفرائض التي يتم بها النظام ، فإن الإنسان مجبول على حبّ نفسه ، والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص ، تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين ، فلا بدّ من وازِع يزعه لحاجات قوم أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم ، ولا أقوى من ذوق قوارص الجوع والعطش ، إذ بهما تلين نفسه ويتهذب خلقه ، فيسهل عليه بذل الصدقات .

---

(١) لم يعرف أحد من المسلمين ارتدّ بسبب تحويل القبلة. ولا أدري من أين جاء المؤلف رحمه الله بهذه الرواية . .

صدقـة الفطر

ولـذلك أوجب الشـارع الحكيم عقب الصوم زكـاة الفطر فتـرى الإنسان يبذلها بسخاء ومحبة خالصة .

زكاة المــال

وفي هـذا العام فُـرضت زكاة الأمـوال ، وهذه هي النـظام الوحيـد الذي به يأكـل الفقراء والمسـاكين من إخوانهم الأغنيـاء بلا ضـرر على هؤلاء ، فإذا بلغت الدنانير عشرين أو الدراهم مائتين ، وحـال عليها الحـول ، وجب عليك أن تؤدي ربـع عشرهـا (أي اثنين ونصفاً في كـل مائـة) ومـا زاد فبحسـابـه ، وإذا بلغت الشيـاه أربعين ، والبقـر ثـلاثين ، والإبـل خمسـاً ، وحـال عليهـا الحـول وجب عليك كـذلك أن تؤدي منهـا جزءاً مخصـوصاً حـدده الشّـارِع ، ومثلها عروض التجارة ومحصولات الـزراعة كـل هذا يقبضـه الإمام ، ويـوزعه على مستحقيـه من الفقراء والمسـاكين وبقية المـذكـورين في آيـة الصـدقـة : ﴿ إنَّمـا الصَّدَقـاتُ للْفُقراءِ والمسَـاكِينِ والعَـامِلِيْنَ عليهـا وَالمُؤلَّفَـةِ قُلوبُهُمْ وفي الـرِّقَاب والغَـارِمِيْنَ وفي سَبِيْـلِ الله وابنِ السَّبِيْـلِ فَـرِيضَـةً مِنَ الله والله عَلِيْـمٌ حَكِيْمٌ ﴾[1] واللبيب العـاقـل البعيـد عن التعصب يحكم لأول نـظرة أن هــذا النـظام مع عـدم إضراره بـالأغنياء مقلِّل لمصـائب الفقر التي ألجـأت كثيراً من فقـراء الأمم أن يخـالفـوا نـظام دولهم ، ويؤسسـوا مبـادىء تقــويض العمـران وتداعي الأمن كما يفعله الإشتراكيون وغيرهم .

غزوة بدر الكبرى[2]

لـم يطل العهد بتلك العِير العظيمة التي خرج لهـا عليه الصـلاة والسلام وهي متوجهة إلى الشـام ، فلم يدركهـا ولـم يزل متـرقبـاً رجـوعها ، فلمـا سمع

(١) سورة التوبة الآية : ٦٠ .

(٢) بدر : هي قرية مشهورة بين مكة والمدينة .

برجوعها نَدَبَ إليها أصحابَهُ ، وقال : هذه عيرُ قريش فاخرجوا اليها لعلّ الله أن يُنْفِلكُموها فأجاب قوم وثَقُلَ آخرون لظنهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يُرِدْ حرباً ، فإنه لم يحتفل بها بل قال : من كان ظهره حاضراً فليركبْ معنا . ولم ينتظر من كان ظهره غائباً . فخرج لثلاث ليالٍ خَلَوْنَ من رمضان بعد أن ولّى على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وكان معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً : مائتان ونيف وأربعون من الأنصار ، والباقون من المهاجرين ، ومعهم فَرَسان ، وسبعون بعيراً يعتقبونها[1] ، والحامل للواء مصعب بن عمير العَبْدَري . ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ استأجر راكبا[2] ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر ، فلما علموا بذلك أدركتهم حميتهم ، وخافوا على تجارتهم ، فنفروا سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب بن عبد المطلب ، فإنه أرسل بدله العاص بن هشام بن المغيرة[3] . وأراد أمية بن خلف أن يتخلّف لحديث حدَّثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل ، حيث قال كما رواه البخاري[4] : سمعتُ من رسول الله يقول : إنهم قاتلوك ، قال : بمكة ؟ قال : لا أدري . ففزع لذلك وحلف ألاَّ يخرج ، فعابه أبو جهل ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوع بعد قليل . ولكن إرادة الله فوق كل إرادة ، فإن منيته ساقته الى حتفه رغم أنفه . وكذلك عَزَمَ جماعةٌ من الأشراف على القعود فَعِيْبَ عليهم ذلك ، وبهذا أجمعتْ رجالُ قريش على الخروج ، فخرجوا على الصعب والذلول ، أمامهم القَيْنات يغنين بهجاء المسلمين : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمالَهُم وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ اليومَ مِنَ النَّاسِ وإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾[5] . وقد ضرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم ، فقال في سورة الحشر : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إذ قَالَ للإنسانِ اكفُرْ فَلمَّا كَفَرَ قَالَ إنِّي

---

(١) الإعتقاب والتعاقب بمعنى ، وهو التناوب والتداول.

(٢) هو ضمضم بن عمرو الغفاري .

(٣) أخا أبي جهل .

(٤) في المغازي ، رقم : ٣٩٥٠ .

(٥) سورة الأنفال الآية : ٤٨ .

بَـرِيءٌ مِنْـكَ إنِّي أَخـافُ الله رَبَّ العَـالَمِيْنَ ﴾[1] وهكـذا كـان عمله في هــذه الـواقعة ﴿ فلمَّـا تَراءَتِ الفِئَتَـانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْـهِ وَقَـال إنِّي بَـرِيءٌ مِنْكُم إنِّي أَرَى مَـا لاَ تَرونَ إنِّي أَخَـافُ الله والله شَـدِيْدَ العِقَـابِ ﴾[2] . وكـان عـدَّةُ من خـرج من المشركين تِسعَمـائـة وخمسين رجـلاً معهم مـائـة فـرس وسبعمـائـة بعير .

أمـا رسول الله ﷺ فلم يكن يعـرف شيئاً ممـا فعله المشـركـون ، ولم يكن خـروجه إلا للعيـر ، فعسكر ببيـوت السّقْيا خـارج المدينـة ، واستعـرض الجيش فــردّ من ليس لـه قــدرة على الحـرب ، ثم أرســل اثنين يتجســسـان الأخبـار[3] عن العير . ولمـا بلغ الرَّوحـاء[4] جاءه الخبـر بمسير قـريش لمنع عِيرهم ، وجاءه مخبراه بأن العيـر ستصل بـدراً غداً أو بعـد غد ، فجمـع عليه الصـلاة والسلام كبـراء الجيش وقـال لهم : « أيّهـا النـاس إنَّ الله قـد وعـدني إحـدى الطائفتين أنهـا لكم : العير أو النفيـر » فتبين له عليـه الصلاة والسـلام أن بعضهم يـريـدون غيـر ذات الشـوكـة وهي العيـر ليستعينـوا بمـا فيهــا من الأموال ، فقد قالوا هـلاّ ذكرت لنـا القتال فنستعـد ، وجاء مصـداق ذلك قـوله تعـالى في سـورة الأنفــال : ﴿ وَإذ يَعِـدُكُمُ الله إحْــدَى الـطَائِفَتَيْنِ أَنَّهــا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّـوكَةِ تَكُـونُ لكُم ﴾[5] . ثم قام المقـداد بن الأسود[6] رضي الله عنـه فقال : يـا رسول الله امض لمـا أمـرك الله فـوالله لا نقـول لـك كمـا قـالت بنـو اسـرائيـل لمـوسى : ﴿ إذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّـكَ فَقَـاتِـلا إنَّـا هَهُنَــا قَـاعِدونَ ﴾[7] ولكن اذهب أنت وربـك فقاتـلا إنَّا معكمـا مقـاتلون ، والله لـو

---

(١) سورة الحشر الآية : ١٦ .

(٢) سورة الأنفال الآية : ٤٨ .

(٣) هما بَسْبس بن الجهني ، وعدي بن أبي الزَّغْباء .

(٤) موضع على ثلاثين أو أربعين ميلا جنوب المدينة الغربي . المؤلف .

(٥) سورة الأنفال الآية : ٧ .

(٦) هو المقداد بن عمرو، أسلم قديما، وهو أول من قاتل على فرس في سبيل الله .

(٧) سورة المائدة الآية : ٢٤ .

سـرت بنا إلى بَـرْكِ الغماد[1] لجـالدنـا معك من دونـه حتى تبلغه ، فـدعا لـه بخيـر ، ثم قال عليـه الصلاة والسـلام : أشيروا عليّ أيّهـا النـاس وهـو يـريـد الأنصار لأن بيعة العقبـة ربما يفهم منهـا أنه لا تَجِب عليهم نصـرته إلا مـا دام بين أظهـرهـم . فإن فيهـا : يا رسـول الله إنَّـا بُـرآء من ذمتـك حتى تصـل إلى دارنـا ، فـإذا وصلت إليهـا فـأنت في ذمتنـا نمنعـك ممـا نمنـع منـه أبنـاءنـا ونساءنا . فقال سعد بن معـاذ[2] سيد الأوس : كـأنك تـريدنـا يا رسـول الله ؟ فقـال : أجـل ، فقـال سعـد : قـد آمنـا بـك وصـدّقنـاك ، وأعـطينـاك على ذلـك عهـودنـا ، فـامضِ لمـا أمـرك الله ، فـوالـذي بعثـك بـالحق لـو استعرضت بنا هذا البحر فخضتـه لنخوضنـه معك ، ومـا نكره أن تكـون تلقى العدو بنا غداً ، إنَّا لَصُبُر عند الحرب صُدُق عنـد اللقاء ، ولعـلّ الله يُريـك منّا ما تقرّ به عَيْنُك فسر على بركة الله . فأشـرق وجهه عليـه الصلاة والسـلام وسُرّ بذلك وقـال كما في روايـة البخاري : « أبشـروا والله لكأني أنـظر إلى مصارعِ القـوم »[3] فعلم القومُ من هـذه الجملة أن الحـرب لا بـدّ حـاصلة ، وحقيقـةً حصلت ، فـإن أبـا سفيـان لمـا علم بخـروج المسلمين لـه تـرك الـطريق المسلوكـة ، وسـار متّبعـاً سـاحـل البحـر فنجـا ، وأرسـل إلى قـريش يُعْلِمهم بـذلك ، ويشيـر عليهم بالـرجوع ، فقـال أبو جهـل : لا نـرجـع حتى نحضـر بدراً[4] فنقيم فيه ثلاثاً ننحـر الجزور ونـطعم الطعـام ونُسقي الخمر ، وتسمـع بنـا العرب فـلا يزالـون يهابـوننـا أبـداً . فقـال الأخنس بن شـريق الثقفي لبني زهـرة وكان حليفـاً لهم : إرجعوا يـا قوم فقـد نجَّى الله أمـوالكم ، ولم يشهـد بدراً زهري ولا عدوي ، ثم سار الجيش حتى وصلوا وادي بـدر فنزلـوا عدوتـه القصوى[5] عن المدينة في أرض سهلة لينة .

---

(١) برك الغماد : موضع على خمس ليالٍ من مكة إلى جهة اليمن .
(٢) كان من أطول الناس وأعظمهم جسماً ، ورُمِيَ بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحـه ، ودفن بالبقيع وعمره ٣٧ سنة .
(٣) أي الذين سيُقتلون ببدر .
(٤) محل بين مكة والمدينة .
(٥) عدوة الوادي : شاطئه . المؤلف .

أما جيش المسلمين ، فإنه لمّا قارب بدراً أرسل عليه الصلاة والسلام عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوّام ليعرفا الأخبار ، فصادفا سُقاة لقريش فيهم غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص السهميين ، فأتيا بهما ، والرسول عليه الصلاة والسلام قائم يصلي ، ثم سألاهما عن أنفسهما فقالا نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء ، فضرباهما لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان . فقال الغلامان : نحن لأبي سفيان فتركاهما . ولما أتمَّ الرسول عليه الصلاة والسلام صلاته قال : إذا صدقاكم ضربتموهما . وإذا كذباكم تركتموهما ؟! صدقا . والله إنهما لقريش . ثم قال لهما : أخبِراني عن قريش ؟ قالا : هم وراء هذا الكَثِيب ، فقال لهما : كم هم ؟ فقالا : لا ندري . قال كم ينحرون كل يوم . قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . قال القوم ما بين التسعمائة والألف ، ثم سألهما عمّن في النفير من أشراف قريش فذكرا له عدداً عظيماً ، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها(١) ، ثم ساروا حتى نزلوا بعُدْوَة الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة(٢) ، فأصبح المسلمون عِطاشاً بعضهم جُنب وبعضهم مُحْدث ، فحدّثهم الشيطان بوسوسته ، ولولا فضل الله عليهم ورحمته لثنيت عزائمهم ، فإنه قال لهم : ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويُذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا .

فأرسل الله لهم الغيث حتى سال الوادي ، فشربوا واتخذوا الحياض على عُدْوَةِ الوادي ، واغتسلوا وتوضؤوا وملؤوا الأسقية ، ولبدت الأرض(٣) ، حتى ثبتت عليها الأقدام ، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين ، فإنه وَحَّل الأرض حتى لم يعودوا يقدرون على الإرتحال . ومصداق هذا قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم من السَّماءِ مَاءً

(١) قطع كبدها.

(٢) سبخة : مالحة.

(٣) أي صارت قوية لا تسوخ فيها الأرجل.

لِيُطهِّركُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيطانِ وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾[1] وقد أرى الله رسوله في منامه الأعداء كما أراهموه وقت اللقاء قليلي العدّة كيلا يفشل المسلمون ، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً . قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿إِذْ يُرِيْكَهُمُ الله في مَنَامِكَ قَلِيْلاً وَلَو أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُم وَلتنَازَعْتُمْ في الأمر ولَكِنَّ الله سَلَّم إِنَّهُ عَلِيْمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ وَإِذ يُرِيكُمُوهُمْ إذ التَقَيْتُمْ في أَعْيُنِكُم قَلِيْلاً وَيُقَلِّلكُمْ في أَعْيُنِهم لِيَقْضي الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإلى الله تُرْجَعُ الأمُورُ ﴾[2] ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر ، فقال الحُبَاب بن المنذر الأنصاري[3] وكان مشهوراً بجودة الرأي : يا رسول الله هذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال يا رسول الله : ليس لك هذا بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فإني أعرف غزارة مائه وكثرته فننزله ونغوِّر[4] ما عداه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضاً ، فنملؤه ماءً فنشرب ولا يشربون . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : لقد أشرت بالرأي . ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم ، ثم أمر بالآبار التي خلفهم فغُوِّرت لينقطع أمل المشركين في الشرب من وراء المسلمين ، وبنى حوضاً على القَلِيب[5] الذي نزل عليه . ثم قال له سعد بن معاذ سيد الأوس : يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً[6] تكون فيه ونُعِدُّ عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فإن أعزّنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلّف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشدّ لك حبّاً منهم ، ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة في الجهاد ونيّة ، ولو

---

(١) سورة الأنفال الآية : ١١ .

(٣) سورة الأنفال الآية : ٤٣ ـ ٤٤ .

(٣) الحبّاب بن المنذر بن الجموح الأنصاري ، أخذ النبي ﷺ برأيه يوم بدر .

(٤) أي ندفن ونطمس .

(٥) هو البئر .

(٦) العريش : شبه الخيمة يستظل به .

ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك ، إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ويناصحونـك ويجاهـدون معك ، فقـال عليه الصـلاة والسلام : أو يقضي الله خيـراً من ذلـك . ثم بُني للرسـول عـريش فـوق تـل مشـرف على ميـدان الحـرب ، ولمـا اجتمعـوا عـدَّل عليـه الصـلاة والسـلام صفـوفهم ، منـاكبهم متلاصقة ، فصاروا كأنهم بنيان مرصـوص ثم نظر لقـريش فقال : «اللهمّ هـذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها[١] وفخرها تُحادّك[٢] وتكذب رسـولك اللهمّ فنصـرك الـذي وعـدتني بـه » . وفي هـذا الـوقت وقـع خُلْفٌ بين رؤسـاء عسكـر المشـركين ، فإن عتبـة بن ربيعة أراد أن يمنـع الناس من الحـرب ويحمـل دم حليفه عمرو بن الحَضرمي الذي قتل في سريـة عبد الله بن جحش ، ويحمـل مـا أُصيب من عيره ودعـا الناس الى ذلـك ، فلما بلغ أبـا جهل الخبـر وسَمَـه بـالجبن وقال : والله لا نـرجـع حتى يحكم الله بيننـا وبين محمـد ، وقبـل أن تقوم الحرب على ساقها ، خرج من صفوف المشـركين الأسود بن عبـد الأسد المخزومي وقال أُعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهـدمنه أو لأمـوتنَّ دونه ، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وضربـه ضربـة قطع بهـا قدمـه بنصف ساقـه فـوقع على ظهـره ، فزحف على الحـوض حتى اقتحم فيه لِيَبَـرَّ قسمه فـأتبعـه حمـزة فقتله . ثم وقف عليـه الصـلاة والسـلام يحـرّض النـاس على الثبـات والصبـر وكان فيمـا قال : « وإن الصبـر في مـواطن البـأس ممـا يفـرِّج الله بـه الهمّ وينجّي بـه من الغم » . ثم ابتـدأ القتـال بـالمبـارزة فخـرج من صفـوف المشـركين ثلاثـة نفر : عتبـة بن ربيعة بين أخيـه شيبة وابنـه الوليـد ، فـطلبـوا أكفـاءهم فخرج إليهم ثـلاثة من الأنصـار[٣] ، فقالـوا : لا حاجـة لنا بكم إنما نـريد أكفـاءنا من بني عمنـا ، فـأخـرج لهم عليـه الصـلاة والسـلام عبيـدة بن الحـارث بن المطلب[٤] لـلأول ، وحمزة بن عبـد المطلب للثـاني ، وعلي بن

---

(١) الخيلاء : الكبر والإعجاب .

(٢) تحادّك : تعاديك .

(٣) هم : عوف ، ومعاذ ، ابنا الحارث ، ورجل آخر قيل هو عبد الله بن رواحة .

(٤) في الأصل ـ ابن عبد المطلب وهو غلط ، والصواب ما أثبتنا .

أبي طالب للثالث . فأما حمزة وعلي فقتلا صاحبيهما ، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا بضربتين كلاهما جرح صاحبه ، فحمل رفيقا[1] عبيدة على عتبة فأجهزا عليه ، وحُمِل عبيدة بين الصفوف جريحاً يسيل مخّ ساقه ، وأضجعوه إلى جانب موقفه ﷺ ، فأفرشه رسول الله قدمه الشريفة ، فوضع خده عليها وبشّره عليه الصلاة والسلام بالشهادة ، فقال : وددتُ والله أن أبا طالب كان حيّاً ليعلم أننا أحقّ منه بقوله :

ونُسلمه حتى نُصرع حوله ونَذهل عن أبنائنا والحَلائِل

وبعد انقضاء هذه المبارزة وقف عليه الصلاة والسلام بين الصفوف يعدِّلها بقضيب في يده ، فمرّ بسواد بن غَزِيَّة حليف بني النجار وهو خارج من الصف ، فضربه بالقضيب في بطنه وقال : استقم يا سواد ، فقال أوجعتني يا رسول الله، وقد بُعثت بالحق والعدل فاقدني[2] من نفسك . فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عن بطنه ، وقال استقد يا سواد ، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه . فقال عليه الصلاة والسلام : ما حملك على ذلك ؟ فقال يا رسول الله قد حضر ما ترى فأردتُ أن يكون آخر العهد أن يمسّ جلدي جلدك ، فدعا له بخير ، ثم ابتدأ عليه الصلاة والسلام يوصي الجيش فقال : « لا تحملوا حتى آمركم وإن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل ولا تسلُّوا السيوف حتى يَغْشَوكم » ثم حضّهم على الصبر والثبات ثم رجع الى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر وحارسه سعد بن معاذ واقف على باب العريش متوشح سيفه ، وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذاك الوقت كما جاء في صحيح البخاري[3] « اللهم أُنشدك عهدك ووعدك اللهمّ إن شئت لم تُعبد » فقال أبو بكر : حَسْبك فإن الله سينجز لك وعده . فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ

(١) أي علي وحمزة رضي الله عنهما .
(٢) أقِدْني : أي اقتصّ لي من نفسك .
(٣) في المغازي، رقم: ٣٩٥٣.

وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾(١) . ثم قال عليه الصلاة والسلام يُحرِّض الجيش : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ومن قتل قتيلاً فله سَلَبه » فقال عُمير بن الحُمام[٢] وبيده تمرات يأكلها بخ بخ[٣]! ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، وقاتل حتى قُتِل .

واشتد القتال[٤] ، وحمي الوطيس ، وأيّد الله المسلمين بالملائكة بُشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم[٥] . فلم تكن إلا ساعة حتى هُزم الجمع ، وولّوا الدبر ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فقتل من المشركين نحوُ السبعين ، منهم : من قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة ، قُتلوا مبارزة أول القتال ، وأبو البختري بن هشام ، والجراح والد أبي عبيدة[٦] قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر ، وقُتل أمية بن خلف وابنه علي ، اشترك في قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمّار بن ياسر ، وقد سعيا في ذلك لما كان يفعله بهما أمية في مكة . ومن القتلى حنظلة بن أبي سفيان ، وأبو جهل بن هشام ، أثخنة فَتيان صغيران من الأنصار ، لما كان يسمعانه من أنه كان شديد الإيذاء لرسول الله ، وأجهز عليه عبد الله بن مسعود ، وقُتل نوفل بن خويلد قتله علي بن أبي طالب ، وقتل عبيدة

---

(١) سورة القمر الآية: ٤٥ .

(٢) هو عمير بن الحمام بن الجموح الأنصاري السلمي كان أول من قتل في سبيل الله يوم بدر .

(٣) بخ بخ : كلمة تُقال في موضع الإعجاب .

(٤) قال ابن اسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء ثم قال : شاهت الوجوه ، ثم نفحهم بها .

(٥) وذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وما جعله الله إلا بُشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٦ .

(٦) هو عامر بن الجراح مشهور بكنيته أبو عبيدة وبالنسبة الى جده ومنهم من لم يذكر بين عامر والجراح عبد الله وبذلك جزم مصعب الزبيري في (نسب قريش) . والأكثر على اثباته .

والعاص والد أبي أُحيحة سعيدٍ بن العاص بن أمية ، وقُتل كثيرون غيرهم ، أما الأسرى فكانوا سبعين أيضاً ، قتل منهم عليه الصلاة والسلام وهو راجع عقبة بن أبي مُعيط ، والنضر بن الحارث اللذين كانا بمكة من أشد المستهزئين . وكانت هذه الواقعة في ١٧ رمضان ، وهو اليوم الذي ابتدأ فيه نزول القرآن وبين التاريخين ١٤ سنة قمرية كاملة .

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالقتلى فنُقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بها قبل حصول الموقعة الى قليب بدر ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان من سُننه في مغازيه إذا مرّ بجيفة إنسان أمر بها فدفنت لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً . ولما أُلقي عتبة والد أبي حذيفة أحد السابقين إلى الإسلام تغير وجه ابنه ففطن الرسول عليه الصلاة والسلام لذلك ، فقال : لعلّك دخلك من شأن أبيك شيء! فقال : لا والله ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام ، فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك ، فدعا له الرسول عليه الصلاة والسلام بخير ، ثم أمر عليه الصلاة والسلام براحِلته فشُدَّ عليها حتى قام على شَفَةِ القليب الذي رمي فيه المشركون ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، أيسرّكم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله ، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً . فقال عمر : يا رسول الله ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواح فيها ! فقال : والذي نفسُ محمد بيده ما أنتم بأسمَعَ لما أقول منهم[1] ، وتقول عائشة رضي الله عنها : إنما قال إنهم الآن ليعلمون أن ما كنتُ أقول لهم حق ، ثم قرأت : ﴿ إنَّك لا تُسْمِعُ الموتى ﴾[2] ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبُورِ ﴾[3] ، تقول يعلمون ذلك حينما تبوأوا مقاعدهم من النار (رواه

---

(١) قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله .

(٢) سورة الروم الآية : ٥٢ .

(٣) سورة فاطر الآية : ٢٢ .

البخاري)[1] ثم أرسل عليه الصلاة والسلام المبشرين ، فأرسل عبد الله بن أبي رواحة لأهل العالية[2] ، وأرسل زيد بن حارثة لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله ، وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول ﷺ والمسلمين ، عادة الأعداء في إذاعة الضرّاء ، يقصدون بذلك فتنة المسلمين ، فجاء أولئك المبشرون بما سرّ أهل المدينة ، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقية بنت رسول الله وزوج عثمان . ثم قفل رسول الله راجعاً ، وهنا وقع خُلف بين بعض المسلمين في قسمة الغنائم ، فالشبان يقولون : باشرنا القتال ، فهي لنا خالصة ، والشيوخ يقولون : كنا ردءاً لكم فنشارككم . ولما كان هذا الإختلاف مما يدعو الى الضعف ، ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل أنزل الله حسماً لهذا الخلاف أول سورة الأنفال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيْعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3] فسطع على أفئدتهم نور القرآن ، فتألّفت بعد أن كادت تفترق ، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء ـ كما حكم القرآن ـ فقسمها عليه الصلاة والسلام على السواء الراجل مع الراجل ، والفارس مع الفارس ، وأدخل في الأسهام بعض مَنْ لم يحضر لأمر كُلف به وهم : أبو لُبابة الأنصاري لأنه كان مخلَّفاً على أهل المدينة ، والحارث بن حاطب لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقّق أمراً بلغه، والحارث بن الصِمَّة وخَوَّات بن جبير لأنهما كُسِرا بالروحاء فلم يتمكنا من السير، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد لأنهما أُرسِلا يتجسسان الأخبار ، فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب ، وعثمان بن عفان لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلَّفه على ابنته رقيّة يمرضها ، وعاصم بن عدي لأنه خلفه على أهل قُباء والعالية ، وكذلك أسهم لمن قتل ببدر وهم أربعة

(١) في كتاب المغازي، رقم: ٣٩٧٦.
(٢) قرى بظاهر المدينة وهو العوالي. المؤلف.
(٣) سورة الأنفال الآية: ١.

عشـر(١) منهم عُبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف الذي جُرح في المبارزة الأولى ، فإنه رضي الله عنه مات عند رجوع المسلمين من بدر ودفن بالصَّفراء(٢) . ولما قارب عليه الصلاة والسلام المدينة تلقته الولائد بالدفوف يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيّها المبعوث فينا جئت بالأمر المُطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله قد كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تمكّنني من فلان ـ لقريب له ـ فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس ، وعليّاً من أخيه عقيل . وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودّة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى ، فاضرب أعناقهم ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم(٣) . ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبد الله بن رواحة ، وقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضداً . فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله ليُليِّن قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدّد قلوب أقوام حتى تكون أشدّ من الحجارة ، وإن مَثَلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَني فَإِنَّهُ مِنِّي

(١) ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار: منهم ستة من الأوس واثنان من الخزرج.
(٢) وادٍ بين مكة والمدينة.
(٣) وهذا الرأي مما وافق به عمر رضي الله عنه ربّه.

وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1] وإن مَثَلَكَ يا عمر مثل نوح ! قال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾[2] ورأى عليه الصلاة والسلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلًّا من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهي إعزاز الدين ، وخذلان المشركين ثم قال لأصحابه : أنتم اليوم عالة[3] فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء ، وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول في أمر الأسرى ، فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم ألَّا يفعلوا كيلا يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم ، فسكتوا وصمّموا على ألا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم ، وتواصّوا فيما بينهم ألَّا يعجّلوا في طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه .

الفـــداء

فلم يلتفت إلى ذلك المطَّلب بن أبي وَدَاعة السهمي ، وكان أبوه من الأسرى ، فخرج خفية حتى أتى المدينة وفدى أباه بأربعة آلاف درهم ، وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها ، وكان أربعة آلاف درهم ، ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يُعلِّمهم ، وكان ذلك فداءه .

(ومن) الأسرى عمرو بن أبي سفيان ، ولما طُلب من أبيه فداؤه أبى ، وقال : والله لا يجمع محمد بين ابني ومالي دعوه يمسكوه في أيديهم ما بدا لهم . فبينما أبو سفيان بمكة إذ وجد سعد بن النعمان الأنصاري معتمراً ، فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو ، فمضى قوم سعد إلى رسول الله وأخبروه فأعطاهم عَمْراً ففكّوا به سعداً .

(ومن) الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول ، وكان

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٦ .

(٢) سورة نوح الآية : ٢٦ . رواه الإمام أحمد في مسنده ١/٣٨٣ .

(٣) عالة : فقراء .

عليه الصلاة والسلام قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته ، فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسول الله بمكة طلبوا من أبي العاص أن يطلّق زينب كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول ، فامتنع وقال : والله لا أُفارق صاحبتي ، وما أحب أن لي بها امرأة من قريش ، ولما أُسر أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلّتها بها أمها خديجة ليلة عرسها . فلما رأى عليه الصلاة والسلام تلك القلادة رَقَّ لها رقّة شديدة ، وقال لأصحابه : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا لها قلادتها فافعلوا ، فرضي الأصحاب بذلك ، فأطلقه عليه الصلاة والسلام بشرط أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة . فلما وصل إلى مكة أمرها باللحاق بأبيها ، وكان الرسول أرسل لها من يأتي بها فاحتملوها . (هذا) ولما أسلم أبو العاص بن الربيع قبيل الفتح ردّ عليه امرأته بالنكاح الأول .

(ومن) الأسرى سُهيل بن عمرو[1] وكان من خطباء قريش وفصحائها وطالما آذى المسلمين بلسانه ، فقال عمر بن الخطاب : دَعْني يا رسول الله أنزع ثنيتي سُهيل ، يدلع[2] لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا أُمَثِّل فيُمثِّل الله بي وإن كنت نبيّاً ، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمه » وقدم بفدائه مُكْرز بن حفص ، ولما ارتضى معهم على مقدار حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء . هذا وقد حقّق الله خبر الرسول في سهيل ، فإنه لما مات عليه الصلاة والسلام أراد أهل مكة الإرتداد كما فعل غيرهم من الأعراب ، فقام سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله : أيّها الناس مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ألم تعلموا أن الله قال : ﴿ إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهم مَيِّتُونَ ﴾[3] وقال : ﴿ ومَا مُحَمَّدٌ إلَّا رَسُولٌ قَد

---

(١) القرشي العامري، خطيب قريش. وهو الذي تولى أمر صلح الحديبية، مات في الشام بطاعون عمواس ، سنة ١٨ هـ .

(٢) أي يخرج.

(٣) سورة الزمر الآية: ٣٠ .

خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُسُل أَفَئِنْ مَات أَو قُتِلَ انقَلَبْتُم عَلى أَعْقَابِكُم ﴾(١) ثم قال : والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها فلا يغرّنكم هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم ، فانه يعلم من هذا الأمر ما أعلم لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم ، وتوكلوا على ربّكم ، فإن دين الله قائم ، وكلمته تامّة ، وإن الله ناصِر من نصره ومقوٍّ دينه ، وقد جمعكم الله على خيركم (يريد أبا بكر) وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رأيناه ارتدّ ضربنا عنقه(٢) ، فتراجع الناس عمّا كانوا عزموا عليه ، وكان هذا الخبر من معجزات نبينّا ﷺ .

(**ومن**) الأسرى الوليد بن الوليد(٣) افتكّه أخواه خالد وهشام ، فلما افتُدِيَ ورجع إلى مكة أسلم فقيل له هلاّ أسلمت قبل الفداء ؟ فقال خفت أن يعدّوا إسلامي خوفاً . ولما أراد الهجرة منعه أخواه ففرّ إلى النبي في عمرة القضاء .

(**ومن**) الأسرى السائب بن يزيد وكان صاحب الراية في تلك الحرب فدى نفسه وهو الجد الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعي .

(**ومنهم**) وهب بن عُمير الجُمحي كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش كثير الإيذاء لرسول الله ، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان ابن أمية يتذاكران مُصَاب بدر ، فقال عمير : والله لولا دَيْنٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهم الفقر بعدي ، كنت آتي محمداً فأقتله ، فإن ابني أسير في أيديهم ، فقال صفوان : دَيْنَك عليَّ وعيالك مع عيالي ، فأخذ عُمير سيفه وشحذه وسمَّه ، وانطلق حتى قَدِم المدينة ، فبينا عمر مع نفر من المسلمين إذ نظر إلى عمير متوشحاً سيفه ، فقال : هذا الكلب عدو الله ما جاء إلا بشرٍّ ؛ ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام : هذا عدو الله

(١) سورة ال عمران الآية : ١٤٤ .

(٢) خطبة سهيل بن عمرو موجودة في السيرة الحلبية ٢/١٩٦ .

(٣) وهو أخو خالد بن الوليد .

عميـر قد جـاء متوشحـاً سيفه ، فقـال : أدخله عليّ . فأخـذ عمر بحمـائل[1] سيفـه وأدخله . فلما رآه عليـه الصلاة والسـلام قال : أطلقـه يا عمـر ، أُدنِ يا عميـر فدنـا ، وقال : أنعِمـوا صباحـاً[2] ، فقال عليـه الصـلاة والسـلام : قـد أبـدلنا الله تحيـة خيراً من تحيتـك وهي : السلام ، ثم قـال : ما جـاء بك يـا عميـر ؟ قال : جئت لهـذا الأسير الـذي في أيديكم فأحسنـوا فيـه ، فقـال : فما بالُ السيف ؟ قـال قبَّحَها الله من سيـوف وهل أغنت عنّـا شيئاً ، قـال عليه الصـلاة والسلام : اصـدُقني ما الـذي جئت له ؟ قـال : ما جئت إلا لـذلك . قـال عليه الصـلاة والسلام : كـلا بل قعـدت أنت وصفوان في الحِجـر وقلتما كيت وكيت فأسلم عُمير وقال : كنّا نكـذّبك بمـا تأتي بـه من خبر السمـاء وما ينزل عليك من الـوحِي ، وهذا أمـر لم يحضره إلا أنـا وصفوان !! فقـال عليه الصـلاة والسلام : فقِّهـوا أخاكم في دينـه وأقرئـوه القرآن ، وأطلقـوا أسيـره ، فعاد عمير إلى مكة وأظهر إسلامه .

(**ومن**) الأسـرى أبو عـزيز بن عميـر أخو مصعب بن عميـر مرّ بـه أخوه فقال للذي أسره : شُدَّ يدك به ، فإن أمه ذات متاع لعلّهـا تفديـه منك . فقـال له : يا أخي هذه وصايتك بي ! ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم .

(**ومن**) الأسرى العباس بن عبد المطلب عَمُّ رسـول الله ﷺ ، كان قـد خـرج لهذه الحـرب مُكرهـاً ، ولما وقـع في الأسر طُلب منـه فداء نفسـه وابن أخيه عقيل بن أبي طالب ، فقال : علامَ ندفع وقد استكـرهنا على الخـروج ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لقـد كنت في الظاهـر علينا ، فـأُخذت منه فديـة نفسـه وابن أخيـه ، ثم قـال للرسـول : لقـد تـركتني فقيـر قـريش مـا بقيت ، قال : كيـف وقد تـركت لأُم الفضل أمـوالاً ؟ وقلت لها : إن متَّ فقـد تركتـك غنيـة ! فقال العبـاس : والله ما اطّلع على ذلـك أحد . وهـذا العمل غـاية مـا يفعل من العدل والمساواة فإنـه عليه الصـلاة والسلام لم يُعْفِ عمّـهُ مع علمـه

(١) حِمالة السيف : علاقته .

(٢) وكانت تحية أهل الجاهلية .

بأنه إنما خرج مُكْرهاً ، وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرهم فهكذا العدل ، ولا غرابة فذلك أدب قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنوا كُونُوا قَوَّامِيْنَ بِالقِسْطِ شُهَداءَ لله وَلو عَلى أَنْفُسِكُمْ أَو الوالِدَيْنِ والاقْرَبِيْنَ ﴾(١) .

(ومن) الأسري أبو عَزَّة الجُمحي الشاعر(٢) ، كان شديد الإيذاء لرسول الله بمكة فلما أُسر قال : يا محمد اني فقير ، وذو عيال ، وذو حاجة قد عرفتها فامنُن ، فمنَّ عليه فضلاً منه .

العتاب في الفداء

ولما تَمَّ الفداءُ أنزلَ الله في شأنه : ﴿ مَا كَانَ لِنَبيٍّ أَنْ يكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ في الأَرْضِ تُرِيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا والله يُرِيْدُ الآخِرَةَ والله عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ . لَوْلا كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لمسَّكم فِيْمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عظِيْمٌ ﴾(٣) . نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان في قتل الذين يصدّون عن سبيل الله ويمنعون دين الله من الإنتشار ، وعابَ بعضُ المسلمين على إرادة عَرَضِ الدنيا وهو الفدية ، ولولا حكم سابق من الله ألا يُعاقِبَ مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً لكان العذاب ، ثم أباح لهم الأكل من تلك الفدية المبني أخذها على النظر الصحيح . وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبيّنا عليه الصلاة والسلام فيما جاء به ، لأنه لو كان من عنده ما كان يعاتب نفسه على عمل عمله بناءً على رأي كثير من الصحابة . وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم في قلوبهم خيرا بأن يؤتيهم خيراً مما أُخِذَ منهم ويغفر لهم فقال : ﴿ يَا أَيُّها النَّبيُّ قُلْ لِمَنْ في أَيْدِيْكُمْ مِنَ الأَسْرى إنْ يَعْلَم الله في قُلوبكُمْ خَيْراً مِما أُخِذ مِنْكُمْ . وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٤) .

---

(١) سورة النساء الآية: ١٣٥ .
(٢) ثم أسر، وقتل صبراً.
(٣) سورة الأنفال الآية: ٦٧ ـ ٦٨ .
(٤) سورة الأنفال الآية: ٧٠ .

وهـذه الغـزوة هي التي أعـزّ الله بهـا الإسـلام وقـوّى أهله ، ودمـغ فيـه الشـرك ، وخرّب محله ، مـع قلّة المسلمين وكثرة عـدوهم ، فهي آية ظـاهـرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله مع مـا كان عليـه العدو من القـوة بسوابـغ الحديد والعدّة الكاملة، والخيل المسومة، والخيلاء الـزائدة، ولـذلك قـال الله ممتنـاً على عباده بهـذا النصر : ﴿ وَلَقَـدْ نَصَرَكُمْ اللهُ بِبَـدْرٍ وأَنْتُم أَذِلَّةٌ ﴾[1] أي قليـل عـددكم لتعلمـوا أن النصـر إنمـا هـو من عنـد الله فهي أعـظم غــزوات الاسلام إذ بها كان ظهوره ، وبعد وقوعهـا أشرق على الآفـاق نوره ، فقـد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعـداء الألدّاء لـلإسلام ، ودخـل الرعب في قلوب العـرب الآخـرين ، فكـانت للمسلمين هيبـة بهـا يكسـرون الجيـوش ، ويهـزمون الـرجال ، فـلا جَرَمَ أن شكـرنـا العليَّ الأعلى على هـذه العنـايـة ، واتخذنا يوم النصر في بدر وهو السابع عشـر من شهر رمضـان عيداً نتـذكر فيـه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين .

غزوة بني قينقاع[2]

هـذا ، وإذا كان للشخص عـدوّان فـانتصـر على أحـدهمـا حَـرَّك ذلـك شجـو[3] الآخر ، وهـاج فؤاده ، فتبدو بغضـاؤه غير مكتـرث بعاقبـة عِـدائـه ، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفـر في بدر ، فـإنهم نبذوا مـا عـاهدوا المسلمين عليـه ، وأظهروا مكنـون ضمائـرهم ، فبـدت البغضـاء من أفواههم ، وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الأنصـار ، وهذا مـا يدعـو المسلمين للتحرّز منهم وعدم ائتمانهم في المستقبل إذا شبَّت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم فأنزل الله في سورة الأنفـال : ﴿ وَإِمَّا تَخَـافَنَّ مِنْ قَومٍ خِيـانَةً فَـانْبِذْ[4]

---

(1) سورة آل عمران الآية: ١٢٣.

(2) بنو قينقاع : بطن من يهود المدينة.

(3) أي أوقعه في الحزن.

(4) أي فاطرح لهم العهد على طريق مستو.

إلَيْهِمْ عَلى سَوَاءٍ إنَّ الله لا يُحِبُّ الخَائِنِيْنَ ﴾(١) فدعا عليه الصلاة والسلام رؤساءهم وحذّرهم عاقبة البغي ونكث العهد ، فقالوا : يا محمد لا يغرنّك ما لقيت من قومك فإنهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتَعلَمن أنَّا نحن الناس ، وكانوا أشجع يهود فأنزل الله في سورة آل عمران : ﴿ قُلْ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُون وَتُحْشَرُون إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيةٌ في فِئَتَيْنِ التَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ في سَبِيْلِ الله وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرونَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ والله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ في ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴾(٢) وعند ذلك تبرأ من حلفهم عباد بن الصامت أحد رؤساء الخزرج وتشبَّث بالحلف عبد الله بن أُبيّ ، وقال : إني رجل أخشى الدوائر ، فأنزل الله تعليماً للمسلمين في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ والنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتولَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إنَّ الله لا يَهْدِي القَومَ الظَّالِمينَ . فَتَرى الذِينَ في قُلوبِهم مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيْهِم يَقولُون نَخشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى الله أَنْ يَأْتِي بالفَتْحِ أَو أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا في أَنْفُسِهِمْ نَادِمِيْنَ ﴾(٣) . وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة وتحصنوا بحصونهم ، سار اليهم عليه الصلاة والسلام في نصف شوال من هذه السنة يحمل لواءه عمه حمزة ، وخلف على المدينة أبا لبابة الأنصاري(٤) ، فحاصرهم خمس عشرة ليلة .

جلاء بني قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله أن يخلي سبيلهم ، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرّية ، وللمسلمين الأموال فقَبِل ذلك عليه الصلاة والسلام ، ووكَّل

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٢ ـ ١٣ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٥١ ـ ٥٢ .

(٤) هو بشير بن عبد المنذر ، أحد النقباء .

بجـلائهم عبـادة بن الصـامت (١) وأمهلهم ثـلاث ليـالٍ ، فـذهبـوا إلى أذْرِعـات(٢) ، ولم يحـل عليهم الحَـوْل حتى هلكـوا ، وخمَّس عليه الصـلاة والسلام أموالهم ، وأعـطى سهم ذوي القربى لبني هـاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبـد شمس ونوفـل ، ولما سُئِلَ عن ذلك قـال : إنما بنـو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام هكذا وشبَّك بين أصابعه .

غزوة السويق

كـان أبو سفيـان متهيجـاً لأنـه لم يشهـد بـدراً التي قتـل فيهـا ابنـه وذوو قـرباه ، فحلف ألاَّ يمسّ رأسـه الماء حتى يغـزو محمداً ، وليبـرّ بقسمه خـرج بمائتين من أصحابه يريد المدينـة ، ولـما قـاربها أراد أن يقـابل اليهـود من بني النضيـر ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين ، فـأتى سيدهم حُيَي بن أخـطب فلم يرضَ مقـابلته ، فـأتى سَلّام بن مِشْكم فـأذن له واجتمـع به ، ثم خـرج من عنده ، وأرسـل رجـالاً من قـريش إلى المـدينـة فحـرَّقـوا في بعض نخلها ، ووجدوا أنصارياً فقتلوه ، ولما علم بذلـك رسول الله خـرج في أثرهم في مـائتين من أصحـابـه لخمس خَلَون من ذي الحجـة بعـد أن ولّى على المدينة بَشِير بن عبد المنـذر ، ولكن لم يلحقهم لأنهم هربـوا وجعلوا يخفّفون ما يحملونه ليكونوا أقدر على الإسـراع ، فألقوا مـا معهم من جُرُبِ السَّـويق(٣) فأخذه المسلمون ، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السَّويق .

صلاة العيـــد

وفي هذا العام سنّ الله للعالم الإسـلامي سنّة عظيمـة ، بها يتمكن أبنـاء البلد الـواحد من المسلمين أن يجـدّدوا عهـود الإخـاء ، ويقـووا عُـروة الـدين

---

(١) ابن قيس الأنصاري ، كان أحد النقباء .

(٢) أذرعات : بلد بالشام . المؤلف .

(٣) وهو قمح أو شعير يُقلى ثم يطحن .

الـوثقى ، وهي الإجـتماع في يـومي عيد الفـطر وعيـد الأضحى . وكـان عليـه الصـلاة والسـلام يجمـع المسلمين في صعيـد واحــد ، ويصلي بهم ركعتين تضـرعـاً إلى الله أن لا يَفْصِم عـروتهم ، وأن ينصـرهم على عـدوهم ، ثم يخطبهم حاضّـاً لهم على الإئتلاف ، ومـذكراً لهم مـا يجب عليهم لأنفسهم ، ثم يصـافح المسلمـون بعضهم بعضاً ، وبعـد ذلك يخـرجون لأداء الصـدقات للفقراء والمساكين[1]حتى يكون السرور عـامّاً لجميـع المسلمين ، فبعد الفـطر زكاته ، وبعد الأضحى تضحيته ، نسـأله تعـالى أن يؤلّف بين قلوبنا ، ويـوفّقنا لأعمال سلفنا .

زواج علي بفاطمة عليهما السلام

وفي هـذه السنة تـزوج علي بن أبي طالب وعمـره إحدى وعشـرون سنة بفاطمة بنت رسـول الله ، وسنّها خمس عشـرة سنة ، وكـان منها عقب رسـول الله بنــوه : الحسن والحسين وزينب[2] وفيهـا دخــل عليـه الصــلاة والسـلام بعائشة بنت أبي بكر وسنّها اذ ذاك تسع سنوات .

(١) السنَّة أداء الصدقة (صدقة الفطر) قبل صلاة العيد.
(٢) وأم كلثوم.



السنة الثالثة

يـا لله ! يُقضى على الشقي بالشقـاوة حتى لا يسمع ولا يبصـر ، فيتخـذ الغـدر رداءً ، والخيانـة شعاراً ، فـلا ينجح معـه إلا إراحـة العـالم من شـرّه ، هـذا كعب بن الأشرف اليهـودي عظيم بني النضيـر ، أعمته عـداوة المسلمين حتى خلعَ بُـرْقُـع الحيـاء ، وصـار يحـرِّض قـريشـاً على حـرب رسـول الله ، ويهجوه بالشعر ، ويجتهد في إثارة الشحناء بين المسلمين ، فكلمـا جبر عليـه الصلاة والسلام كسراً هاضه(١) هذا الشقيُّ بما ينفثه من سموم لسانه .

قتل كعب بن الأشرف(٢)

ولمـا انتصر المسلمـون ببدر ، ورأى الأسـرى مقرَّنينَ في الحبـال خرج إلى قـريش يبكي قتـلاهم ويحـرِّضهم على حـرب المسلمين ، فقـال عليـه الصـلاة والسلام : من لكعب بن الأشـرف(٣) ، فـإنـه قـد آذى الله ورسـولـه ؟ فقال محمد بن مسلمة(٤) الأنصاري الأوسي : أتحِبُّ أن أقتله ؟ قـال : نعم ،

---

(١) أي أعاد كسره .

(٢) هي سرية محمد بن مسلمة .

(٣) أي من ينتدب لقتله .

(٤) أبو عبد الرحمن ، كان من فضلاء الصحابة ، وهو ممّن سمي محمداً في الجاهلية .

قال : أنا لك به ، وأْذن لي أقول شيئاً أتمكن به ، فأذن له ، ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً فقال له : إن هذا الرجل (يريد رسول الله) قد سألنا صدقة وإنه قد عنّانا[١] وإني قد أتيتك أستسلفك[٢] ، قال : وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّه[٣] ، قال : إنَّا قد اتَّبعناه ، فلا نحبُّ أن ندعه حتى ننظر إلى أيِّ شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تُسْلِفنا وسْقاً أو وسقين[٤] . قال : نعم ولكن ارْهَنُوني . قالوا : أي شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نَرْهَنُك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قال : فارهنوني أبناءكم . قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فَيُسَبُّ أحدهم ، فيقال : رُهن بوسق أو وسقين ، هذا عار علينا ، ولكن نرهنك اللأمة (يعني السلاح) فرضي ، فواعده ليلاً أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائله[٥] أخو كعب من الرضاع وعبَّاد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبو عبس بن جَبْرٍ (وكلهم أوسيّون) فناداه محمد بن مسلمة فأراد أن ينزلَ فقالت له امرأته : أين تخرج الساعة ! وإنك امرؤ مُحارب ؟ فقال : إنما هو ابن أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب . ثم قال محمد لمن معه : إذا جاءني فإني آخذ بشعره فأَشمُّهُ ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فاضربوه ، فنزل إليهم كعب متوشِّحاً سيفه ، وهو يَنْفَحُ منه ريح المسك ، فقال محمد : ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب ، أتأذن لي أن أشمَّ رأسك ؟ قال : نعم فشمَّه ، فلما استمكن منه قال : دونكم فاقتلوه ففعلوا[٦] ، وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم ثم أتوا النبي فأخبروه ، وكان قتل هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى من رئيس غدراً ومقاصد سوء ومحبة لإثارة الحرب أرسل له

---

(١) أتعبنا.

(٢) أستسلفك : استقرضك.

(٣) لتضجرنَّ منه.

(٤) الوسق : ستون صاعاً.

(٥) اسمه سلكان بن سلامة، وهو مشهور بكنيته.

(٦) رواه مسلم في الجهاد والسير، رقم: ١٨٠١.

من يُريحه من شرّه . وقد فعل كذلك مع أبي عَفَك اليهودي وكان مثل كعب في الشر .

غزوة غطفان(1)

بلغ رسول الله أن بني ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمه دُعْثُور يريدون الغارة على المدينة ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يَغُلَّ أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الإعتداء ، فخرج إليهم من المدينة في أربعمائه وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، وخلف على المدينة عثمان بن عفان . ولما سمعوا بسير رسول الله هربوا إلى رؤوس الجبال ، ولم يَزَل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يسمى ذا أَمَرَّ ، فعسكروا به ، وحدث أنه عليه الصلاة والسلام نزع ثوبه يجففه من مطر بلّله وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون ، فأبصره دُعثور فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه وقال : مَنْ يمنعك مني يا محمد ؟ فقال : الله . فأدركت الرجل هيبةٌ ورعبٌ أسقطا السيف من يده ، فتناوله عليه الصلاة والسلام وقال لدعثور : من يمنعك مني ؟ قال لا أحد . فعفا عنه فأسلم الرجل ودعا قومه للإسلام ، وحوّل الله قلبه من عداوة رسول الله ، وجَمْع الناس لحربه إلى محبته وجمع الناس له : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤتِيهِ مَنْ يَشاءُ ﴾(2) وهذا ما ينتجه حسن المعاملة ، والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَو كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فاعْفُ عَنْهُم واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ ﴾(3) .

---

(1) وتسمى أيضاً غزوة ذي أمرّ.
(2) سورة المائدة الآية: ٥٤.
(3) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

غزوة بحران[1]

بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بني سُليم يريدون الغارة على المدينة ، فسار إليهم في ثلاثمائة من أصحابه لستٍ خَلَون من جمادى الأولى ، وخلَّف على المدينة ابن أم مكتوم ولما وصل بُحران[2] تفرقوا ولم يلق كيداً فرجع .

سرية[3]

لما تيقنت قريش أن طريق الشام من جهة المدينة أُغلق في وجه تجارتهم ، ولا يمكنهم الصبر عنها لأن بها حياتهم ، أرسلوا عِيراً إلى الشام من طريق العزاق ، وكان فيها جمع من قريش منهم أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ، فجاءت أخبارهم لرسول الله فأرسل لهم زيد بن حارثة في مائة راكب يترقبونهم ، وكان ذلك في جمادى الآخرة فسارت السرية حتى لقيت العِير على ماء اسمه (القَرْدَة) بناحية نجد فأخذت العِير وما فيها وهرب الرجال ، وقد خمَّس الرسول عليه الصلاة والسلام هذه حينما وصلت له .

غزوة أُحُد[4]

ولما أصابَ قريشاً ما أصابها ببدر ، وأُغْلِقت في وجوههم طرق التجارة ، اجتمع منْ بقي من أشرافهم إلى أبي سفيان رئيس العِير التي جلبت عليهم المصائب ، وكانت موقوفة بدار الندوة ، ولم تكن سُلِّمت

---

(١) وتسمى غزوة بني سُليم.

(٢) موضع بناحية الفُرُع ، وهذا موضع من أضخم أعراض المدينة. المؤلف. وبحران: بضم الباء وفتحها ، والضم أشهر.

(٣) وتسمى سرية زيد بن حارثة الى القردة.

(٤) وهو جبل مشهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها ، يقال له: ذو عينين، وهو الذي قال فيه =

لأصحابها بعد ، فقالوا : إن محمداً قد وَتَرنا(١) ، وقتل خِيارنا ، وإنّا رضينا أن نترك ربح أموالنا فيها استعداداً لحرب محمد وأصحابه ، وقد رضي بذلك كلُّ مَنْ له فيها نصيب ، وكان ربحها نحواً من خمسين ألف دينار ، فجمعوا لذلك الرجال ، فاجتمع من قريش ثلاثة آلاف رجل ومعهم الأحابيش (وهم حلفاؤهم من بني المصْطَلِق وبني الهون بن خزيمة) ومعهم أبو عامر الراهب الأوسي ، وكان قد فارق المدينة كراهية لرسول الله ﷺ ومعه عدد ممّن هم على شاكلته ، وخرج معهم جماعات من أعراب كِنانة وتِهامة ، وقال صفوان بن أمية لأبي عزّة الشاعر - الذي لا ينسى القارىء أن الرسول مَنَّ عليه ببدر وأطلقه من غير فداء - : إنك رجل شاعر فأعِنّا بلسانك ، فقال : إني عاهدت محمداً ألاَّ أعِين عليه ، وأخاف إن وقعتُ في يده مرة ثانية ألاَّ أنجو ، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه ، وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين ، ودعا جُبير بن مُطعم غلاماً حبشياً له ، اسمه وَحشي ، وكان رامياً قلّما يُخطىء . فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة بعمِّي طُعَيْمة فأنت حر . ثم خرج الجيش ، ومعهم القِيانُ والدفوف والمعازف والخمور ، واصطحب الأشرافُ منهم نساءهم كيلا ينهزموا ، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحُليفة .

أما رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمه العباس بن عبد المطلب الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب محتجّاً بما أصابه يوم بدر. ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين، جمع عليه الصلاة والسلام أصحابه وأخبرهم الخبر. وقال: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن هم أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم ، فكان مع رأيه شيوخ المهاجرين والأنصار ، ورأى ذلك أيضاً عبد الله بن أُبيّ ، أما الأحداث وخصوصاً مَنْ لم يشهد بدراً منهم فأشاروا

= عليه الصلاة والسلام: أُحُد جبل يحبنا ونحبه. وكانت عنده الوقعة المشهورة في شوال سنة ثلاث بالإتفاق وسمي بذلك: لتوحده وانفراده عن جبال أُخر هناك.

(١) الموتور: الذي قتل له قتيل فلم يدرك دمه.

عليه بالخروج ، وكان مع رأيهم حمزة بن عبد المطلب ، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم ، لأنهم الأكثرون عدداً والأقوون جلداً ، فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشر خَلَون من شوال ، وحضّهم في خطبتها على الثبات والصبر وقال لهم : « لكم النصر ما صبرتم » ثم دخل حجرته ولبس عدّته فظاهر بين درعين[1] ، وتقلد السيف ، وألقى الترس وراء ظهره . ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول على الخروج لاموهم ، وقالوا : ردّوا الأمر لرسول الله ، فما أمر ائتمرنا ، فلما خرج عليه الصلاة والسلام ، قالوا : يا رسول الله نَتَّبعُ رأيك ، فقال : ما كان لنبي لَبِسَ سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير ، ولواء الخزرج للحُباب بن المنذر ، ولواء الأوس لأُسيد بن الحضير ، وخرج من المدينة بألف رجل . فلما وصلوا رأس الثنية نظر عليه الصلاة والسلام الى كتيبة كبيرة ، فسأل عنها . فقيل : هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبيّ من اليهود ، فقال : إنّا لا نستعين بكافر على مشرك ، وأمر بردّهم لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطُولى في الخيانة . ثم استعرض الجيش فردّ من استصغر[2] ، وكان فيمن ردّ : رافع بن خديج ، وسَمُرَة بن جُندب ثم أجاز رافعاً لما قيل له انه رامٍ ، فبكى سَمُرة ، وقال لزوج أمه : جاز رسول الله رافعاً وردّني مع أني أصرعه ، فبلغ رسول الله الخبر ، فأمرهما بالمصارعة فكان الغالبُ سمرة فأجازه . ثم بات عليه الصلاة والسلام محله ليلة السبت ، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة ، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن عبد قيس . وفي السحر سار الجيش حتى إذا كان بالشوط (وهو بستان بين أُحُد والمدينة) رجع عبد الله بن أُبيّ بثلاثمائة من أصحابه وقال : عصاني وأطاع الوِلْدان فعلامَ نقتل أنفسنا ؟ فتبعهم عبد الله بن عمرو والد جابر ، وقال يا

---

(١) أي لبس درعاً فوق درع ، وهما ذات الفضول، وذات الفضول أرسلها له سعد بن عبادة رضي الله عنه حين سار إلى بدر، المؤلف.

(٢) ومنهم : أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب.

قوم : أُذكِّركُمْ الله ألا تخذلوا قومكم ونبيّكم : ﴿ قَالُوا لَو نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾[1] فقال لهم : أبْعَدَكُم الله فسيغني الله عنكم نبيّه . ولما فعل ذلك عبد الله بن أُبيّ ، همَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا : بنو حارثة من الخزرج ، وبنو سَلِمة من الأوس ، فعصمهما الله وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين ، فقوم يقولون : نقاتلهم ، وقوم يقولون : نتركهم ، فأنزل الله في سورة النساء : ﴿ فَمَا لَكُم في المنافِقِيْنَ فِئَتَيْنِ والله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أتُرِيْدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ الله وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَلَنْ تَجِدَ له سَبِيْلاً ﴾[2] . ثم سار الجيش حتى نزل الشعب من أُحُد[3] ، وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة ، أما المشركون فنزلوا ببطن الوادي من قبل أحد ، وكان على ميمنتهم[4] خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل . وعلى المشاة صفوان بن أمية ، فجعل عليه الصلاة والسلام الزبير بن العوّام بإزاء خالد وجعل آخرين أمام الباقين ، واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل وقال : لا تبرحوا : إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا[5] ثم عدّل عليه الصلاة والسلام الصفوف ، وخطب المسلمين ، وكان فيما قال : (ألقى في قلبي الروحُ الأمين أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي أقصى رزقها ، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا ربَّكم وأجملوا في طلب الرزق ، لا يحملنَّكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده)[6] ، ثم ابتدأ القتال بالمبارزة ، فخرجَ رجل من صفوف المشركين فبرزَ له الزبير فقتله ، ثم حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة فقتله عليّ ،

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٧ .

(٢) سورة النساء الآية : ٨٨ .

(٣) جبل شمالي المدينة الشرقي . المؤلف .

(٤) أي ميمنة خيل المشركين .

(٥) رواه البخاري بلفظ آخر في كتاب المغازي ، رقم : ٤٠٤٣ .

(٦) هذه الخطبة أوردها صاحب السيرة الحلبية ٢ / ٢٢٢ .

فحمل اللواء أخوه عثمان فقتله حمزة ، فحمله أخٌ لهما اسمه أبو سعيد فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم قضى عليه ، فتناوب اللواء بعده أربعةٌ من أولاد طلحة بن أبي طلحة[1] وكلهم يُقْتلون ، وخرج من صفوف المشركين عبد الرحمن بن أبي بكر[2] يطلب البِراز فأراد أبوه أن يبرز له ، فقال عليه الصلاة والسلام : مَتِّعنا بنفسك يا أبا بكر ، ثم حملتْ خيَّالة المشركين على المسلمين ثلاث مراتٍ وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون.
ولما التقت الصفوف ، وحميت الحرب ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف ، وينشدن الأشعار تهييجاً لعواطف الرجال ، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء يقول : « اللهم بك أحُول[3] وبك أصول وفيك أقاتل ، حسبي الله ونعم الوكيل » . وفي هذه المعمعة قُتل حمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله سيد الشهداء ،غافله وحشيٌ[4] وهو يجول في الصفوف وضربه بحربة لم تخطىء ثنايا بطنه[5] .

هذا ، ولما قُتل حَمَلة اللواء من المشركين ، ولم يقدر أحدٌ على الدنو منه ولَّوا الأدبار ونساؤهم يبكين ويُولولن ، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب ، فلما رأى ذلك الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل ، قالوا : ما لنا في الوقوف من حاجة ، ونسوا أمر السيد الحكيم ﷺ ، فذكّرهم رئيسهم به فلم يلتفتوا وانطلقوا ينتهبون . أما رئيسُهم فثبت وثبت معه قليل منهم ، فلما رأى خالدُ بن الوليد أحدُ رؤساء المشركين خُلُوَّ الجبل من الرماة انطلق ببعض الجيش ، فقتل من ثبت من الرماة ، وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم ، فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم ، وانتقضت صفوفهم ، واختلطوا من غير شعار[6] ، حتى

---

(١) وهم : مسافع والحرث وكلاب والجلاس .
(٢) كان من أشجع قريش وأرماهم بسهم ، وكان شاعراً ، مات في مكة سنة ٥٣ هـ .
(٣) أحول : بالحاء المهملة ، أي : أمنع .
(٤) روى البخاري في المغازي حديث قتل وحشي حمزة رضي الله عنه ، رقم : ٤٠٧٢ .
(٥) والثنية موضع تحت السرة وفوق العانة كذا في السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٢٦ .
(٦) هي ما يعرف اليوم بكلمة السر .

صـار يضرب بعضُهم بعضاً ، ورفعت إحدى نساء المشركين[1] اللواء فاجتمعوا حوله ، وكان من المشركين رجل يقال له ابن قمئة قتل مُصعب بن عمير صاحب اللواء ، وأشاع أن محمداً قد قتل ، فدخل الفشلُ في المسلمين حتى قال بعضهم : علامَ نقاتل إذا كان محمد قد قتل ؟ فارجعوا إلى قومكم يؤمِّنكم ، وقال جماعة : إذا كان محمد قد قُتل فقاتلوا عن دينكم ، وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعةٌ من المسلمين من بينهم الوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن المعلى ، وعثمان بن عفان ، وتوجهوا إلى المدينة ، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها فرجعوا بعد ثلاث ، وثبتَ رسول الله ﷺ ومعه جماعة منهم : أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بحَجَفَته[2] ، وكان رامياً شديد الرمي . فنثر كنانته بين يدي رسول الله ، وصار يقول : نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقَاء ، وكل من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه الصلاة والسلام : « انثرها لأبي طلحة » ، وكان ينظر إلى القوم ليرى مواضع النبل ، فيقول له أبو طلحة : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم ! نحري دون نحرك .

وممّن ثبتَ سعد بن أبي وقاص ، فكان عليه الصلاة والسلام يقول له : « ارمِ سعد ! فداك أبي وأمي » . ومنهم سهل بن حُنَيف وكان من مشاهير الرماة نضح عن رسول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس . ومنهم أبو دُجانة سِمَاكُ بن خَرَشَة الأنصاري تترس على رسول الله ، فصار النبلُ يقع على ظهره وهو منحنٍ حتى كثر فيه . (وكان) يقاتل عن الرسول زياد بن السكن[3] حتى أصابت الجراحُ مقاتله ، فأمر به فأُدني منه ووسده قدمه حتى مات . وقد أصابه عليه الصلاة والسلام شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات ، فقد أقبل أُبيّ بن خلف يريد قتله ، فأخذ عليه الصلاة والسلام

(١) هي عمرة بنت علقمة.

(٢) الترس من الجلد.

(٣) في الأصل : زيادة بن الحارث وهو خطأ.

الحربة ممّن كانوا معه ، وقال : خلّوا طريقه ، فلمّا قَرُب منه ضربه ضربةً كانت سبب هلاكه وهو راجع ، ولم يقتل رسول الله غيره لا في هذه الغزوة ولا في غيرها[1] . (وكان) أبو عامر الراهب قد حفر حُفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون ، فوقَعَ الرسول في حفرة منها ، فأُغمي عليه ، وخُدشت ركبتاه ، فأخذ عليّ بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله ـ وهما ممّن ثبت ـ حتى استوى قائماً ، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله ، وشَجَّ وجهه عليه الصلاة والسلام عبد الله بن شهاب الزهري ، وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتي المغفر[2] فيهما من ضربة ضربه بها ابن قمئة غضب الله عليه ، فجاء أبو عبيدة وعالج الحلقتين حتى نزعهما ، فكُسرت في ذلك ثنيتاه ، وقال حينئذ عليه الصلاة والسلام : كيف يفلح قوم خضَّبوا وجه نبيّهم ؟ فأنزل الله في سورة آل عمران : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمرِ شَيءٌ أو يَتُوبَ عليهِمْ أو يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُم ظَالِمونَ ﴾[3] وكان أولَ من عرف رسول الله بعد هذه الدهشة كعبُ بن مالك الأنصاري فنادى : يا معشر المسلمين أبشروا ، فأشار إليه الرسول أن اصمتْ . ثم سار بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عبادة يريد الشِعب ومعه جمع منهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمّة ، وأقبل عليه إذ ذاك عثمان بن عبد الله بن المغيرة يقول : أين محمد لا نجوتُ إن نجا ، فعثر به فرسه ، ووقع في حفرة فمشى إليه الحارثُ بن الصمّة وقتله . ولما وصل الشِّعْبَ جاءت فاطمةُ فغسلت عنه الدم ، وكان علي يسكب الماء ، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها ووضعتها على الجرح فاستمسك الدم . ثم أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب فلم يمكنه القيام لكثرة ما نزل من دمه ، فحمله طلحةُ بن عبيد الله حتى أصعده ، فنظر إلى

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه، رقم ١٧٩٣ قال رسول الله ﷺ : «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله عزّ وجلّ» .

(٢) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس.

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٢٨ .

جماعة من المشركين على ظهر الجبل فقال : لا ينبغي لهم أن يعلونا ، اللهمّ لا قوة لنا إلا بك ، ثم أرسل اليهم عمر بن الخطاب في جماعة فأنزلوهم . (وقد) أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسول الله كثير من الجراحات لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول ، فوجد بطلحة نيفٌ وسبعون جراحة ، وشلَّتْ يده ، وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة . أما القتلى فكانوا نيفاً وسبعين منهم : ستة من المهاجرين[1] ، والباقون من الأنصار . (ومن) المهاجرين : حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، ومن الأنصار حنظلة بن أبي عامر ، وعمرو بن الجموح ، وابنه خلَّاد بن عمرو وأخو زوجه والد جابر بن عبد الله ، فأتت زوج عمرو هند بنت عمرو بن حرام وحملتهم : زوجها وابنها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن الدفن خارج أحد فرجعوا . وقتل سعد بن الربيع ، وأرسل عليه الصلاة والسلام من يأتيه بخبره فوجده بين القتلى وبه رمق ، فقيل له : إن رسول الله يسأل عنك ، فقال لمُبلِغه : قُل لقومي : يقولُ لكم سعدُ بن الربيع الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة ، فوالله ما لكم عندي عذر ، وقتل أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك ، فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال : يا قومِ ما تصنعون بالبقاء بعده ؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم ، فلم يزل يقاتل حتى قُتل رضي الله عنه .

ومَثَّلت قريش بقتلى أُحُد حتى إن هنداً زوج أبي سفيان بقرت بطن حمزة ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلاكتها ثم أرسلتها ، وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء . ثم إن أبا سفيان صعد الجبل ونادى بأعلى صوته[2]

---

(١) قَتل من المهاجرين أربعة هم: حمزة، وعبد الله بن جحش، ومصعب بن عمير، وشماس بن عثمان.

وفي السيرة الحلبية قال الحافظ ابن حجر: لعل الخامس سعد مولى حاطب بن أبي بلتعة والسادس ثقيف بن عمر وحليف بني عبد شمس.

(٢) «قال أبو سفيان: أعل هبل، فقال النبي ﷺ أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى=

أنعمت[1] فعالِ ، إن الحرب سِجال يوم بيوم بدر ، وموعدكم بدر العام المقبل ، ثم قال : إنكم ستجدون في قتلاكم مُثلة لم آمر بها ولم تَسُؤني . ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة ، ولم يعرجوا على المدينة ، وهذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا في ذلك اليوم ، وإلا لم يكن بدٌّ من تعقب المشركين لهم حتى يُغِيروا على مدينتهم . ثم تفقَّد عليه الصلاة والسلام القتلى وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً ، ودفن الشهداء كلهم بأُحُد كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه ، وكانوا يدفنون الرجلين والثلاثة في لحد واحد لما كان عليه المسلمون من التعب ، فكان يشقّ عليهم أن يحفروالكل شهيد حفرة . ولما رجع المسلمون إلى المدينة سخر منهم اليهود والمنافقون ، وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء ، وقالوا لإخوانهم : ﴿ لَو كَانُوا عِنْدنا مَا مَاتُوا وَما قُتِلُوا ﴾[2] .

وهذا الذي ابتلي به المسلمون درس مهم لهم ، يذكِّرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأُصيبوا ، أولهما : طاعة الرسول في أمره ، فقد قال للرماة لا تبرحوا مكانكم إن نحن نُصِرنا أو قُهرنا فعصوا أمره ونزلوا . الثاني : أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة ، وهؤلاء أرادوا عَرض الدنيا ، والتهوا بالغنائم حتى عُوقبوا ، وفي ذلك أنزل الله في سورة آل عمران التي فَصَّلْت غزوة أُحد : ﴿ وَلَقَد صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَراكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَمِنْكُم مَنْ يُرِيْدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيكُمْ وَلَقَدْ عفا عَنْكُمْ والله ذُو فَضْلٍ عَلى المُؤْمِنِينَ ﴾[3] فسبَّب هذا الابتلاء : التنازع فينبغي الاتفاق ، والفشل فينبغي الثبات ، والعصيان فينبغي طاعة الرئيس . نسأل الله التوفيق .

= وأجلّ . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال : النبي ﷺ : أجيبوه . قالوا : ما نقول؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . . . » .

أي الحرب . (فتح الباري) .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٢ .

غزوة حمراء الأسد[1]

لما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أصبح حَذِراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليتمموا انتصارهم ، فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو ، وألاَّ يخرج إلا من كان معه بالأمس[٢] ، ، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، فضمَّدوا جراحاتهم وخرجوا واللواء معقود لم يُحَلَّ ، فأعطاه علي بن أبي طالب ، وولى على المدينة ابن أم مكتوم ، ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراء الأسد[١] وقد كان ما ظنه الرسول حقاً ، فإن المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر ، فأصرّوا على الرجوع ، ولكن لما بلغهم خروج الرسول في أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه مَنْ لم يحضر بالأمس ، وألقى الله الرعب في قلوبهم ، فتمادوا في سيرهم إلى مكة ، وظفر عليه الصلاة والسلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر الذي مَنَّ عليه ببدر بعد أن تعهد ألاَّ يكون على المسلمين فأمر بقتله ، فقال : يا محمد أقلْني ، وامنُن عليّ ، ودعني لبناتي ، وأعطيك عهداً ألاَّ أعود لمثل ما فعلت ، فقال عليه الصلاة والسلام : (لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول : خدعتُ محمداً مرتين ، لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جحرٍ مرتين)[٣] ، إضرب عنقه يا زيد[٤] فضرب عنقه ، وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف ، فإن الرجل الذي لا يحترز مما أُصيب منه ليس بعاقل فلا بدّ من الحزم لإقامة دعائم المُلْك .

حوادث

وفي هذه السنة زوَّج عليه الصلاة والسلام بنته أُم كلثوم لعثمان بن

---

(١) ليكون بذلك مرهِّباً للعدو.

(٢) موضع على ثمانية أميال من المدينة بطريق مكة . المؤلف .

(٣) رواه البخاري في الأدب، رقم : ٦١٣٣ .

(٤) قال ابن هشام : بلغني أنه قال : اضرب ثابت.

عفان بعد أن ماتت رقية عنده ، ولذلك كان يُسَمَّى ذا النورين . وفيها تزوَّج عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأُمها أخت عثمان بن مظعون ، وكانت قبله تحت خُنيس بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر(١) ، وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام زينبَ بنت خزيمة الهلالية من بني هلال بن عامر ، وكانت تدعى في الجاهلية أُم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم ، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش ، فقُتل عنها بأُحُد وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها ، وفيها ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما .

وفيها حُرمت الخمر ، وكان تحريمها بالتدريج لما عليه العرب من المحبة الشديدة لها ، فيصعب إذاً تحريمها دفعة واحدة ، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تُنَفِّر عنها ، لأن المنكر إذا أُسند تحريمه لحادثة أقرّ الجميع على تقبيحها ، كان ذلك أشدّ تأثيراً في النفس . فأولُ ما بُيِّن فيها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَسْأَلُونكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسَرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كبيرٌ وَمَنافِعُ للنَّاسِ ﴾(٢) فمنفعة الميسر التصدّق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب ، ومنفعة الخمر تقوية الجسم(٣) ، ولما شربها بعض المسلمين وخلَّط في القراءة حُرِّمت الصلاة على السكران ، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولونَ ﴾(٤) ، ولما حدث من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم حُرِّمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّها الذِيْنَ آمَنُوا إِنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنصَابُ(٥) والأَزْلامُ(٦) رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنّما

(١) وقيل بأُحد، والأول أشهر.

(٢) سورة البقرة الآية : ٢١٩ .

(٣) ليس للخمر أن يقوّي الجسم، بل يُضعفه بإجماع الأطباء مؤمنهم وكافرهم.

(٤) سورة النساء الآية : ٤٣ .

(٥) هي حجارة تصبّ عليها دماء الذبح وتعبد. المؤلف.

(٦) هي القداح التي كانوا يستقسمون بها، وفي قرن الخمر والميسر بالأنصاب والأزلام نهاية التنفير، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «شارب الخمر كعابد الوثن». المؤلف.

يُرِيْدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوة والبَغْضَاءَ في الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاةِ فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهونَ ﴾(١) وقد أجاب المسلمون على ذلك بقولهم : انتهينا ، فليُجِب المسلمون الآن .

(١) سورة المائدة الآية : ٩٠ ـ ٩١.



السنة الرابعة

سرية[1]

في بدء السنة الرابعة بلغ رسول الله أن طُليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين يدعوان قومهما بني أسد لحربه عليه الصلاة والسلام ، فدعا أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وعقد له لواءً وقال له : سِرْ حتى تنزل أرض بني أسد بن خزيمة فَأَغِرْ عليهم ، وأرسل معه رجالاً ، فسار في هلال المحرم حتى بلغ قَطَناً[2] فأغار عليهم ، فهربوا من منازلهم ، ووجد أبو سلمة إبلاً وشاء فأخذها ، ولم يلق حرباً ، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه .

وفي بدئها أيضاً[3] بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نُبَيح الهُذلي المقيم بعُرَنَة[4] يجمع الجموعَ لحربه ، فأرسل له عبد الله بن أُنَيْس الجهني وحده ليقتله ، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يتقول حتى يتمكن ، فأذن له ، وقال : انتسب لخزاعة ، فخرج لخمس خَلَون من المحرم ، ولما وصل إليه قال له سفيان : ممّن الرجل ؟ قال : من خُزاعة ،

---

(١) هي سرية أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد إلى قطن.
(٢) جبل لبني أسد بناحية فَيْد شرقي المدينة. المؤلف.
(٣) هي سرية عبد الله بن أنيس إلى عُرَنة.
(٤) موضع قرب عَرَفة.

سمعتُ بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك ، فقال له : أجل إني لفي الجمع له ، فمشى عبد الله معه وحدَّثه وسفيان يستحلي حديثه ، فلما انتهى إلى خبائه تفرق الناس عنه فجلس معه عبد الله حتى نام ، فقام وقتله ، ثم ارتحل حتى أتى المدينة ، ولم يلحقه الطلب وكفى الله المؤمنين القتال .

سرية[1]

وفي صَفَر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً على قريش مع رهط عَضَل والقَارَة[2] الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يطلبون من يفقّههم في الدين ، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ، فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرَّجيع[3] غدر بهم أولئك الرهط ، ودلُّوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان قتله عبد الله بن أنيس ، فنفروا إليهم فيما يقرب من مائتي رامٍ[4] ، واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم ، فلما أحسَّ بهم رجال السرية لجؤوا إلى جبل هناك ، فقال لهم الأعداء انزلوا ولكم العهد ألاَّ نقتلكم ، فنزل اليهم ثلاثة اغْترّوا بعهدهم ، وقاتلهم الباقون ، ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك . ولما رأى الثلاثة الذين سلَّموا عينَ الغدر امتنع أحدهم[5] فقتلوه ، وأما الإثنان[6] فباعوهما بمكة ممّن كان له ثأر عند المسلمين وهناك قُتِلا . وقد قال أحدهما وهو خُبيب بن عدي حين أرادوا قتله :

---

(١) هي سرية عاصم بن ثابت إلى الرجيع .

(٢) ذكر البخاري في صحيحه، رقم: ٤٠٨٦، أن النبي ﷺ بعث سرية عيناً، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت، يتجسسون على قريش، ولم يذكر إرسالهم مع رهط عضل والقارة كما ذكر المؤلف .

(٣) ماء لبني هذيل بين مكة وعُسْفان . المؤلف .

(٤) وفي البخاري ، رقم: ٤٠٨٦ ، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ .

(٥) وفي رواية البخاري : فأبى أن يصحبهم فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه .

(٦) وهما : خُبيب بن عدي ، وزيد بن الدثنة .

ولستُ أبالي حين أقتلُ مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإلَه وإن يشأ يُبارك على أوْصَالِ شلوٍ مُمَزَّعِ

سـريـة[1]

وفي صَفَر وفد على رسول الله أبو براء عامر بن مالك مُلاعِبُ الأسنة[2]، وهو من رؤوس بني عامر، فدعاه عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام فلم يسلم ولم يَبْعُد، بل قال: إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً ولو بعثت معي رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال عليه الصلاة والسلام: إني أخشى عليهم أهل نجد. فقال أبو براء عامر: أنا لهم جار، فأرسل معه المنذر بن عمرو في سبعين من أصحابه كانوا يُسَمَّونَ القرَّاء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، فساروا حتى نزلوا بئر معونة[3]، فبعثوا حَرَام بن مِلحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل[4] سيدِ بني عامر، فلما وصل إليه لم يلتفت إلى الكتاب بل عدا على حَرَام فقتله[5]، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بني عامر فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُليم، وهم رِعْلٌ وذَكوان وعُصية فأجابوه وذهبوا معه، حتى إذا التقوا بالقرَّاء أحاطوا بهم، وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم، بعد دفاع شديد لم يُجْدِهم نفعاً لقلّة عددهم وكثرة عدوهم، ولم ينجُ إلا كعب بن زيد وقع بين القتلى حتى ظُنَّ أنه منهم، وعمرو بن أمية كان في سَرْح القوم. وأُبلغ عليه الصلاة والسلام خبر القراء فخطب في أصحابه، وكان فيما قال: « إن إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا ربنا بلِّغ قومنا أنَّا قد لقينا

---

(١) تسمى سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة.

(٢) جمع سنان وهو نصل الرمح.

(٣) شرقي المدينة.

(٤) العامري عدو الله، مات كافراً.

(٥) استشهد يوم بئر معونة.

ربنا فرضينا عنه ورضي عنا » ، وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد ، فحزن عليهم ﷺ حزناً شديداً ، وأقام يدعو على الغادرين بهم شهراً في الصلاة .

غزوة بني النضير

يا لله ما أسوأ عاقبة الطيش ، فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر ، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر ، يظنون من ورائه النجاح ، فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم ، وهذا ما حصل ليهود بني النضير حلفاء الخزرج الذين كانوا يجاورون المدينة ، فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كلٌّ منهم الآخر ، ولكن بنو النضير لم يوفّوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً. فبينما رسول الله ﷺ وبعض من أصحابه في ديار بني النضير إذ ائتمر جماعة منهم على قتله بأن يأخذ أحد منهم صخرة ويلقيها عليه من علو ، فأُطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم فرجع وتبعه أصحابه ، ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة يقول لهم : اخرجوا من بلادي فقد هممتم بما هممتم من الغدر (اذ الحزم كل الحزم ألا يتهاون الإنسان مع مَنْ عُرف منه الغدر) فتهيأ القوم للرحيل فأرسل لهم إخوانهم المنافقون يقولون لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيْعُ فِيْكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبون . لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرجُونَ مَعهمْ وَلَئِنْ قُوتِلوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ﴾[1] ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد وتأخروا عن الجلاء ، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لقتالهم ، فلما اجتمع الناس خرج بهم واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى رايته عليّاً . أما بنو النضير فتحصَّنوا في حصونهم وظنوا أنهم مانعتهم من الله ، فحاصرهم عليه الصلاة والسلام ست ليالٍ ، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون أدعى الى

(١) سورة الحشر الآية : ١١ ـ ١٢ .

تسليمهم ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ولم يروا من عبد الله بن أُبيّ مساعدة، بل خذلهم كما خذل بني قنيقاع من قبلهم ، فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكفّ عن دمائهم وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم ، إلا آلة الحرب ففعل ، وصار اليهود يُخَرِّبون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون . ولما سار اليهود نزل بعضهم بخيبر ، ومنهم أكابرهم حُيَّي بن أخطب وسلّام بن أبي الحُقَيْق ، ومنهم من سار الى أذرعات بالشام ، وأسلم منهم اثنان : يا مين بن عمرووأبو سعد بن وهب ، ولم يخمِّس رسولُ الله ما أخذ من بني النضير ، فإنه فيءٌ لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب[1]. ومثل هذا يكون لمعدّات الحرب، وللرسول، يطعم منه أهله، ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما قال تعالى في سورة الحشر : ﴿ مَا أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَللرسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى والمساكِيْنِ وَابنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾[2] فأعطى عليه الصلاة والسلاة من هذا الفيء فقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وردّوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم ، وأخذ عليه الصلاة والسلام أرضاً يزرعها ويدَّخِر منها قُوت أهله عاماً .

غزوة ذات الرقاع[3]

وفي ربيع الآخر بلغه عليه الصلاة والسلام أن قبائل من نجد يتهيؤون لحربه ، وهم : بنو محارب وبنو ثعلبة ، فتجهَّز لهم وخرج في سبعمائة

---

(1) الفيء: كل مالٍ أخذ من الكفار من غير قتال.
(2) سورة الحشر الآية : ٧.
(3) عن أبي موسى قال: خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه، فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري، وكنا نلفّ على أرجلنا الخِرَق، فسميت غزوة ذات الرقاع.

مقاتل ، وولّى على المدينة عثمان بن عفان ، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذهنّ ، ، فبلغ الخبر رجالهم ، فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال ، ثم اجتمع جمع منهم وجاؤوا للحرب ، فتقارب الناسُ وأخافَ بعضهم بعضاً . ولما حانت صلاة العصر وخاف عليه الصلاة والسلام ان يغدر بهم الأعداء وهم يصلّون ، صلى بالمسلمين صلاة الخوف(١) ، فألقى الله الرعب في قلوب الأعداء ، وتفرقت جموعهم خائفين منهﷺ .

ومال الإمام البخاري إلى أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه(٢) .

غزوة بدر الآخرة(٣)

لما أهلّ شعبانُ هذا العام كان موعد أبي سفيان ، فإنه بعد انقضاء غزوة أُحُد قال للمسلمين : موعدنا بدر العام المقبل ، فأجابه الرسول الى ذلك ، وكان بدر محل سوق تُعقد كل عام للتجارة في شعبان يقيم التجار فيه ثمانياً ، فلما حَلَّ الأجلُ وقريش مُجدبون ، لم يتمكن ابو سفيان من الايفاء بوعده ، فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كيلا يُوسم بخلف الوعد ، فاستأجر نُعيم بن مسعود الأشجعي ، ليأتي المدينةويُرجفَبما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة ، فقدم نُعيم المدينة وقال للمسلمين : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمعُوا لَكُمْ فَاخْشَوهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَاناً وَقالوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ﴾(٤)، ولم يلتفت عليه الصلاة والسلام لهذا الارجاف اتكالاً على ربه

---

(١) روى مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب: صلاة الخوف، رقم: ٨٤٢ ـ ٨٤٣.

(٢) والذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة، وقد رويت عند البخاري عن أبي موسى الأشعري وهو إنما هاجر في السنة السابعة. هذا ويرى البيهقي أن الغزوة قبل نجد قد تكررت مرتين وعلى هذا يمكن الجمع بين ما في الصحيح وبين ما في كتب السير.

(٣) ويقال لها بدر الموعد.

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٧٣ .

بل خرج بألف وخمسمائة من أصحابه ، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ[1] ، ولم يزالوا سائرين جتى أتوا بدراً ، فلم يجدوا أحداً لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نيّة الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين ظانّاً أن إرجاف نعيم يفيد فيكون المخلف هم المسلمون ، فسار حتى أتى مَجنَّة ـ وهي سوق معروفة من ناحية مَرّ الظهران ـ فقال لقومه : إن هذا عام جدب ولا يصلحنا الا عام عشب فارجعوا ، أما المسلمون فأقاموا ببدر لا يشاركهم في تجارته أحد: ﴿فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُم سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ الله وَالله ذُو فَضْلٍ عَظِيمْ﴾[2]ولما سمع بذلك صفوان بن أمية قال لأبي سفيان: قد والله نهيتك أن تَعِدَ القوم قد اجترؤوا علينا ورأوا أنّا أخلفناهم .

حوادث

وفي هذا لعام ولد الحسين بن علي ، وفيه توفيت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين[3]،وفيه توفي أبو سَلَمة رضي الله عنه ابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاعة وأول من هاجر الى المدينة[4] ، وفيه تزوج عليه الصلاة والسلام أُمّ سلمة هنداً زوج أبي سلمة بعد وفاته .

(١)وقيل عبد الله بن رواحة.

(٢)سورة آل عمران الآية: ١٧٤.

(٣)لبثت عنده ثمانية أشهر وماتت بالمدينة سنة ٤ هـ.

(٤) في الأصل (إلى الحبشة) وهو خطأ، وقد ذكره المؤلف في فصل ـ هجرة المسلمين إلى المدينة ـ .

السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل[1]

وفي ربيع الأول من هذا العام بلغ النبيﷺ أن جمعاً من الأعراب بدومة الجندل يظلمون من مَرَّ بهم ، وأنهم يريدون الدنو من المدينة ، فتجهز لغزوتهم ، وخرج في ألفٍ من أصحابه بعد أن ولّى على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفاري ، ولم يزل يسير الليل ويكمن النهار حتى قرب منهم ، فلما بلغهم الخبر تفرقوا ، فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعاتهم ، فأصيب مَنْ أُصيبَ وهرب من هرب ، ثم نزل بساحتهم فلم يلقَ أحداً ، وبثّ السرايا فلم تجد منهم أحداً ، فرجع عليه الصلاة والسلام غانماً ، وصالح وهو عائد عيينةَ بن حصن الفَزاري ، وهو الذي كان يسمّيه عليه الصلاة والسلام الأحمق المطاع ، لأنه كان يتبعه الف قَنَاة ، وأقطعه عليه الصلاة والسلام أرضاً يرعى فيها بهمه[2] على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة لأن أرضه كانت قد أجدبت .

---

(١) مدينة بينها وبين دمشق خمس ليالٍ .

(٢) صغار غنمه .

غزوة بني المصطلق[1]

في شعبان بلغه عليه الصلاة والسلام.أن الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أُحُد يجمع الجموع لحربه ، فخرج له عليه الصلاة والسلام في جمع كثير ، وولّى على المدينة زيدَ بن حارثة ، وخرج معه من نسائه عائشة وأُم سلمة . وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قَطُّ في غزوة قبلها ، يرجون أن يصيبوا من عَرَضِ الدنيا ، وفي أثناء مسيره عليه الصلاة والسلام التقى بعين[2] بني المصطلق، فسأله عن أحوال العدو فلم يجب فأمر بقتله . ولما بلغ الحارث رئيس الجيش مجيء المسلمين لحربه ، وأنهم قتلوا جاسوسه خاف هو وجيشه خوفاً شديداً حتى تفرق عنه بعضهم ، ولما وصل المسلمون إلى المريسيع[3] تَصَافَّ الفريقان للقتال ، بعد أن عرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا ، فترامـوا بالنبل ساعة ، ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ، فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب ، بل قتلوا عشرة منهم وأسروا باقيهم مع النساء والذرية، واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفي بعير والشياه خمسة آلاف، واستعمل الرسول على ضبطها مولاه شُقران[4] ، وعلى الأسرى بُرَيدَة . وكان في نساء المشركين بَرَّة بنت الحارث سيد القوم ، وقد أُخذ من قومها مئتا بنت[5] أسرى وُزِّعَتْ على المسلمين ، وهنا يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم ؛ ، فإن بني المصطلق من أعزِّ العرب داراً فأَسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً ، فأراد عليه الصلاة والسلام ان يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم ، فتزوج برة بنت الحارث التي سماها جويرية ، فقال المسلمون :

---

(١) وذلك سنة ست هـ.

(٢) العين : الجاسوس.

(٣) ماء لخزاعة على يوم من الفرع . المؤلف.

(٤) وكان عبداً حبشياً.

(٥) وفي رواية مئتا بيت.

أصهار رسول الله لا ينبغي أسرهم في أيدينا فمنّوا عليهم بالعتق ، فكانت جويرية أيمنَ امرأةٍ على قومها كما قالت عائشة رضي الله عنها ، وتسبَّب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة ان أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم ، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم .

وقد حصل في هذه الغزوة نادرتان ، لولا أنْ صاحَبَتْهُما حكمة رسول الله ﷺ لعادتا بالتفريق على المسلمين .

(فأولاهما) أن أجيراً[1] لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج[2]، فضرب الأجيرُ الحليفَ حتى سال دمه ، فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الأجيرُ بالمهاجرين ، فأقبل الذعر[3] من الفريقين ، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فقال : (ما بال دعوى الجاهلية ؟) (وهي ما يقال في الإستغاثة يا لفلان) فأخبر الخبر ، فقال : (دَعُوا هذه الكلمة فإنها منتنة) ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة ، فلما بلغ عبد الله بن أُبيّ هذا الخصام غضبَ ، وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت كاليوم مذلّة أوقد فعلوها ؟ نافرونا[4] في ديارنا ، والله ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأَوَلُ[5]: سمِّن كلبك يأكلك ، أما والله : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المدِيْنَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزّ مِنْها الأَذَلّ ﴾[6]، ثم التفت الى مَنْ معه ، وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم اموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً

(١) هو جهجاه بن مسعود.
(٢) هو سنان بن وبر.
(٣) فأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح، حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة. وهذه العبارة أحسن من قوله. فأقبل الذعر.
(٤) أي غلبونا وكاثرونا في بلادنا.
(٥) أي الأقدمون في أمثالهم.
(٦) سورة المنافقين الآية: ٨.

للمنايا دون محمد فأيتمتم أولادكم وَقَلَلْتُم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى يَنْفَضُّوا من عنده ، وكان في مجلسه شاب حديث السن قوي الإسلام اسمه زيد بن أرقم، فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه، وقال يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت؟ فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته. قال: لعلّه أخطأ سمعك ، فاستأذن عمر الرسول في قتل ابن أُبيّ أو ان يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك . وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناسُ ان محمداً يقتل أصحابه ، ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر ، يقصد بذلك عليه الصلاة والسلام شَغْلَ الناس عن التكلم في هذا الموضوع ، فجاءه أسيد بن حُضير وسأله عن سبب الإرتحال في هذا الوقت ؟ فقال : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ زعم انه إن رجعَ الى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذل ، قال : أنت والله يا رسول الله تخرجه إن شِئتَ ، هو والله الذليلُ وأنت العزيزُ ، ثم سارَ عليه الصلاة والسلام بالناس سيراً حثيثاً[١] حتى آذتهم الشمس، فنزل بالناس فلم يلبثوا ان وجدوا مَسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً ، وكلّم رجالٌ من الأنصار عبدَ الله بن أُبيّ في أن يطلب من الرسول الإستغفار فلوى رأسه واستكبر . وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التي فضحت عبد الله بن أُبيّ وإخوانه وصدَّقت زيد بن أرقم ، ولما بلغَ ذلك عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ، استأذن رسول الله في قتل أبيه حذراً من أن يُكَلَّفَ بذلك غيره ، فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد[٢]، فأمره عليه الصلاة والسلام بالإحسان إلى أبيه .

---

(١) أي سريعاً.

(٢) فانه قال: فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار.

حديث الافك[1]

(النادرة الثانية) وهي أفظعُ من الأولى وأجلبُ منها للمصائب وهي رميُ عـائشة الصـدّيقة زوج رسـول الله بالإفـك ، فاتّهمـوها بصفـوان بن المعَـطَّل السَّلمي[2]وذلـك أنهم لما دنـوا من المدينـة أذن عليه الصـلاة والسـلام ليلة بـالرحيـل ، وكانت السيـدة عائشـة قد مضت لقضـاء حاجتهـا حتى جـاوزت الجيش ، فلما قضت شأنها أقبلت الى رَحْلها ، فلمست صدرها فإذا عِقْدٌ لها من جَزْعِ ظِفار[3] قـد انقطع فـرجعت تلتمس عقدهـا ، فحبسها ابتغـاؤه ، فأقبـل الرهط[4]الذين كانوا يُرْحِلُونَها فاحتملوا هودجها[5]ظَانِّين أنها فيه لأن النساء كنَّ إذ ذاك خفافاً لم يَغْشَهُنَّ اللحم ، فلم يستنكر القوم خِفَّةَ الهودج ، وكانت عائشة جارية حديثة السن ، فجـاءت منزل الجيش بعـد أن وجدت عقـدها ، وليس بالمنزل داعٍ ولا مُجيب ، فغلبتها عيناها فنامت ، وكان الذي يسيرُ وراء الجيش يفتقد ضائعه صَفوانَ بن المعطل ، فأصبح عند منزلها فعرفها لأنه كان رآها قبل الحجاب ، فاسترجع ، فاستيقظت باسترجاعه[6]وسـترت وجهها بجلبـابها[7]، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة ، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة ، فقامت قيامة أهل الإفك ، وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان ، والذي تَوَلى كبر الإفك عبد الله بن أُبيّ ، ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً ، والناس يفيضون[8]في قول أهل الإفك ، وهي لا تشعر

---

(١) الإفك : الكذب والافتراء .

(٢) ظفار : مدينة باليمن .

(٣) صفوان الأسلمي سكن الخندق والشاهد كلها مع رسول الله ﷺ يوم استشهد ١٩ هـ .

(٤) الرهط : قوم الرجل وقبيلته .

(٥) يُرْحِلون : أي يجعلون الهودج على الرحل .

(٦) أي بقوله : إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

(٧) الجلباب : ثوب يغطي جسم المرأة .

(٨) أي يخوضون .

بشيء ، وكانت تعرف في رسول الله رقة اذا مرضت ، فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله : كيف حالكم ؟ مما جعلها في ريب عظيم ، فلما نَقَهَتْ[1] خرجت هي وأُم مِسطح بن أثاثة أحد أهل الإفك للتبرّز خارج البيوت ، فعثرت أُم مِسطح في مِرْطها[2] فقالت : تعس مِسطح ! فقالت عائشة : بئس ما قلت !!! أتسبّين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت يا هَنْتاهُ[3] أو لم تسمعي ما قالوا ؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر ، فازدادتْ مرضاً على مرضها . ولما جاءها عليه الصلاة والسلام كعادته ، استأذنته أن تمرّض في بيت أبيها ، فأذن لها ، فسألتْ أمها عمّا يقول الناس ، فقالت : يا بنيّة هوِّني عليك ، فوالله لقلّما كانت امرأة قطّ وضيئة[4] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقالت عائشة : سبحان الله ! أوَ قد تحدّث الناس بهذا ؟! وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وفي خلال ذلك كان عليه الصلاة والسلام يستشير كبارَ أهل بيته فيما يفعل ، فقال له أُسمة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة : أهلك أهلك ولا نعلم عليهم إلا خيراً . وقال علي بن أبي طالب : لم يُضَيِّق الله عليك والنساء سواها كثير ، وسل الجاريةَ تَصْدُقْكَ . فدعا عليه الصلاة والسلام بريرة جارية عائشة وقال لها : هل رأيت من شيء يَرِيْبُكِ ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قطّ أغمِصه[5] غير أنها جارية حديثة السِّنّ تنام عن عجينها فتأتي الداجن[6] فتأكله .

فقام عليه الصلاة والسلام من يومه وصعد المنبر .والمسلمون مجتمعون

---

(١) أي أفاقت من المرض .

(٢) أي إزارها، وهو كساء من صوف أو خز . وأم مسطح هي رائطة بنت صفر مشهورة بكنيتها .

(٣) أي يا هذه .

(٤) أي حسنة جميلة .

(٥) أي أعيبه عليها .

(٦) هي الشاة التي تألف في البيوت .

وقال : مَنْ يَعْذِرُني[١]من رجل قد بلغني أذاه في أهلي ، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي . فقال سعد بن معاذ : أنا يا رسول الله أَعذِرُك منه ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعدُ بن عبادة الخزرجي وقال : كذبتَ لعَمْرُ الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أنه يُقتل ، فقام أُسَيد بن حُضير ، وقال لسعد بن عبادة : كذبتَ لعمر الله لنقتلنّه فإنك منافق تجادلُ عن المنافقين . وكادتْ تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا ان رسول الله نزل من فوق المنبر وخَفَّضَهم حتى سكتوا ، أما عائشة فبقيت ليلتين لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم . وبينما هي مع أبويها إذ دخل النبي عليه الصلاة والسلام فسلّم ثم جلس فقال : أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئةً فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه ، فتقلَّصَ[٢] دمعُ عائشة ، وقالت لأبويها : أجيبا رسول الله ، فقالا : والله ما ندري ما نقول ، فقالت : إني والله لقد علمتُ أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلتُ لكم : إني بريئة لا تصدقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنِّي فوالله لا أجدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيْلٌ وَاللهُ المسْتَعَانُ عَلى مَا تَصِفُونَ ﴾[٣].

ثم تحولت واضطجعت على فراشها ، ولم يزاولْ رسول الله ﷺ مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور[٤] ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصدّيقة : ﴿ إنَّ الذِيْنَ جَاؤوا بالإفكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُو

(١) أي من ينصرني إن جازيته على سوء صنيعه.

(٢) أي ارتفع.

(٣) سورة يوسف الآية : ١٨ .

(٤) وفي البخاري من حديث الإفك ، قالت السيدة عائشة : لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر.

خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيْمٌ . لَولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤْمِنُونَ وَالمؤمِنَات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالوا هَذا إِفْكٌ مُبِيْنٌ . لَولا جَاؤوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ الله هُمُ الكاذِبُونَ . وَلَولا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيْمَا أَفَضْتُمْ فِيْهِ عَذَابٌ عَظِيْمٌ إِذْ تَلَقَّونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهو عِنْدَ الله عَظِيْمٌ . وَلولا إِذ سَمِعْتُمُوهُ قُلتُمْ مَا يَكُونُ لنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيْمٌ. يَعِظُكُمُ الله أَنْ تَعُودوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ . وَيُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات وَالله عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ . إِنَّ الَّذِيْنَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيْعَ الفَاحِشَةُ في الّذِيْنَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . وَلولا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رَؤوفٌ رَحِيْمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَلولا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ والله سَمْيْعٌ عَلِيْمٌ﴾[1] فسُرِّيَ عن رسول الله وهو يضحك، وبشر عائشة بالبراءة، فقالت لها أمها: قومي فاشكري رسول الله، فقالتْ: لا والله، لا أشكر إلّا الله الذي برَّأني. وبعد ذلك أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُجلد من صرَّح بالإفك ثمانين جلدة (وهي حدّ القاذف)، وكانوا ثلاثة: حمنة بنت جحش ومِسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت. وكان أبو بكر ينفق على مِسطح بن أثاثة لقرابته منه، فلما تكلم بالإفك قطع عنه النفقة، فأنزل الله: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبى والمَسَاكِينَ وَالمُهاجِرِينَ في سَبِيْلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾[2]؟ فقال أبو بكر: بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد

---

(١) سورة النور الآيات: ١١ ـ ٢١ . وكان الأجدر بالمؤلف رحمه الله ذكره لآيات البراءة التي برأت الست عائشة.

(٢) سورة النور الآية: ٢٢ .

النفقة على مِسطح[1]. فهذه مضار المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مظهرين لهم المحبة وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن، رأوا باباً لها وَلَجوه فنعوذ بالله منهم.

غزوة الخندق[2]

لم يقرّ لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرث المسلمين لها، بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردّوا بلادهم، فذهب جمع منهم إلى مكة، وقابلوا رؤساء قريش، وحرّضوهم على حرب رسول الله ومنّوهم المساعدة، فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه، ثم جاؤوا إلى قبيلة غطفان وحرّضوا رجالها كذلك، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوجدوا منهم ارتياحاً، فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، وعددهم أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير. وتجهزت غطفان يرأسهم عُيينة بن حصن الذي جازى إحسان رسول الله كفراً، فإنه كما قدّمنا أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمه، حتى إذا سَمُنَ خفُّه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه، وكان معه ألف فارس. وتجهزت بنو مرّة يرأسهم الحارث بن عوف المري وهم أربعمائة، وتجهزت بنو أشجع يرأسهم مسعود بن رُخَيلة[3]، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبعمائة، وتجهزت بنو أسد يرأسهم ظليحة بن خويلد الأسدي، وعدّة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان. ولما بلغه عليه الصلاة والسلام أخبار هاتِه التجهيزات، استشار أصحابه فيما

---

(١) انظر مسلم في التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم: ٢٧٧٠. وغيره من كتب الصحاح.

(٢) قال البخاري: وهي الأحزاب، وكانت في شوال سنة خمس من الهجرة.

(٣) في الأصل أبو مسعود وهو خطأ.

يصنع أيمكث بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرّار ؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه ، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بعمله ، وشرعوا في حفره شمالي المدينةمن الحرّة[1]الشرقية الى الحرّة الغربية ، وهذه هي الجهة التي كانت عورة تُؤتى المدينة من قبلها . أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل ، لا يتمكن العدو من الحرب جهتها ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق ، لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل[2]، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ، فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة :

اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا وثبِّتِ الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بَغَوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وأقام الجيش في الجهة الشرقية مسنداً ظهره الى سَلْع (وهو جبل مطل على المدينة) وعدّتهم ثلاثة آلاف ، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة . أما قريش فنزلت بمجتمع الأسيال[3]، وأما غطفان فنزلت جهة أُحُد . وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التي لم تكن العرب تعرفها ، فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل . ولما طال المطال عليهم أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق ، منهم : عكرمة بن أبي حهل ، وعمرو بن عبد ود وآخرون ، وقد برز علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لعمرو بن عبد ود فقتله وهرب إخوانه ، وهوى في الخندق نوفل بن

---

(١) الحرّة: أرض ذات حجارة سود نخرة. والمدينة بين حرتين شرقية وهي واقم وغربية وهي الدبرة.
(٢) وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام نبوّته عليه الصلاة والسلام.
أي الموضع الذي تجتمع فيه السيول.

عبد الله فاندقت عنقه ورُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم قطع أَكْحَله ـ وهو شريان الذراع ـ واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاة ذاك اليوم وقضوها بعد ، وجعل عليه الصلاة والسلام على الخندق حُرَّاساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل ، وكان يحرس بنفسه ثُلمة(١) فيه مع شدة البرد ، وكان عليه الصلاة والسلام يبشّر أصحابه بالنصر والظفر ويَعِدهم الخير . أما المنافقون فقد أظهروا في هذه الشدة ما تكنُّه ضمائرهم حتى قالوا : ﴿ مَا وَعَدنا الله وَرَسُولُه إلا غُروراً ﴾(٢)وانسحبوا قائلين إن بيوتنا عورة نخاف أن يُغير عليها العدو : ﴿ وَما هي بِعَوْرَةٍ إنْ يُرِيْدُونَ إلا فِرَاراً ﴾(٣)، واشتدت الحال بالمسلمين ، فإن هذا الحصار صاحَبه ضيق على فقراء المدينة ، والذي زاد الشدة عليهم ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين يُساكنونهم في المدينة(٤) قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود ، وسبب ذلك أن حُيّي بن أخطب سيد بني النضير المجليين توجه الى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة ، وكان له كالشيطان ﴿ إذ قال للإنسان اكفر ﴾ فحسَّن له نقض العهد ، ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ، ولما بلغت هذه الأخبار رسول الله ﷺ أرسل مسلمة بن أسلم في مائتين وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة خوفاً على النساء والذراري ، وأرسل الزبير بن العوّام يستجلي له الخبر ، فلما وصلهم وجدهم حانقين يظهر على وجوههم الشر ونالوا من رسول الله ﷺ والمسلمين أمامه ، فرجع وأخبر الرسول بذلك . وهنالك اشتد وَجَل المسلمين ﴿ وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ ، لأن العدو جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم ﴿ وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ وظنوا بالله الظنون وتكلم

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ١٢ .
(٢) سورة الأحزاب الآية : ١٣ .
(٣) الثلمة : الخلل في الحائط وغيره.
(٤) لم يساكنوا المسلمين في المدينة بل كانوا بجوارها في حصون لهم

المنافقون بما بَدا لهم ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يرسل لعُيَينة بن حصن ، ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان ، فأبى الأنصار ذلك قائلين : إنهم لم يكونوا ينالون منّا إلا قليلاً من ثمارنا ونحن كفار ، أفبعد الإسلام يشاركوننا فيها ؟! وإذا أراد الله العناية بقوم هيأ لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون . فانظر الى هذه العناية من الله للمتمسكين بدينه القويم . جاء نُعيم بن مسعود الأشجعي وهو صديق قريش واليهود ومن غطفان . فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي فمُرني بأمرك حتى أُساعدك . فقال انت رجل واحد وماذا عسى أن تفعل ؟ ولكن خَذِّل عنّا ما استطعت فإن الحرب خُدْعة .

الخُدعة في الحرب

فخرج من عنده وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين ، فلما رأوه أكرموه لصداقته معهم ، فقال : يا بني قريظة تعرفون ودّي لكم وخوفي عليكم ، وإني محدِّثكم حديثاً فاكتموه عنّي ، قالوا : نعم ، فقال : لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير من إجلائهم وأخذ أموالهم وديارهم ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم اذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم . وأما أنتم فتساكنون الرجل (يريد الرسول) ولا طاقة لكم بحربه وحدكم فأرى ألّا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم[١]، فاستحسنوا رأيه وأجابوه الى ذلك .

ثم قام من عندهم وتوجه إلى قريش فاجتمع برؤسائهم ، وقال : أنتم

---

(١) جاء في سيرة ابن هشام، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم.

تعرفون ودّي لكم ومحبتي إيّاكم وإني محدّثكم حديثاً فاكتموه عني ، قالوا نفعل ، فقال لهم : إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه ، فقالوا له أيُرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك ، وتردّ جناحنا الذي كسرت (يريد بن النضير) فرضي بذلك منهم . وها هم مرسلون إليكم فاحذروهم ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً . ثم أتى غطفان فأخبرهم بمثل ما أخبر به قريشاً فأرسل أبو سفيان وفداً[1] لقريظة يدعوهم للقتال غداً فأجابوا إنّا لا يمكننا أن نقاتل في السبت (وكان إرساله لهم ليلة السبت) ولم يُصِبنا ما أصابنا إلا من التعدّي فيه ، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم فتحققت قريش وغطفان كلام نُعيم بن مسعود ، وتفرقت القلوب فخاف بعضهم بعضاً ، وكان عليه الصلاة والسلام قد ابتهل الى الله الذي لا ملجأ إلا إليه ودعاه بقوله : « اللهمّ مُنزل الكتاب سريع الحساب، إهزم الأحزاب ، اللهمّ اهزمهم وانصرنا عليهم »[2] وقد أجاب الله دعاءه عليه الصلاة والسلام فأرسل على الأعداء ريحاً باردة في ليلة مظلمة ، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين ويهجموا عليهم في الليلة المدلهمَّة فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح . ولما سمع عليه الصلاة والسلام الضوضاء في جيش العدو ، قال لأصحابه : لا بدّ من حادث ، فمَن منكم ينظر لنا خبر القوم ؟ فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً . وكان فيهم حُذيفة بن اليمان ، فقال عليه الصلاة والسلام : تسمع صوتي منذ الليلة ولا تجيب ! فقال : يا رسول الله البرد شديد ، فقال : اذهب في حاجة رسول الله واكشف لنا خبر القوم فخاطر رضي الله عنه بنفسه في خدمة نبيِّه حتى اطّلع على جليّة الخبر ، وأن الأعداء عازمون على الرحلة.

(١) هم عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان.

(٢) وفي رواية «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً».

هزيمة الأحزاب

وقد بلغ من خوفهم أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم ليتعرَّف كلٌّ منكم أخاه ، وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو ، وقد حلّ عِقَال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل ، فقال له صفوان بن أمية(١): إنَّـك رئيس القوم فـلا تتركهم وتمضي ، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل ، وترك خالد بن الوليـد في جماعـة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم ، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمّة التي تحزّب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين ، ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منّة منه وفضلاً لساءت الحال . وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة ، وكان حقّاً على الله أن يسمّيه نعمة بقوله في سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيها الّذِيْنَ آمَنُوا اذْكُروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيْحَاً وَجُنُودَاً لَمْ تَروهَا وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلونَ بَصِيْراً . إِذْ جَاؤوكُمْ مِنْ فَوقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَل مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنونَ بـالله الظُّنُـونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المؤمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شديْدَاً . وإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ والذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعدنَا الله وَرَسُولُهُ إِلّا غُرُوراً . وَإِذْ قَالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِي يَقولُونَ إِنَّ بُيوتَنَا عَوْرَةٌ وَما هي بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيْدُونَ إلا فِرَاراً ﴾(٢).

غزوة بني قُرَيْظَة

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بأصحابه ، وأراد أن يخلع لباس الحرب ، أمره الله باللحوق ببني قريظة(٣)، حتى يطهِّر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم

(١) فقال له عكرمة بن أبي جهل وليس صفوان. على ما جاء في السيرة الحلبية.

(٢) سورة الأحزاب الآيات : ٩ ـ ١٣ .

(٣) أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج اليهم، قال: إلى أين، قال: ها هنا وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم.

العهود ، ولا تربطهم المواثيق ، ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة ، فقال لأصحابه : « لا يصلينَّ احد منكم العصر إلا في بني قريظة »(١)فساروا مسرعين ، وتبعهم عليه الصلاة والسلام راكباً على حماره ، ولواؤه بيد علي بن أبي طالب ، وخليفته على المدينة عبد الله بن أُم مكتوم ، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف ، وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق فصلّاها بعضهم حاملين أمر الرسول بعدم صلاتها على قصد السرعة ، ولم يصلِّها الآخرون إلا في بني قريظة بعد مضي وقتها حاملين الأمر على حقيقته فلم يُعنِّف فريقاً منهم(٢). ولما رأى بنو قريظة جيش المسلمين ألقى الله الرعب في قلوبهم ، وأرادوا التنصّل من فعلتهم القبيحة وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر ، ولكن أنَّى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرهم ، فلما رأوا ذلك تحصنوا بحصونهم وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة ، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب ، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً ، وطلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فلم يقبل الرسول ﷺ ، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير مال ولا سلاح ، فلم يرض أيضاً ، بل قال : لا بدّ من النزول والرضا بما يحكم عليهم خيراً كان أو شراً ، فقالوا له : أرسل لنا أبا لُبابة(٣)نستشيره ، وكان أوسياً من حُلفاء بني قريظة ، له بينهم أولاد وأموال(٤)، فلما توجه اليهم استشاروه في النزول على حكم الرسول . فقال لهم ؛ انزلوا وأومأ بيده الى حلقه يريد أن الحكم الذبح(٥)، ويقول أبو لبابة : لم أُبارح موقفي حتى علمتُ أني خنت الله ورسوله ، فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجلاً من مقابلة رسول الله ، وربط

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنه .
(٢) لا الفاعلين ولا التاركين .
(٣) هو بشير بن عبد المنذر؛ أحد النقباء .
(٤) ولذلك خصّوه بالمشاورة .
(٥) وكأن أبا لبابة فهم ذلك .

نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه أمره . ولما سأل عنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما فعل ، فقال : أما أنه لو جاءني لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضي الله فيه . ثم إن بني قريظة لما لم يروا بدّاً من النزول على حكم رسول الله فعلوا ، فأمر برجالهم فكُتِّفوا ، فجاءه رجال من الأوس وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء إخوانهم الخزرج ، فقال لهم: ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجلٍ منكم؟ فقالوا: نعم. واختاروا سيدهم سعد بن معاذ الذي كان جريحاً من السهم الذي أُصيب به في الخندق ، وكان مقيماً بخيمة في المسجد معدّة لمعالجة الجرحى ، فأرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يأتي به ، فحملوه على حماره ، والتفّ عليه جماعة من الأوس يقولون له : أحسن في مواليك ألا ترى ما فعل ابن أُبيّ في مواليه ؟ فقال رضي الله عنه : لقد آن لسعد ألاّ تأخذه في الله لومةُ لائم . ولما أقبل على الرسول وأصحابه وهم جلوس ، قال عليه الصلاة والسلام : قوموا الى سيّدكم فأنزلوه ، ففعلوا ، وقالوا له : إن رسول الله قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم . وقال له الرسول : احكم فيهم يا سعد ! فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله وقال : عليكم عهدُ الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟ فقالوا : نعم ، فالتفت إلى الجهة التي فيها الرسول وقال : وعلى مَنْ هنا كذلك ؟ وهو غاضٌ طرفه إجلالاً فقالوا : نعم ، فقال : فإني أحكم أن تقتلوا الرجال ، وتسبوا النساء والذرية ، وتغنموا الأموال. فقال عليه الصلاة والسلام : « لقد حكمت فيهم بحكم الله » لأن هذا جزاء الخائن الغادر . ثم أمر بتنفيذ الحكم فنفذ عليهم ، وجمعت غنائمهم ، فكانت الفاً وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفي رمح وخمسمائة ترس وحَجْفة ، ووجد أثاثاً كثيراً وآنية وجِمالاً نواضح (١) وشياهاً ، فخمَّس ذلك كله مع النخل والسبي للراجل ثلث الفارس ، وأعطى

(١) جمع ناضح .

النساء اللاتي يُمرضن الجرحى ، ووجد في الغنيمة جرار خمر فأُريقت. وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد بن معاذ فمات رضي الله عنه وأرضاه(١)، وكان في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين . وقد كان له العزم الثابت في جميع المشاهد التي تقدمت الخندق ، وكان عليه الصلاة والسلام يحبه كثيراً وبشره بالجنة على عظيم أعماله وعقب رجوع المسلمين الى المدينة تاب الله على أبي لُبابة بقوله : ﴿ وَآخَرونَ اعْتَرفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلطُوا عَمَلاً صَالِحَاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى الله أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾(٢)وقد عاهد الله أن يهجر ديار بني قريظة التي حصلت فيها هذه الزلّة. وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة ، ولم تبقَ إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب . وسيأتي للقارىء قريباً اليوم الذي يعاقبون فيه .

زواج زينب بنت جحش

وفي هذا العام تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش ـ وأمها أميمة عمته ـ بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول ﷺ خطبها له فتأففَ أهلها من ذلك لمكانها في الشرف العظيم ، فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالي ، ويعتقدون أن لا كفء مِنْ سواهم لبناتهم ، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يُلْحِقه بالأشراف ، فلما نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ وَمَا كَانَ لِمؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذَا قَضَى الله وَرَسُولُه أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ

---

(١) قال عند وفاته: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فإن كان قد بقي من حرب قريش شيء فأبقني له، حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها، فانفجرت.

(٢) سورة التوبة الآية: ١٠٢.

ضَلالاً مُبِيْنَاً ﴾[1]. لم يروا بدّاً من القبول ، فلما دخل عليها زيد أرَتهُ من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها إلى أن ضاقت نفسه ، فأخبره بالعزم على طلاقها وقرر ذلك ، ولما كانت العِشرة بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العبث ، أمر الله نبيّه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً لهذا الشقاق من جهة وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله خشي لوم اليهود والعرب له في زواجه بزوج ابنه ، فقال لزيد : أمسكْ عليك زوجك واتق الله ، وأخفى في نفسه ما أبداه الله فَبَتَّ الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهي : تحريم زوج المتبنَّى بقوله في سورة الأحزاب : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَها لِكَيْلا يَكُونَ عَلى المُؤْمِنِيْنَ حَرَجٌ في أَزْواجِ أَدْعِيَائِهِمْ إذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾[2]ثم إن الله حرم التبني على المسلمين لما فيه من الأضرار وأنزل فيه سورة الأحزاب : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيْماً ﴾[3]ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل (زيد بن محمد) ، وأبدلَ بذلك أنْ ذُكِرَ اسمه في قرآن يُتلى على مرّ الدهور والأعوام[4].

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالاً لا تجوز إلا ممّن ضاع رشده ، ولم يفْقَه حقيقة ما يقول ، فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوماً لزيارة زيد فرأى زوجه مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت في قلبه ، فقال : سبحان الله ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك ، فرأى من الواجب عليه فراقها ، فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك إلخ . وهذا

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٠ .

(٤) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن زيد بن حارثة ما كنّا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن : ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ .

مما يكذبه أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه ، وزينب بنت عمته أسلمت قديماً ورسول الله بمكة ، فكيف لم يرها ، وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات وهي بنت عمته ، إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة ، ورسول الله هو الذي زوجها زيداً ، فلو كان له فيها رغبة حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك . ومن منّا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه إنه مرسل من ربه ، ويتلو عليهم صباح مساء أمر الله له بقوله في سورة الحِجر المكية ؛ ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ﴾[1]وفي سورة طه المكية أيضاً : ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا به أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحيَاةِ الدُّنْيا﴾[2] ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متّبعيه ، وينظر الى زوجه مصادفة ثم يشتهي زواجها؟ إن هذا لأمر عظيم تشعر بذلك صدورنا . ولو حدث أمر مثل ذلك من أقل الناس لعيب عليه ، فكيف بمن اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خُلُقاً ، وأبعدهم عن الدنايا ، وأشدّهم ذكاء وفراسة حتى مدحه الله بقوله في سورة نّ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾[3]لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق ، وضعها أعداء الدين ليصلوا بها إلى أغراضهم ، والحمد لله قد ناقضت النقل والعقل ، فلم تبق شبهة في أن الحقيقة ما نقلناه لك أولاً ، وهو الذي يستفاد من القرآن الشريف قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذيْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله وَتُخْفِي في نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيْهِ وتَخْشَى النَّاسَ والله أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ . فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْلا يَكُونَ عَلى المُؤْمِنِيْنَ حَرَجٌ في أَزْواجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعولاً﴾[4]. والذي أبداه الله هو زواجه بها ، ولم يبدِ غير ذلك وهذا القرآن أعظم شاهد .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٨٨ .

(٢) سورة طه الآية : ١٣١ .

(٣) سورة نّ الآية : ٤ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٧ .

الحجاب

وفيه نزلت آية الحجاب وهو خاص بنساء رسول الله ﷺ ، وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبّه ويذكره كثيراً، ويودّ أن ينزل فيه قرآناً[1]، وكان يقول : لو أُطاع فيكن ما رأتكنَّ عين ، فنزل في سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مِنْ وراَءِ حِجابٍ ذَلكُمْ أَطهرُ لقُلوبكُم وَقُلوبِهنَّ ﴾[2]فقال بعضهم : أَنُنْهى أن نكلم بنات عمّنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة ! فنزل بعد الآية المتقدمة : ﴿ وَمَا كَانَ لَكم أَنْ تُؤْذوا رَسولَ الله وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبداً إنَّ ذَلكُمْ كَانَ عند الله عَظِيْماً ﴾[3]أما غير أزواجه عليه الصلاة والسلام من المؤمنات ، فأمرن بغضّ الأبصار ، وحفظ الفروج ، كما أمر بذلك الرجال ، وأُمرن ألّا يبدين زينتهنّ للأجانب إلا ما ظهر منها كالخاتمَ في الإصبع، والخضاب في اليد ، والكحل في العين ، أما ما خفي منها فلا يحلّ إبداؤه كالسوار للذراع ، والدُّمْلَج للعضد ، والخلخال للرجل ، والقلادة للعنق ، والإكليل للرأس ، والوشاح للصدر ، والقرط للأذن . والمراد بالزينة الظاهرة والخفية موضعها ، وأُمرن أيضاً بأن يضربن بخمرهنّ على الجيوب كيلا تبقى صدورهنَّ مكشوفةً[4]، فإن النساء إذ ذاك كانت جيوبهنّ واسعة تبدو منها نحورهنّ وصدورهنّ وما حواليها ، وكنّ يسدلن الخُمُر من ورائهنّ ، ونُهين عن أن يضربن بأرجلهنّ ليعلم أنهنّ ذوات خلخال . واذا كان النهي عن إظهار صوت الحلي بعد ما نهين عن إظهار الحلي ، عُلِمَ بذلك ان النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ وأبلغ ، قال تعالى في سورة النور : ﴿ وَقُلْ

---

(١) قال عمر رضي الله عنه وافقت ربي في ثلاث: منها آية الحجاب قلت: يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن فانه يكلمهنّ البرّ والفاجر فنزلت آية الحجاب . .

(٢ - ٣) سورة الأحزاب الآية: ٥٣ .

(٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ـ وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ـ شققن مروطهنّ فاختمرن بها».

للمُؤمِنَات يَغْضُضْنَ مِنْ أَبصَارِهِنّ[1]ويَحْفَظنَ فرُوجَهنَّ ولا يُبْدِيْنَ زِيْنَتَهُنَّ إلا مَا ظَهر منْها وَلْيَضْرِبْنَ بخُمُرهِنَّ على جُيُوبِهنَّ وَلا يُبْدِيْنَ زِيْنَتهنّ إلا لِبُعولَتِهِنّ أَو آبائِهِنَّ أَو آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْناءِ بُعولَتِهِنَّ أو إخْوتهنَّ أو بَني أَخواتِهنَّ أَو نِسائِهِنَّ أو مَا ملكَتْ أَيْمَانُهنَّ أو التَّابعِيْنَ غَيْر أُولي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفْلِ الّذيْنَ لَمْ يَظْهروا على عَوْراتِ النِّساءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِيْنَ مِنْ زِيْنَتِهِنَّ وَتوبوا إلى الله جَمِيْعاً أَيُّهَا المؤمِنُونَ لَعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2]وكان النساء في أول الإسلام كما كنّ في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في دِرْع وخمار لا فرق بين الحُرّة والأَمَة ، وكان الفتيان وأهل الشطارة[3]يتعرضون للإماء اذا خرجن بالليل الى مقاضي حوائجهنّ في النخيل والغيطان[4]، وربما تعرضوا للحرّة بعلّة الأَمَة يقولون حسبناها أَمَة ، فأُمرنَ أن يخالفن بزيهنّ عن زيّ الإماء بأن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ليغطي الوجه والأعطاف[5]ليحتشمن ، ويُهَبْن فلا يطمع فيهنّ طامع ، قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِساءِ المُؤْمِنِيْنَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيْبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ الله غَفُوراً رَحِيماً ﴾[6] أما حَجْبُ المرأة عمّن يريد خطبتها فهو أمر لم يكن يُفعل في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد السلف الصالح ، فإن الشارع الحكيم سنّ ذلك ليكون الرجل على علم مما يُقدِم عليه ، حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين في أمر أجمع عليه أئمة الدين . قال حجة الإسلام الغزالي في الإحياء : (وقد ندب الشرع الى مراعاة أسباب الإلفة ولذلك استحب النظر ، فقال : (اذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة ، فلينظر إليها فإنه أحرى أن

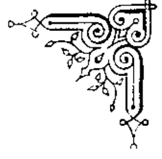
---

(١) والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب.
(٢) سورة النور الآية : ٣١ .
(٣) الشاطر : من أعيا أهله خبثاً.
(٤) الغيطان جمع غيط، وهو الواسع من الأرض.
(٥) عِطْفا كل شيء : جانباه.
(٦) سورة الأحزاب الآية : ٥٩ .

يؤدم بينهما) ـ أي يؤلف بينهما ـ من وقوع الأدَمَة ، والأدمة : هي الجلدة الباطنة ، والبشرة : الجلدة الظاهرة ، وإنما ذكر ذلك للمبالغة في الإئتلاف ، وقال عليه الصلاة والسلام : «إن في أعين الأنصار شيئاً فإذا أراد أحدكم ان يتزوج منهنّ فلينظر إليهنّ» قيل : كان في أعينهنَّ عمش وقيل صغر . وكان بعض الصالحين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور ، وقال الأعمش : كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم) ، ولا يبعد أن يكون فساد الزمن والإبتعاد عن التربية الدينية التي تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حَسَّنا عند عامة المسلمين في العصور الأولى حجب المرأة مطلقاً حسماً للمفاسد ودَرْءاً للفتنة .

فرض الحج

وفي هذا العام ، على ما عليه الأكثرون فرض الله على الأمة الإسلامية حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار ، فيتجهوا إلى الله ويبتهلوا إليه أن يؤيدهم بنصره ويُعينهم على اتباع دينه القويم . وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى .



السنة السادسة

سرية

ولعشر خلون من محرم السنة السادسة ، أرسل عليه الصلاةوالسلام[1] محمد بن مَسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على بني بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضَرِيَّة[2]، فسار إليهم يكمن النهار ، ويسير الليـل حتى دهمهم فقتل منهم عشرة ، وهرب باقيهم ، فاستاقت السـرية النَّعمَ والشيـاه ، وعادوا راجعين الى المدينة ، وقد التقوا وهم عائدون بثُمامة بن أُثال الحنفي من عظماء بني حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه ، فلما أتَوا به رسول الله عرفه وعامله بمنتهى مكـارم الأخلاق ، فإنه أطلق إسارة بعد ثلاث أبى فيها الإنقياد للإسلام بعد أن عرض عليه . ولما رأى ثمامة هذه المعاملة ، وهذه المكارم . رأى من العبث أن يتبع هواه ويترك ديناً عماده المحامد ، فرجع إلى رسول الله وأسلم غير مكره وخاطب الرسول بقوله : « يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ ، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح أحبّ الدين كله إليّ ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك ، فقد أصبح أحبّ البلاد اليَّ » فسرّ عليه الصلاة والسلام كثيراً بإسلامه لأن

(١) هي سرية محمد بن مسلمة إلى القُرْطاء.

(٢) موضع على سبع ليالٍ من المدينة في طريق البصرة. المؤلف.

من ورائه قوماً يطيعونه . ولما رجع ثُمامة الى بلاده مرَّ بمكة معتمراً وأظهر فيها إسلامه ، فأرادت قريش إيذاءه ، فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثُمامة فتركوه، ومع ذلك فقد حلف هو ألاَّ يرسل إليهم من اليمامة حبوباً حتى يؤمنوا، فجهدوا جداً ولم يَروا بدّاً من الإستغاثة برسول الله، فعاملهم عليه الصلاة والسلام بما جُبِل عليه من الشفقة والمرحمة ، وأرسل لثمامة أن يُعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة ففعل . وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدم راسخة في الإسلام عقب وفاة الرسول حينما ارتدّ اكثر أهل بلاده ، فكان ينهي قومه عن اتباع مُسَيْلمة ، ويقول لهم : إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه ، فثبت معه كثير من قومه رضي الله عنه .

غزوة بني لحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت وإخوانه ، ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم متشوقاً للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة ، فأمر أصحابه بالتجهّز ، ولم يُظهر لهم مقصده كما هي عادته عليه الصلاة والسلام في غالب الغزوات ، لتعمَى الأخبار عن الأعداء ، وولى على المدينة ابن أُم مكتوم ، وسار في مائتي راكب معهم عشرون فرساً ، ولم يزل سائراً حتى مقتل أصحاب الرجيع ، فترحم عليهم ودعا لهم ، ولما سمع به بنو لحيان تفرقوا في الجبال ، فأقام عليه الصلاة والسلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً ، ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عُسفان[1] حتى يعلم بهم أهل مكة فيُداخلهم الرعب ، فذهبوا الى كُرَاع الغميم[2]، ثم رجع عليه الصلاة والسلام الى المدينة وهو يقول : «آيبون تائبون لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء[3] السفر

(١) عسفان : موضع قرب مكة . المؤلف .
(٢) جبل جنوب عسفان بثمانية أميال . المؤلف .
(٣) وعثاء السفر مشقته وشدته .

وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال »[1].

غزوة الغابة[2]

كان للنبي عليه الصلاة والسلام عشرون لِقْحَة[3] ترعى بالغابة[4]، فأغار عليها عُيينة بن حصن في أربعين فارساً واستلبها من راعيها ، فجاءت الأخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والذي بلَّغه هو سلمة بن الأكوع[5] أحد رماة الأنصار ، وكان عَدّاءً فأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلهم بالنبل حتى يدركهم المسلمون ، فخرج يشتد في أثرهم حتى لحقهم ، وجعل يرميهم بالنبل ، فإذا وجّهت الخيل نحوه رجع هارباً ، فلا يُلحق ، فإذا دخلت الخيل بعض المضايق علا الجبل فرمى عليها الحجارة حتى ألقوا كثيراً مما بأيديهم من الرماح والأبراد[6] ليخفّفوا عن أنفسهم حتى لا يلحقهم الجيش ، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق به الجيش ، فإن الرسول دعا أصحابه فأجابوه ، وأول من انتهى إليه المقداد بن عمرو ، فقال له : اخرج في طلب القوم حتى ألحقك وأعطاه اللواء فخرج ، وتبعته الفرسان حتى أدركوا أواخر العدو ، فحصلت بينهم مناوشات قتل فيها مسلم[7] ومشركان ، واستنقذ المسلمون غالبَ اللقاح ، وهرب أوائل القوم بالبقية ، وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله أن يرسله مع جماعة في أثر القوم ليأخذهم على غِرّة وهم نازلون على أحد مياههم فقال لـه عليه الصلاة والسلام : « ملكت فأسجح » ثم رجع بعد خمس ليال .

---

(١) بعض من حديث رواه مسلم في الحج .

(٢) وتسمى غزوة ذي قرد .

(٣) الجمع لقاح .

(٤) موضع على بريد من المدينة جهة غطفان . المؤلف .

(٥) المعروف بابن الأكوع ، بايع النبي ﷺ عند الشجرة على الموت .

(٦) الأبراد جمع برد وهو الثوب المخطط .

(٧) هو محرز بن نَضْلة .

سرية[1]

كان بنو أسد الذين مَرّ ذكرهم كثيراً ما يؤذون مَنْ يمرّ بهم من المسلمين ، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام عُكَّاشة بن مِحْصَن[2]في أربعين راكباً ليُغير عليهم ، ولما قارب بلادهم علموا به فهربوا ، وهنا وجدوا رجلًا نائماً فـآمنّوه ليدلهــم على نَعَم القوم ، فدلّهم عليها فاستاقوها ، وكانت مائة بعير ، ثم قدموا المدينة ولم يلقوا كيداً .

سرية[3]

وفي ربيع الأول بلغه عليه الصلاة والسلام ان من بذي القصَّة[4]يريدون الإغارة على نَعم المسلمين التي ترعى بالهيفاء[5]فأرسل لهم محمد بن مسلمة في عشرة من المسلمين ، فبلغ ديارهم ليلاً ، وقد كَمَن المشركون حينما علموا بهم ، فنـام المسلمون ولم يشعـروا إلا والنبل قـد خالـطهم ، فتـواثبـوا على أسلحتهم ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم غير محمد بن مسلمة تركوه لظنهم أنه قُتِل ، فعاد إلى المدينة ، وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأرسل أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر ليقتصَّ من الأعداء ، فلما وصل ديارهم وجدهم تشتتوا هاربين فاستاق نَعَمهم ورجع .

سرية[6]

عاكَسَ بنو سُليم الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق المسلمين

(١) هي سرية عكاشة .
(٢) عُكاشة : بضم العين وتشديد الكاف، من السابقين الأوّلين .
(٣) هي سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القَصّة.
(٤) موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة في طريق الربذة . المؤلف .
(٥) موضع قرب المدينة المؤلف على سبعة أميال.
(٦) هي سرية زيد بن حارثة إلى الجَمُوم.

في سيرهم ، فأرسل عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة في ربيع الآخر ليُغير عليهم في الجَمُوم[1] فلما بلغوا ديارهم وجدوهم تفرقوا، ووجدوا هناك امرأة من مُزينة دلّتهم على منازل بني سُلَيم ، أصابوا بها نَعَماً وشاءً ، ووجدوا رجالاً أسروهم وفيهم زوج تلك المرأة فرجعوا بذلك الى المدينة ، فوهب الرسول لهذه المرأة نفسها وزوجها .

سرية[2]

بلغ الرسول أن عِيراً لقريش ، أقبلت من الشام تريد مكة ، فأرسل لها زيد بن حارثة في مائة وسبعين راكباً ليعترضها ، فأخذها وما فيها وأسر مَن معها من الرجال ، وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ، وكان من رجال مكة المعدودين تجارة ومالاً وأمانةً ، فاستجار بزوجه زينب فأجارته ، ونادت بذلك في مجمع قريش فقال عليه الصلاة والسلام : « المسلمون يدٌ واحدة يُجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجرتِ » وهذا أبلغ ما قيل في المساواة بين أفراد المسلمين وردّ عليه الرسول ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً ، فذهب الى مكة. فأدّى لكل ذي حقٍّ حقه، ورجع إلى المدينة مسلماً فردّ عليه رسول الله زوجه .

سرية[3]

وفي جمادي الآخرة أرسل عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة في خمسة عشر رجلاً للإغارة على بني ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة وهم

---

(١) ناحية من بطن نخل من المدينة. المؤلف.
(٢) هي سرية زيد بن حارثة إلى العِيْص.
(٣) هي سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرف.

مقيمون بالطَّرف[1]فتوجهت السرية لذلك ، ولما رآهم الأعداء ظنوهم طليعة لجيش رسول الله ، فهربوا وتركوا نعَمهم وشاءهم ، فاستاقها المسلمون ورجعوا الى المدينة بعد أربع ليالٍ .

سرية[2]

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة ليُغيرَ على بني فَزَارة لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام ، فسلبوا ما معه ، وكادوا يقتلونه ، فلما جاء المدينة ، وأخبر الرسول الخبر ، أرسله مع رجاله للقصاص من فَزارة المقيمين في وادي القُرى[3]، فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم ، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً ، وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة ، فاستوهبها عليه الصلاة والسلام ممّن أسرها وفدى بها أسيراً كان بمكة .

سرية[4]

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن بن عوف مع سبعمائة من الصحابة لغزو بني كلب في دُومة الجَنْدَل[5]، وقد وصّاهم عليه الصلاة والسلام قبل السفر بقوله : «إغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تَغُلُّوا[6]ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرة نبيّه فيكم » ثم أعطاه اللواء فساروا على بركة الله حتى حلّوا بديار العدو ، فدعوهم إلى الإسلام

(١) ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة في طريق العراق. المؤلف.
(٢) هي سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى.
(٣) موضع شمالي المدينة. المؤلف.
(٤) هي سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل.
(٥) حصن وقرى بينها وبين دمشق خمس ليالٍ، وبين المدينة خمس عشرة ليلة. المؤلف.
(٦) من الغلول، وهو الخيانة في المغنم.

ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأَصْبَغ بن عمرو النصراني(١)، وأسلم معه جمع من قومه ، وبقي آخرون راضين بإعطاء الجزية ، فتزوج عبد الرحمن بنت رئيسهم ، كما أمره بذلك عليه الصلاة والسلام ، وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الودّ بين الأمراء بحيث يهمّ كلًّا ما يهمّ الآخر ، فنِعماً هي سياسة السلم والمحبة .

سرية(٢)

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب في مائة لغزو بني سعد بن بكر بفَدَك(٣) لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابل تمر يُعطَونه من تمر خيبر ، فسارت السرية ، وبينما هم سائرون التقوا بجاسوس العدو ، أرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها ، فطلبوا منه أن يدلّهم على القوم وهو آمنٌ ، فدلَّهم على موضعهم ، فاستاق منه المسلمون نَعَم القوم ، وهرب الرعاةُ ، فحذَّروا قومهم ، فدَاخَلَهم الرعب وتفرقوا ، فرجع المسلمون ومعهم خمسمائة بعير وألفاً شاةٍ ، وردّ الله كيدَ المشركين فلم يمدُّوا اليهود بشيء .

قتل أبي رافع(٤)

وكان المحرّك لأهل خيبر على حرب المسلمين ، وهو سيدهم ، ابو رافع سَلّام بن أبي الحُقيق الملقب بتاجر أهل الحجاز ، لما كان له من المهارة في التجارة ، وكان ذا ثروة طائلة يُقَلِّبُ بها قلوبَ اليهود كما يريد ، فانتدب له عليه

---

(١) أسلم على يد عبد الرحمن بن عوف ، وتزوج عبد الرحمن ابنته تُماضِر .
(٢) هي سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد .
(٣) قرية بينها وبين المدينة ست ليالٍ من جهة خيبر . المؤلف .
(٤) هي سرية عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع .

الصلاة والسلام مَنْ يقتله ، فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج رئيسهم عبد الله بن عَتِيْك(١)، ليكون لهم مثل أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعبَ بن الأشرف ، فإن من نِعم الله على رسوله أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله ، فلا تعمل الأوسُ عملاً إلا اجتهد الخزرج في مثله ، فأمرهم الرسول بذلك بعد أن وصّاهم ألاّ يقتلوا وليداً ولا امرأة ، فساروا حتى أتوا خيبر ، فقال عبد الله لأصحابه : مكانَكم . فإني منطلقٌ للبوّاب ومتلطِّف له لعلّي أدخل ، فأقبل حتى دنا من الباب ، ثم تقنَّع بثوب كأنه يقضي حاجته ، وقد دخل الناس ، فهتف به البوّاب ، ادخل يا عبد الله إن كنت تريد الدخول ، فإني أُريد ان أُغلق الباب ، فدخل وكَمَن حتى نام البوَّاب ، فأخذ المفاتيح ، وفتح ليسهُل له الهرب ، ثم توجه الى بيت أبي رافع ، وصار يفتح الأبواب التي تُوصل اليه ، وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى اليه ، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، فلم يمكنه تمييزه ، فنادى يا أبا رافع ، قال : من ؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئاً ، وعند ذلك قالت امرأته : هذا صوت ابن عتيك ، فقال لها : ثكلتك أُمُّكِ وأين ابن عتيك الآن ؟ فعاد عبد الله للنداء مُغيِّراً صوته قائلاً : ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع ؟ قال : لأمك الويل إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف ، فعمد اليه فضربه أخرى لم تُغنِ شيئاً ، فتوارى ثم جاءه كالمُغيث وغَيَّر صوته ، فوجده مستلقياً على ظهره ، فوضع السيف في بطنه ، وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم ، ثم خرج من البيت ، وكان نظره ضعيفاً فوقع من فوق السُلَّم فكسرت رجله ، فعصَبها بعمامته ثم انطلق الى أصحابه ، وقال : النجاة قُتِل والله أبو رافع ، فانتهوا إلى الرسول ، فحدَّثوه ثم قال لعبد الله : أُبسط رجلك فمسحها عليه الصلاة والسلام فكأنه لم يشتَكِها قطّ ، وعادت أحسن ما كانت . فانظر ـ رعاك الله ـ إلى ما كان

---

(١)وهم : عبد الله بن عتيك ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة الحرث بن ربعي ، ومسعود بن سنان والأسود بن خزاعي .

عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء رسول الله ﷺ فرضي الله عنهم وأرضاهم .

سرية[1]

(ولما) قُتل أبو رافع[2] ولّى اليهود مكانه أُسَير بن رِزام ، فأرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يستعلم له خبره ، فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه : سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحدٌ قبلي ، أسير الى غطفان فأجمعهم لحربه وسعى في ذلك . فأرسل عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة الخزرجي في ثلاثين من الأنصار لاستمالته ، فخرجوا حتى قدِموا خيبر ، وقالوا لأسير : نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له ، قال : نعم ولي مثل ذلك ، فأجابوه ، ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله ويترك ما عزم عليه من الحرب فيولِّيه الرسول على خيبر ، فيعيش أهلها بسلام ، فأجاب إلى ذلك وخرج في ثلاثين يهودياً كلُّ يهودي رديفٌ لمسلم ، وبينما هم في الطريق ندم أسير على مجيئه ، وأراد التخلّص مما فعل بالغدر بمن أمَّنوه فأهوى بيده الى سيف عبد الله بن رواحة ، فقال له : أغدراً يا عدو الله ! ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامّة فخذه ، ولم يلبث أن هلك ، فقام المسلمون على مَن معه من اليهود فقتلوهم عن آخرهم وهذا عاقبة الغدر .

قصة عُكْل وعُرَيْنَة[3]

قدِمَ على رسول الله في شوّال جماعة من عُكْل وعُرَيْنَة ، فأظهروا الإسلام وبايعوا رسول الله وكانوا سقاماً ، مصفرةً ألوانهم ، عظيمةً بطونهم ،

(١) هي سرية عبد الله بن رواحة إلى أُسير بن رزام .
(٢) في الأصل كعب وهو خطأ .
(٣) ويقال لها سرية كُرْز بن جابر .

فلم يوافقهم هواء المدينة ، فأمر لهم عليه الصلاة والسلام بذَوْد من الإبل(١) معها راعٍ ، وأمرهم باللحوق بها في مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها ففعلوا ، ولما تم شفاؤهم جازوا الإحسان كفراً ، فقتلوا الراعي ومَثَّلوا به ، واستقاموا الإبل ، فلما بلغ ذلك رسول الله أرسل وراءهم كُرز بن جابر الفِهري في عشرين فارساً فلحقوا بهم ، وقبضوا على جميعهم ، ولما جيء بهم إلى المدينة أمر عليه الصلاة والسلام أن يُمَثَّلَ بهم كما مَثَّلُوا بالراعي ، فَقُطعتْ أيديهم وأرجلُهم وسُمِرَتْ(٢) أعينُهم ، وأُلقوا بالحرّة حتى ماتوا ، فهكذا يكون جزاءُ الخائن الذي لا يُنتظر منه صلاح ، وعَمَلُ هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل ولؤم العشيرة ، وقد نهى رسول الله ﷺ بعد ذلك عن المُثْلة .

سرية(٣)

جلس أبو سفيان بن حرب يوماً في نادي قومه ، فقال : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غدراً فإنه يمشي بالأسواق لنستريحَ منه ؟ فتقدم له رجل وتعهد له بما أراد ، فأعطاه راحلةً ونفقةً وجهّزه لذلك . فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صُبْحَ سادسةٍ من خروجه ، فسأل عن رسول الله فَدُلَّ عليه وهو بمسجد بني عبد الأشهل ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال : إن هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله ما نعي منه فذهب لينحني على الرسول ، فجذبه أُسيد بن حضير من إزاره وهنالك سقط الخنجر ، فندم الرجلُ على فعلته ، ثم سأل عليه الصلاة والسلام عن سبب عمله فصدقه بعد أن توثّق من حفظ دمه فخلَّى عليه الصلاة والسلام سبيله . فقال الرجل : والله يا محمد ما كنتَ أخافُ الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم إنك اطّلعت على ما هَممتُ به مما

(١) الذود من الإبل : ما بين الثلاثة إلى العشرة . وقال أبو عبيد الذود من الإناث دون الذكور .
(٢) أي كُحلت بمسامير محميّة .
(٣) يقال لها : سرية عمرو بن أمية الضميري إلى أبي سفيان بن حرب .

لم يعلمه أحد ، فعرفتُ أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزبُ الشيطان ثم أسلم . وعند ذلك أرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضّمري(١)، وكان رجلاً جريئاً فاتكاً في الجاهلية ، وأصحبه برفيق(٢)، ليقتلا أبا سفيان غيلة جزاء اعتدائه ، فلما قدِما مكة توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له ، فعرف عَمْراً أحدُ رجال مكة فقال: هذا عمرو بن أُميّة ما جاء إلا بشر ، فلما رآهم علموا به لم يجد مَناصاً من الهرب ، فاصطحب معه رفيقه ، ورجعا إلى المدينة ، وكأن الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يُسَلِّمَ بيده مفاتيحَ مكة للمسلمين ، ويعتنق الدين الحنيفي القويم .

غزوة الحُدَيْبية(٣)

رأى عليه الصلاة والسلام في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، حذراً من أن تردّهم قريش عن عمرتهم ، ولكن هؤلاء الأعراب أبطأوا عليه لأنهم ظنوا ألّا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وتخلّصوا بأن قالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدّتهم ألفاً وخمسمائة(٤)، وولى على المدينة ابن أُم مكتوم ، وأخرج معه زوجه أُم سلمة ، وأخرج الهديَ لِيَعْلَمَ الناس أنه لم يأت محارباً ، ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في القُرُب ، لأن الرسول لم يرضَ أن يحملوا السيوف مجردة وهم معتمرون ، ثم سار الجيش حتى وصل عُسْفان(٥)فجاءه

(١) صحابي مشهور، عاش إلى خلافة معاوية، ومات بالمدينة.
(٢) هو سلمة بن أسلم بن حرِيْس.
(٣) الحديبية: قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة.
(٤) وفي الصحيحين ألف وأربعمائة.
(٥) موضع على مرحلتين من مكة. المؤلف.

عينه[1] يخبره أن قريشاً أجمعت رأيها أن يصدّوا المسلمين عن مكة وألّا يدخلوها عليهم عَنْوَةً أبداً . وتجهزوا للحرب ، وأعدّوا خالد بن الوليد في مائتي فارس طليعة لهم ليصدّوا المسلمين عن التقدم ، فقال عليه الصلاة والسلام : هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله . فسار بهم في طريق وعرة ثم خرج بهم إلى مستوٍ سهل يملك مكة من أسفلها ، فلما رأى خالد ما فعل المسلمون رجع إلى قريش وأخبرهم الخبر . ولما كان عليه الصلاة والسلام بثنيّة المِرَار[2] بركت ناقته . فزجروها فلم تقم ، فقالوا خلأَتِ القَصْوَاء[3] فقال عليه الصلاة والسلام ما خلأت وما ذلك لها بخُلُق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل[4]. والذي نفسُ محمد بيده لا تدعوني قريش لِخَصْلَة فيها تعظيمُ حرمات الله[5] إلا أجبتهم إليها ، مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت لظفروا بهم ، ولكن كَفَّ الله أيدي المسلمين عن قريش . وكفّ أيدي قريش عن المسلمين كيلا تُنتهك حُرمات البيت الذي أراد الله أن يكون حرماً آمناً ، يوطِّدُ المسلمون من جميع الأقطار دعائمَ أخوتهم فيه . ثم أمرهم عليه الصلاة والسلام بالنزول أقصى الحديبية[6] وهناك جاء بُدَيل بن وَرْقَاء الخُزاعي رسولاً من قريش يسأل عن سبب مجيء المسلمين ، فأخبره عليه الصلاة والسلام بمَقصده[7]، فلما رجع بُديل إلى قريش وأخبرهم بذلك ، لم يثقوا به لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله كما كانت لأجداده ، وقالوا : أيريد

(١) أي جاسوسه.
(٢) مهبط الحديبية. المؤلف.
(٣) خلأت: وبركت من غير علّة.
(٤) أي حبسها الله عن دخول مكة.
(٥) أي من ترك القتال في الحرم.
(٦) بئر قرب مكة سميت الحديبية باسمها. المؤلف.
(٧) قائلاً له: إنَّا لم نجيء لقتال أحد ولكنَّا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس.

محمدٌ أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عَنْوة ، وبيننا وبينهم من الحرب ما بيننا ؟ والله لا كان هذا أبداً ومنا عَيْن تَطْرف ! ثم أرسلوا حُلَيْسَ بن علقمة سَيِّد الأحابيش (وهم حلفاء قريش) ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: هذا مِنْ قوم يعظّمون الهَدْى ابعثوه في وجهه حتى يـراه، ففعلوا واستقبله الناس يُلَبُّون ، فلما رأى ذلك حُلَيْس رجع وقال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدُّوا أتحجُّ لخم وجذام وحمير ، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب ؟ هلكتْ قريش وربِّ البيت . إن القوم أَتوا معتمرين ! ! فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له : إجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك بالمكايد ، ثم أرسلوا عُرْوَةَ بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائفَ فتوجه إلى رسول الله وقال: يا محمد قد جمعتَ أوباشَ الناس[١]ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك لِتَفُضَّها[٢]بهم ! إنها قريش قد خرجت تعاهد الله ألاّ تدخلها عليهم عَنْوة أبداً . وايمُ الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك ، فنال منه أبو بكر وقال : نحن ننكشف عنه ؟ ويحك ! وكان عروة يتكلم وهو يمسّ لحية رسول الله ، فكان المغيرة بن شعبه[٣]، يقرع يده إذا أراد ذلك، ثم رجع عروى وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه، لا يتوضأ وُضُوءاً إلا كادوا يقتتلون عليـه يتمسحون بـه ، وإذا تكلموا خَفَضـوا أصواتهم عنده ، ولا يُحِدُّون[٤]النظر إليه[٥]، فقال : والله يا معشر قريش جئتُ كسرى في ملكه وقيصرَ في عظمته ، فما رأيتُ مَلِكاً في قومه مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يُسلمونه لشيء أبداً ، فانظروا رأيكم ، فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإني لكم ناصح ، مع أني أخاف ألاّ تنصروا عليه .

---

(١) الأوباش : الأخلاط من الناس.
(٢) لتكسرها.
(٣) أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها.
(٤) يحدون : يُديمون.
(٥) وكأنهم أرادوا بذلك الرد على ما خشيه عروة من فرارهم.

فقالت قريش : لا تتكلم بهذا ، ولكن نردّه عامنا ويـرجع إلى قـابل . ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مَقْصِده ، فتوجَّه وتوجَّه معه عشرة استأذنوا الرسول في زيارة أقاربهم ، وأمر عليه الصلاة والسلام عثمـان أن يأتي المستضعفين من المؤمنيم بمكـة ، فيبشرهم بقـرب الفتـح وأنّ الله مُظهِر دينه ، فدخل عثمان مكـة في جوار أبَـان بن سعيد الأموي[١] فَبَلَّغ ما حمـل ، فقـالوا : إن محمـداً لا يدخلهـا علينا عَنْـوة أبداً . ثم طلبـوا منه أن يـطوف بالبيت ، فقـال : لا أطوف ورسـول الله ممنوع ، ثم إنهم حبسـوه ، فشـاعَ عنـد المسلمين أنّ عثمان قُتلَ ، فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع ذلك : «لا نَبرح حتى نُنـاجزهم الحرب» .

بيعة الرضوان

ودعا الناسَ للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك[٢]ـ سميت بعد بشجرة الرضوان[٣]ـ على الموت[٤]، فشاعَ أمر هذه البيعة في قريش فداخلهم منها رعب عظيم، وكـانوا قـد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مِكْـرَزُ بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين لعلّهم يصيبون منهم غِرَّة[٥]، فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة وهرب رئيسهم ، ولما علمت بذلك قريش جاء جمـع منهم وابتدؤوا يناوشون المسلمين حتى أسر منهم إثنا عشر رجلاً وقُتل من المسلمين واحد .

---

(١) أبان بن سعيد بن العـاص القرشي الأمـوي ، أسلم يوم خيبـر وشهدهـا ، ومات النبي ﷺ وأبان على البحرين.

(٢) أمر عمر بقطعها زمن خلافته لما رأى تبرك الناس بها فليتأمل . المؤلف .

(٣) وعندها نزل قوله تعالى : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فـوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ (الفتح ١٠).

(٤) بايعوه على الموت أي على عدم الفرار مطلقاً فإما الفتح وإما الموت.

(٥) غرة : غفلة.

صلح الحدَيبية

وعند ذلك خافت قريش وأرسلت سهيل بنَ عمرو للمكالمة في الصلح ، فلما جاء قال : يا محمد إن الذي حصل ليس من رأي عقلائنا بل شيء قام به السفهاء منّا فابعث بمن أسرت ، فقال : حتى ترسلوا من عندكم . وعندئذ أرسلوا عثمان والعشرة الذين معه ، ثم عرض سهيل الشروط التي تريدها قريش وهي :

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنوات .

٢ ـ من جاء المسلمين من قريش يردّونه ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يُلزمون بردّه .

٣ ـ أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتي العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيف في القراب والقوس[1].

٤ ـ من أراد أن يدخل في عهد محمد من غير قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه .

فقبل عليه الصلاة والسلام كل هذه الشروط . أما المسلمون فداخلهم منها أمر عظيم وقالوا : سبحان الله ! كيف نَـرُدُّ إليهم من جاءنا مسلماً ، ولا يردّون مَنْ جاءهم مُرْتَداً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام إنه من ذهب منّا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً . أما الأمر الثالث وهو صدُّ المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً في قلوبهم لأن الرسول أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين ، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك فقال رضي الله عنه : وهل ذكر أنه في هذا العام ؟ ثم كُتبت

(١)وفي ابن هشام والسيرة الحلبية السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.

شروط الصلح بين الطرفين ، وكان الكاتب علي بن أبي طالب ، فأملاه عليه الصلاة والسلام : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سُهيل : أكتب باسمك اللهمّ ، فأمره الرسول بذلك ، ثم قال : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل ؛ لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك ، أكتب محمد بن عبدالله . فأمر عليه الصلاة والسلام عليّاً بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبدالله ، فامتنع فمحاها النبي بيده ، وكتبت نسختان نسخة لقريش ونسخة للمسلمين . وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جَنْدل بن سُهيل[1] يَحْجِلُ في قيوده[2]، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة ، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه ، فقال عليه الصلاة والسلام : إصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فَرجاً ومخرجاً ، إنَّا قد عقدنا بين القوم صُلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم . هذا ، وقد دخلت قبيلة خُزاعة في عهد رسول الله ودخل بنو بكر في عهد قريش .

ولما انتهى الأمر ، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدي ليتحلّلوا من عمرتهم ، فاحتمل المسلمون من ذلك هَمَّاً عظيماً ، حتى إنهم لم يبادروا بالإمتثال ، فدخل عليه الصلاة والسلام على أُم المؤمنين أُم سلمة وقال لها : هلك المسلمون أمرتهم فلم يمتثلوا ، فقالت : يا رسول الله أعذرهم ، فقد حمَّلت نفسك أمراً عظيماً في الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون ، ولكن اخرجْ يا رسول وابدأهم بما تريد فإذا رأوْكَ فعلت تبعوك ، فتقدم عليه الصلاة والسلام إلى هديه فنحره ودعا بالحلّاق فحلق رأسه ، فلما رآه المسلمون تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا ، ثم رجع المسلمون إلى المدينة، وقد أمن كلّ فريق الآخر. ولما قرَّ قرارهم

(١) كان من السابقين إلى الإسلام، وممّن عذّب بسبب إسلامه عذاباً شديداً.
(٢) أي يمشي بطيئاً.

جاءتهم مهاجرة أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأُمة، فطلبها المشركون فقالت يا رسول الله إني امرأة وإن رجعت إليهم فتنوني في ديني فأنزل الله في سورة الممتحنة : ﴿ يَا أَيُّها الذِيْنَ آمنُوا إذَا جَاءَكُمُ المؤْمِنَاتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإيْمَانِهنَّ فَإنْ عَلِمْتُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعوهُنَّ إلى الكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهنَّ إِذَا آتَيْتُموهُنَّ أُجُورهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوافِرِ وَاسأَلوا مَا أَنْفَقْتُم وَلْيَسألوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ﴾[1]فكانت المرأة المهاجرة تُستحلَف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلاّ حبّاً لله ولرسوله ، ومتى حلفت لا تردّ بل يُعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ، ويجوز للمسلم تزوجها . وفي الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة بل ترد إلى أهليها بعد أن يعطوا ما أنفقوا عليها (وقد تمكن) أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي[2]رضي الله عنه من الفرار إلى رسول الله ، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فأمره عليه الصلاة والسلام بالرجوع معهما ، فقال يا رسول الله : أتردّني إلى الكفار يفتنونني في ديني بعد أن خلّصني الله منهم ؟ ! فقال : إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً ، فلم يجد بدّاً من اتّباعه ، فرجع مع صاحبيه ، ولما كان بذي الحُليفة عدا على أحدهما فقتله ، وهرب منه الآخر ، فرجع إلى المدينة وقال : يا رسول الله وفَتْ ذمتك أما أنا فنجوت ، فقال له : اذهب حيث شئت ولا تُقِمْ بالمدينة ، فذهب إلى محل بطريق الشام تمرّ به تجارة قريش ، فأقام به واجتمع معه جمع ممّن كانوا مسلمين بمكة ونجَوا ، وسار إليه أبو جندل بن سهيل ، واجتمع إليه جمع من الأعراب ، وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الإمداد ، فأرسل رجال قريش لرسول الله يستغيثون به في إبطال هذا

(١) سورة الممتحنة الآية : ١٠ .

(٢) مشهور بكنيته، ثبت ذكره في قصة الحديبية عند البخاري .

الشرط ويعطونه الحق في إمسَاك من جاءه مسلماً ، فقبل منهم ذلك ، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمّة التي لم يتمكنوا من تحمّلها في الحديبية حينما أمرهم عليه الصلاة والسلام بردّ أبي جندل ، وعلموا أن رأي رسول الله أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمن ، تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين ، فخالطت بشاشة الإسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه : ما كان فتح في الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عمّا كان بين محمد وربَّه ، والعبادُ يَعْجَلُون والله لا يَعْجَل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد . وفي رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه في أولها : ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْنَاً ﴾[١]وفي تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديق لما قدّمنا لك عن الصديق[٢].

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحدَيبية في أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش ، كاتب عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته[٣]، وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجَّه دِحْيَه الكلبي[٤] بكتاب إلى قيصر ملك الروم ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ليوصله إلى الملك .

كتاب قيصر

وكان في الكتاب : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من محمد بن عبدالله

---

(١) سورة الفتح الآية : ١ .
(٢) أخرج البخاري حديث الحديبية وأخرجه مسلم مختصراً في الجهاد والسِّيَر.
(٣)لأنه قيل له : إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا إذا كان مختوماً .
(٤) دحية بن خليفة الكلبي ، صحابي مشهور.

إلى هِرَقْل عظيم الروم ، سلام على من اتّبع الهُدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلَم يؤتك الله أجرك مرتين[1]، فإن توليت فإنما عليك إثم الأَرِيْسِيِّين[2]: ﴿ ويا أهْلَ الكتَابِ تَعَالوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُد إلا اللَّهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شيئاً ، ولاَ يتَّخِذَ بعضُنَا بعضاً أرْباباً مِنْ دُونِ الله ، فَإنْ تولّوا فَقولُوا اشهَدُوا بأَنَّا مُسلِمُون ﴾[3].

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال : انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة ، فجاءت رُسُل قيصر لأبي سفيان وَدَعَوه لمقابلة الملك فأجاب، ولما قدموا عليه في القدس قال لترْجُمانه : سَلْهُمْ أيّهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، فقال أبو سفيان : أنا ، لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيره ، فقال قيصر : أُدنُ منّي ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدّمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من ردّ كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل تكلّم بهذا القول أحدٌ منكم قبله ؟ لا ، قال ؛ هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا ، قال : فأشراف الناس يَتَّبعُونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : فهل يزيدون أم ينقصون ،

---

(١) وإعطاؤه الأجر مرتين لكونه كان مؤمناً بنبيّه، ثم آمن بمحمد ﷺ .

(٢) الفلاحين. المؤلف.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٦٤ .

قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتدّ أحد منهم سَخْطة لـدينه(1)؟ قـال : لا . قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال : قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه سِجَال(2) مرة لنا ومرة علينا ، قال : فَبِمَ يأمُركم ؟ قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، وينهى عمّا كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

فقال الملك : إني سألتك عن نسبه فزعمتَ أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسلِ تُبْعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فزعمتَ أنْ لا ، فلو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ رجلٌ يأتمُّ بقولٍ قيل قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فزعمتَ أنْ لا ، فقلت : ما كان ليذرَ الكذبَ على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ؟ فقلت لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب مُلك أبيه ، وسألتك أأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلتَ : بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت : بل يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتدّ أحد منهم سَخْطة لدينه ؟ فقلت : لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب(3)، وسألتك : هل قاتلتموه ؟ فقلت : نعم ، وإن الحرب بينكم وبينه سِجال ، وكذلك الرُسُل تُبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك : بماذا يأمر ؟ فزعمتَ أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمتُ أنه نبيٌ ، وقد علمتُ أنه مبعوث ، ولم أظن أنه فيكم ، وإن كان ما كلّمتني به حقاً فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين ، ولو أعلم أني

(1) أي كراهة له .
(2) أي مرة لنا ومرة له .
(3) لأن حلاوة الإيمان إذا دخلت قلباً لا تخرج منه .

أخلص إليه(١)لتكلفت ذلك ، قال أبو سفيان : فعلَتْ أصواتُ الذين عنده وكثر لَغَطُهم فلا أدري ما قالوا وأُمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر(٢)!

ولما سار قيصر إلى حمص أَذِن لعظماء الروم في دَسْكَرة له(٣) ، ثم أمر بأبوابها فأُغلقت ثم قال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت مُلككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا(٤)حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال : ردّوهم عليَّ ، فقال لهم : إني قلت مقالتي أختبر بها شدّتكم على دينكم فسكتوا له ورضوا عنه(٥)، فغلبه حُبُّ مُلكه على الإسلام ، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام ولكنه ردّ دِحية ردّاً جميلاً .

كتاب أمير بُصرى

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بُصرى فلما بلغ مؤته (وهي قرية من عمل البلقاء بالشام) تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني ، فقال له : أين تريد! قال : الشام ، قال : لعلّك من رُسُل محمد؟ قال : نعم ، فأمر به فضُرِبَتْ عنقه ، ولم يُقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره وقد وَجَدَ(٦)لذلك وَجْداً شديداً .

(١) أي أصل إليه .
(٢) ابن أبي كبشة قصد به النبي ﷺ للتهكم والإستهزاء .
(٣) الدسكرة : القصر الذي حوله بيوت .
(٤) أي نفروا .
(٥) أخرجه البخاري في بدء الوحي .
(٦) وجد : حزن .

كتاب الحارث بن أبي شِمْر

ووجّه عليه الصلاة والسلام شجاعَ بن وهب[1]إلى أمير دمشق من قِبَل هرقل الحارث بن أبي شِمْر ، وكان يقيم بغوطتها وفيه (بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر ، سلام عى من اتّبع الهدى وآمن بالله وصدّق وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك) فلما قرأ الكتاب رمى به ، وقال من ينزعُ مُلكي منّي ، واستعدّ ليرسلَ جيشاً لحرب المسلمين ، وقال لشجاع أخبر صاحبك بما ترى ، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك ، وصادف أن كان عنده دِحية فكتب قيصرُ إليه يَثنيه عن هذا العزم ويأمره أن يهيىء بإيليا[2]ما يلزم لزيارته ، فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها ، فلما رأى الحارثُ كتاب قيصر صرفَ شجاعَ بن وهب بالحسنى ووصَلَهُ بنفقة وكسوة .

كتاب المُقَوْقِس[3]

ووجّه عليه الصلاة والسلام حاطبَ بن أبي بَلْتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر، وكان فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على مَن اتبع الهدى أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلمْ تَسْلَم يُؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليتَ فإنما عليك إثم القبط ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة. . . الآية)[4]فأوصله له حاطب بإسكندرية ، فلما قرأه قال : ما منعه إن كان نبيّاً أن يدعو على مَن خالفه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ألستَ تشهدُ أن عيسى بن مريم رسولُ الله ،

---

(١) من السابقين الأولين . وذكر ابن هشام وغيره أن شجاع انما توجه إلى جبلة بن الأيهم.

(٢) اسم مدينة بيت المقدس.

(٣) هو لقب لكل مَنْ حكم مصر.

(٤) سورة آل عمران الآية : ٦٤ .

فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألّا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه ؟ قال : أحسنت ! أنت حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال : إني قد نظرتُ في أمر هذا النبي فوجدتُ أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهي عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضّالّ ، ولا الكاهن الكذاب ، ووجدتُ معه آلة النبوّة(١): إخراج الغائب المستور ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

ثم كتب ردّ الجواب يقول فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم : لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيمِ القبط ، سلام عليك أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرت فيه ، وما تدعو إليه ، وقد علمتُ أن نبياً قد بقي وكنتُ أظن أنه يخرجُ بالشام ، وقد أكرمتُ رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط وبثياب ، وأهديت إليك بغلة تركبها . والسلام) وإحدى الجاريتينِ مارية التي تسرّى بها عليه الصلاة والسلام ، وجاء منها بولده إبراهيم والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ولم يسلم المقوقس(٢).

كتاب النَّجَاشي

ووجه عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الضَّمري بكتاب إلى النجاشي(٣) ملك الحبشة وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة سلام . أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلّا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة

(١) أي : علامة النبوّة.

(٢) بل استمر على نصرانيته.

(٣) النجاشي : لقب لكل من حكم الحبشة.

على طاعته ، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني ، فإني رسول الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ ، وقد بلّغتُ ونصحتُ ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى) ولما وصله الكتاب احترمه غاية الإحترام ، وقال لعمرو : إني أعلم والله أن عيسى بَشَّرَ به ، ولكنَّ أعواني بالحبشة قليل فأنظرني حتى أُكَثِّر الأعوانَ وأُلَيِّنَ القلوب . وقد عرض عمرو على مَنْ بقي من مهاجري الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة ، وكان من المهاجرين أُم حبيبة بنت أبي سفيان زوج عبيد الله بن جحش الذي كان أسلم وهاجر بها ، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصّر فتزوج عليه الصلاة والسلام أُمّ حبيبة وهي بالحبشة ، والذي زوّجها له النجاشي بتوكيل منه عليه الصلاة والسلام .

كتاب كِسرى

ووجّه عليه الصلاة والسلام عبدالله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس[1]وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتَّبَعَ الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين ، أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فلما وصله الكتاب مَزَّقَهُ استكباراً ولما بلغه عليه الصلاة والسلام ذلك قال : (مزَّق الله مُلكه كل ممزّق) وقد فعل ، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان ، فأرسل لعامِله باليمن أن يوجّه إلى الرسول مَن يأتي به إليه فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقَتْلِهِ له ثم أرسل لعامِله في اليمن ينهاه عمّا أمره به أبوه .

---

(١) كسرى : لقب لكل من ملك الفرس.

كتاب المنذر بن ساوى

ووجّه عليه الصلاة والسلام العلاءَ بن الحضرمي[1] بكتاب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين يدعوه إلى الإسلام وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم أسلم أنت ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلّه إلاّ هو . أما بعد : فإن مَنْ صلى صلاتنا واستقبل قِبلتنا . وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم له ذمة الله وذمّة الرسول ، مَنْ أحبّ ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فإن عليه الجزية) فأسلم وكتب في رد الجواب (أما بعد يا رسول الله : فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم مَنْ كرهه ، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إليّ في ذلك أمرك فكتب إليه عليه الصلاة والسلام بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوَى سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إلّه إلاّ هو وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد : فإني أذكرك الله عزّ وجلّ فإنه مَنْ ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يُطِعْ رُسُلي ويتّبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رُسلي قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفَّعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك[2] عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية) .

كتاب مَلِكي عُمَان

ووجّه عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص[3] بكتاب إلى جَيفر وعبد ابني الجُلَنْدي ملكَي عمان وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله

---

(١) استعمله النبي ﷺ على البحرين، وكان يقال إنه مُجاب الدعوة.

(٢) في الأصول: فلن نعزلك.

(٣) ذكر المؤلف كتاب ملكي عُمان هنا في السنة السادسة للهجرة مع العلم أن عمراً لم يسلم بعد وسيأتي إسلامه فيما بعد في السنة السابعة.

إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ، سلام على مَن اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعِوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيّاً ويحقّ القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيتكما ، وإن أبيتما فإن ملككما زائل ، وخيلي تحلّ بساحتكما وتظهر نبوّتي على ملككما) .

فلما دخل بناديهما عمرو سأله عبد بن الجلندي عمّا يأمر به الرسول وينهي عنه ، فقال : يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ : وينهي عن معصيته ، ويأمر بالبرّ وصلة الرحم ، وينهي عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ، فقال : ما أحسن هذا الذي يدعو إليه ولو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدّق به ، ولكن أخي أضنّ(١) بمُلْكه من أن يدعه ويصير تابعاً : قال عمرو : إن أسلم أخوك مَلَّكهُ رسول الله على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيّهم فردّها على فقيرهم ، فقال عبد : إن هذا لخُلقٌ حسن . وما الصدقة ؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال ، ولما ذكر المواشي قال : يا عمرو يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه ؟ قال : نعم ، فقال عبد : والله ما أرى قومي على بُعد دراهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا . ثم إن عبداً أوصل عَمْراً لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو بما ألانَ قلبه حتى أسلم هو وأخوه ومَكَّناه من الصدقات .

كتاب هُوْذَة بن علي

ووجّه عليه الصلاة والسلام سَلِيْط بن عمرو العامري بكتاب إلى هُوْذة بن علي ملك اليمامة وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هُوْذَة بن علي . سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى

---

(١) أي أبخل.

الخف والحافر[1]. فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك) فلما جاءه الكتاب كتب في ردّه (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر اتبعك)[2]ولما بلغ ذلك رسول الله قال لو سألني قطعة من الأرض ما فعلتُ ، بادَ وباد ما يديه[3]، فلم يلبث أن مات مُنصَرَف الرسول ﷺ من فتح مكة ، وكان عليه الصلاة والسلام يولّي على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

---

(١) المراد أنه سيصل الإسلام إلى أقصى البلاد.
(٢) كأنه أراد أن يشاركه في النبوّة.
(٣) أي هلك.

السنة السابعة

غزوة خيبر

وفي محرم السنة السابعة أمر عليه الصلاة والسلام بالتجهيز لغزو يهود خيبر[1]، الذين كانوا أعظم مُهَيِّجٍ للأحزاب ضد رسول الله في غزوة الخندق، والذين لا يزالون مجتهدين في محالفة الأعراب ضد رسول الله كما قدّمنا ذلك في قصة كعب بن الأشرف ، وقد استنفر رسولُ الله لذلك مَنْ حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية ، وجاء المخلَّفون عنها ليؤذَن لهم فقال عليه الصلاة والسلام : لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد ، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئاً ، وأمر منادياً ينادي بذلك ، ثم خرج عليه الصلاة والسلام بعد أن ولَّى على المدينة سِبَاعَ بن عُرْفُطَةَ الغفاري[2]. وكان معه من أزواجه أُمّ سلمة ، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي ، رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء ، فقال : عليه الصلاة والسلام : « ارفقوا بأنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم »[3].

---

(١) خيبر : هي مدينة كبيرة ذات حصون .

(٢) وقيل : نميلة بن عبد الله الليثي .

(٣) كان هذا التكبير من الصحابة رضي الله عنهم عقب رجوعهم من خيبر وهم في الطريق لا كما =

وكانت حصون خيبر ثلاثة منفصلاً بعضهـا عن بعض ، وهي : حصون «النَّـطَاة» ، وحصون «الشَّق» وحصـون «الكثيبة»[1] والأولى ثـلاثة : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة ، والثانية حصنان : حصن أبيّ ، وحصن البريء ، والثالثة ثلاثة حصون : حصن القَمُـوص وحصن الوَطِيْـح ، وحصن السُّلاَلِم ، فبدأ عليه الصلاة والسلام بحصون النطاة ، وعسكر المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل ، وأمر عليه الصلاة والسلام أن يقطع نخلهم ليرهبهم حتى يسلموا فقطع المسلمون نحو أربعمائة نخلة . ولما رأى عليه الصلاة والسلام تصميم اليهود على الحرب نهى عن القطع ، ثم ابتدأ القتال مع (حصن ناعم) بالمراماة ، وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين فلم يصنع في ذلك اليوم شيئاً ، وفيه مات محمود بن مسلمة[2] أخو محمد بن مسلمة ، وصار عليه الصلاة والسلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة ، ويخلّف على العسكر أحد المسلمين ، حتى إذا كانوا في الليلة السادسة ، ظفر حارس الجيش وهو عمر بن الخطاب بيهودي خـارج في جوف الليـل ، فأتى بـه رسول الله عليـه الصلاة والسلام ، ولما أدرك الرجل الـرعب قال : إن أَمَّنْتُمـوني أدلّكم على أمـر فيـه نجاحكم . فقالوا دُلَّنا فقد أَمَّنَّاك ، فقال : إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب ، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق ، وسيخرجون لقتالكم غداً ، فإذا فتـح عليكم هذا الحصن غـداً فإني أدلّكم على بيت فيـه منجنيق ودبابات[3] ودروع وسيوف يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون ، فإنكم تنصبون المنجنيق ، ويدخل الرجال تحت الـدبابـات ، فينقبون الحصـون فتفتحه من يومك ، فقال عليه الصلاة والسلام لمحمد بن مسلمة : سأُعطي الراية غداً رجلاً

= ذكر المؤلف لأن راوي الحديث أبـو موسى الأشعـري قدم على النبي وقـد أوشك أمـر خيبر أن يتم.

(١) في الأصل: قدم الكثيبة على الشق.

(٢) شهد أُحُداً والخندق والحديبية وخيبر وقتل يومها شهيداً.

(٣) الدبابة: آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن.

يحبّ الله ورسوله ويحبّانه ، فبات المهاجرون والأنصار كلهم يتمنّونها ، حتى قال عمر بن الخطاب : ما تمنيت الإمارة إلا ليلتئذ ، فلما كان الغد سأل عليه الصلاة والسلام عن علي بن أبي طالب فقيل له إنه أرمد ، فأرسل مَنْ يأتيه به ، ولما جاء تَفَلَ في عينيه فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شيء ، ثم أعطاه الراية[1]، فتوجه مع المسلمين للقتال ، وهناك وجدوا اليهود متجهزين ، فخرج يهودي يطلب البِرَاز فقتله علي ، ثم خرج مَرْحَبُ وهو أشجع القوم فألحقه برفيقه[2]، فخرج أخوه ياسر فقتله الزبير بن العوّام : ثم حملَ المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم ، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة وانهزم الأعداء إلى الحصن الذي يليه (وهو حصن الصعب) وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر ، ثم تتبعوا اليهود إلى حصن الصعب ، فقاتل عنه اليهود قتالاً شديداً حتى رُدّ عنه المسلمون ، ولكن ثبت الحُبَابُ بن المنذر ومن معه ، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى هزموا اليهود فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن ، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام فأمر عليه الصلاة والسلام منادياً يقول : كلوا واعلفوا دوابّكم ولا تأخذوا شيئاً ، ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن (حصن قلة) فتبعهم المسلمون ، وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحه ، وفي اليوم الرابع دلّهم يهودي على جداول الماء التي يستقي منها اليهود ، فمنعوها عنهم فخرجوا وقاتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشقّ ، فتبعهم المسلمون وبدأوا (بحصن أُبيّ) ، فخرج أهله ، وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دجانة الأنصاري بلاءً حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عنوة ، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً ومتاعاً وغنماً

(١) فقال علي : يا رسول الله أُقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، فقال : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النعم .

(٢) توهم العبارة أن الذي قتل مرحب هو علي ، والذي في ابن هشام : أن الذي قتله هو محمد بن مسلمة ، ولعلّه الصواب .

وطعاماً ، وهرب المنهزمون منه إلى (حصن البريء)، فتمنعوا به أشد التمنّع ، وكان أهله أشدّ اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسول الله بعض منه ، فنصب المسلمون عليه المنجنيق فوقع في قلب أهله الرعب ، وهربوا منه من غير عناء شديد . فوجد فيه المسلمون أواني لليهود من نحاس وفخار ، فقال عليه الصلاة والسلام : اغسلوها واطبخوا فيها . ثم تتبّع المسلمون بقايا العدو إلى حصون الكثيبة ، وبدأوا (بحصن القَموص) ، فحاصروه عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد علي بن أبي طالب ، ومنه سُبيت صفية بنت حُيي بن أخطب ، ثم سار المسلمون لحصار حصني (الوَطيح والسُلالم) ، فلم يقاوم أهلهما بل سلّموا طالبين حقن دمائهم ، وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره ، فأجابهم رسول الله إلى ذلك ، وغنم المسلمون من هذين الحصنين مائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح ، وخمسمائة قوس عربية ، ووجدوا صحفاً من التوراة فسلّموها لطالِبيها . وقد أمر عليه الصلاة والسلام بقتل كنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق لأنه أنكر حلي حيي بن أخطب وقد عثر عليها المسلمون ، فوجدوا فيها أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجواهر والزمرد وغير ذلك .

هذا والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسة عشر رجلاً ، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً ، وفي هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود[1] كراع شاة مسمومة لرسول الله فأخذ منها مضغة ثم لَفَظَها حيث أُعلم أنها مسمومة ، وأكل منها بِشْر بن البراء[2] فمات لوقته ، واحتجم رسول الله ﷺ وجيء له بالمرأة التي فعلت هذه الفعلة فسألها عن سبب ذلك فأجابت : قلت إن كان نبيّاً لن يضرّه ، وإن كان كاذباً أراحنا الله منه ، فعفا عنها عليه الصلاة والسلام[3].

(١) هي زينب بنت الحارث امرأة سلام .
(٢) ابن معرور الأنصاري الخزرجي ، شهد العقبة وبدراً وما بعدها ، وكان من الرماة المشهورين .
(٣) اختلف العلماء هل قتلها النبي ﷺ أم لا ؟ .

زواج صفية[1]

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه الصلاة والسلام صفية بنت حيي سيد بني نضير وأصدقها عِتْقَهَا ، وقد أسلمت رضي الله عنها ، فشُرِّفت بأُمومة المؤمنين .

النهي عن نكاح المتعة

ونهى عليه الصلاة والسلام وهو بخيبر عن نكاح المتعة ، وهي النكاح لأجل وقد كان حلالاً في الجاهلية ، واستعمل في بدء الإسلام حتى حرّمه الشرع في هذه السنة ونهى كذلك عن أكل لحوم الحُمُر الأهلية فأكفأ المسلمون قدورها بعد أن نضجت ولم يطعموها .

رجوع مهاجري الحبشة

وحين رجوع المسلمين من خيبر قدِم من الحبشة جعفر بن أبي طالب ومعه الأشعريون أبو موسى وقومه ، بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين ، وفرح عليه الصلاة والسلام بمقدمهم فرحاً عظيماً[2]، وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً ، وكان مع جعفر أُمّ حَبيبة بنت أبي سُفيان أُمّ المؤمنين ، وقدم في هذا الوقت على النبي عليه الصلاة والسلام الدوسيون إخوان أبي هريرة رضي الله عنه وهو معهم ، فأعطاهم أيضاً رسول الله ﷺ[3].

---

(١) كانت في الجاهلية من ذوات الشرف.

(٢) وفي سيرة ابن هشام ٢ / ٣٥٩، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قدم على رسول الله يوم فتح خيبر، فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه.

(٣) وقد قسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر فأعطى الراجل سهماً والفارس ثلاثة بعد أن خمسها ثم

فتح فَدَك

وبعد تمام الفتح أرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يطلب من يهود فدك(١) الإنقياد والطاعة فصالحوا رسول الله على أن يحقن دماءهم ويتركوا الأموال . وكانت أرض فدك هذه لرسول الله خاصّة يُنفق منها على نفسه ، ويعول منها صغير بني هاشم ويزوج منها أيِّمهم(٢).

صلح تيماء

ولما بلغ يهود تيماء(٣) ما فعله المسلمون بيهود خيبر صالحوا على دفع الجزية ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين .

فتح وادي القُرى

ثم دعا عليه الصلاة والسلام يهودَ وادي القرى(٤) إلى الإستسلام فأبوا وقاتلوا ، فقاتلهم المسلمون ، وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً ، وغنموا منهم مغانم كثيرة ، خَمَّسها عليه الصلاة والسلام ، وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يُخرجون منها ، وكذلك صنع بأرض خيبر ، وكان يرسل إليهم عبدالله بن رواحة لتقدير الثمر ، وكان تقديره شديداً عليهم فأرادوا أن يرشوه ، فقال لهم : يا أعداء الله تعطوني السُّحت(٥)! والله لقد جئتكم من عند أحبّ الناس إليّ ، ولأنتم

= دفع لأهل خيبر الأرض ليعملوا فيها بشطر ما يخرج منها من ثمر وزرع وقال لهم (إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم) عن السيرة الحلبية .

(١) حصن قريب من خيبر على ست ليالٍ من المدينة . المؤلف .

(٢) الأيّم : من لا زوج لها بكراً أو ثيّباً .

(٣) قرية على ثمان مراحل من المدينة .

(٤) ويقال لها أيضاً غزوة وادي القرى، وهو وادٍ بين المدينة والشام .

(٥) السحت : الحرام .

أبغض إليّ من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي إيّاكم وحبّي إياه على ألاّ أعدل . هذا وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر ، مهما كان من الفريقين من العهود والمواثيق . ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين .

اسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين وهم : خالد بن الوليد المخزومي ، وعمرو بن العاص السهمي[1]، وعثمان بن طلحة العبدري[2]فسُرّ بهم عليه الصلاة والسلام سروراً عظيماً وقال لخالد : (الحمد لله الذي هداك ، قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت ألاّ يسلمك إلا إلى خير) فقال : يا رسول الله ادعُ الله أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « الإسلام يقطع ما قبله »[3].

سرية[4]

وفي شعبان بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من هوازن بتُربَة[5] يظهرون العدواة للمسلمين ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً ، فسار إليهم . ولما بلغهم الخبر تفرقوا فلم يجد بها عمر أحداً فرجع .

---

(١) أسلم عمرو بن العاص قبل الفتح في صَفَر سنة ثمانٍ .
(٢) في الأصل : عثمان بن أبي طلحة وهو خطأ ، لأن عثمان بن أبي طلحة قتل في غزوة أُحُد كافراً .
(٣) فإن الاسلام يجبّ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها .
(٤) هي سرية عمر بن الخطاب إلى تُرَبة .
(٥) وادٍ بالقرب من مكة على مسافة يومين منها . المؤلف .

سرية[1]

ثم أرسل بشير بن سعد الأنصاري لقتال بني مرّة بناحية فـدَك فلما ورد بلادهم لم يرَ منهم أحداً فأخذ نَعَمَهم وانحدر إلى المدينة أما القوم فكانوا في الوادي ، فجاءهم الصريخ فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع فتراموا بالنبل . ولما أصبح الصبح اقتتل الفريقان قتالاً شديداً حتى قُتِل غالبُ المسلمين ، وجُرِحَ بشير جرحاً شديداً حتى ظن أنه مات ، ولما انصرف عنه العدو تحامل حتى جاء إلى رسول الله وأخبره الخبر .

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبدالله الليثي[2] إلى أهل الميفَعَة[3] في مائة وثلاثين رجلاً فساروا حتى هجموا على القوم فقتلوا بعضاً وأسروا آخرين ، وفي أثناء الحرب طارد أُسامة بن زيد رجلاً من المشركين ، ولما رأى المشرك الموت في يد أُسامة تشهَّد فظن أُسامةُ أن عدوّه إنما قال ذلك تخلصاً فقتله ، ولما رجع المسلمون إلى المدينة ، وأُخبر رسول الله بفعلة أُسامة قال : أقتلته بعد أن قال : لا إلّه إلاّ الله ، فكيف تصنع بلا إلّه إلاّ الله ؟ ! قال : يا رسول الله إنما قالها متعوذاً[4] من القتل ، قال عليه الصلاة والسلام : فهلاّ شققت عن قلبه فتعلم أصادق أم كاذب ؟ ! فقال يا رسول الله : استغفر لي . قال عليه الصلاة والسلام : فكيف بلا إلّه إلاّ الله ! ! فما زال يكررها حتى تمنى أُسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم[5]، وأنزل الله في ذلك في سورة النساء : ﴿ولَا تَقُولُوا لِمنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لستَ مُؤمِناً تَبْتَغُونَ عرَض الحَياةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ

(١) هي سرية بشير بن سعد إلى بني مرّة بفدك .
(٢) هي سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة .
(٣) على ثمانية بُرد من المدينة بناحية نجد . المؤلف .
(٤) أي لم يكن قاصداً للإيمان .
(٥) ليخلص من جريرة هذه الفعلة .

اللَّهِ مَغانِم كَثِيْرَة ﴾[1]ثم أمر عليه الصلاة والسلام أُسامة أن يعتق رقبة كفارة لأنه قتل خطأ .

سرية[2]

وفي شوال بلغه عليه الصلاة والسلام أن عُيينة بن حصن واعدَ جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها يَمُن وجَبَار للإغارة على المدينة ، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلاثمائة رجل ، فساروا إليهم يكمنون النهار ، ويسيرون الليل حتى أتوا محلتهم ، فأصابوا نعماً كثيرة ، وتفرق الرِّعاء فأخبروا قومهم ففزعوا ولحقوا بعُلْيا بلادهم ، ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما ، ثم رجعوا بالغنائم إلى المدينة .

عمرة القضاء[3]

لما حالَ الحول على عمرة الحديبية خرج عليه الصلاة والسلام بمن صُدّ معه فيها ليقضي عمرته ، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري ، وساق معه الهدي ستين بدنة ، وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش ، وكان معه مائة فرس عليها محمد بن مسلمة وعلى السلاح بشير بن سعد ، وأحرم عليه الصلاة والسلام من باب المسجد المدني ، ولما انتهى إلى ذي الحُلَيفة قدَّم الخيل أمامه ، فقيل : يا رسول الله ، حملت السلاح ، وقد شرطوا ألّا تحمله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : لا ندخل الحرم به ولكن يكون قريباً منّا ، فإن هاجَنا هائج فزعنا له . فلما كان بمرِّ الظَّهْران قابله نفرٌ من قريش ، ففزعوا من هذه العدّة ، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم فجاءه فتيان منهم وقالوا : والله يا محمد

---

(١) سورة النساء الآية : ٩٤.

(٢) هي سرية بشير بن سعد إلى يَمن.

(٣) وسميت بذلك لأنه عاهد فيها قريشاً سنة الحديبية.

ما عُرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً ، وإنّا لم نحدث حَدَثاً ! ! فقال : إنّا لا ندخل الحرم بالسلاح . ولما حان وقت دخوله مكة خرج أهلوها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت ، فدخل عليه الصلاة والسلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثَنِيَّة كداء[1] وأمامه عبد الله بن رواحة يقول : لا إلّه إلّا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده . وطاف عليه الصلاة والسلام بالبيت وهو على راحلته واستلم الحجر بمحجنه[2]، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة لأن المشركين قالوا : سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حُمَّى يثرب ، فقال عليه الصلاة والسلام : رحم الله امرأً أراهم من نفسه قوة ، واضطبع[3] عليه الصلاة والسلام بردائه ، وكشف عضده اليمنى شأن الفتوّة وفعل مثله المسلمون ، وقد أتمّ المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصرين كما رأى عليه الصلاة والسلام في منامه .

زواج ميمونة[4]

وتزوج ﷺ وهو بمكة ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج عمه حمزة بن عبد المطلب شهيد أُحُد[5] ، وخالة عبد الله بن العباس - وهي آخر نسائه زواجاً - ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة حيث كان بِسرف[6] ، ولما خرج عليه الصلاة والسلام أمر الذين كان تركهم لحراسة الخيل بالذهاب ليطوفوا ففعلوا ، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فرحاً ومسروراً بما حَباه الله من تصديق رؤياه .

---

(١) الثنية : كل عقبة مسلوكة .

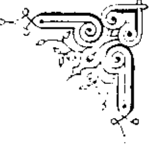
(٢) عصا معوجّة الرأس .

(٣) الإضطباع : أن يجعل الرجل وسط ردائه تحت منكبه الأيمن عند إبطه .

(٤) ميمونة - أم المؤمنين - بنت الحارث ، كان اسمها برّة فسمّاها النبي ﷺ ميمونة .

(٥) لم تكن ميمونة زوج عمه حمزة كما ذكر المؤلف بل كانت زوج أبي رُهم بن عبد العزّى .

(٦) موضع قرب التنعيم .



السنة الثامنة

سرية[1]

وفي صَفَر أرسل عليه الصلاة والسلام غالب بن عبد الله الليثي إلى بني المُلَوِّح ، وهم قوم من العرب يسكنون بالكَدِيد[2] ، فسار القوم حتى إذا كانوا بقُدَيد التقوا بالحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء ، وكان خصماً لدوداً فأسروه ، فقال لهم: ما جئت إلا للإسلام ، فقالوا له : إن تكن مسلماً لن يضرّك رباط ليلة وإلا استوثقنا منك ، ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني الملوّح فاستاقوا النَعَم والشاء ، وخرج الصريخ إلى القوم فجاءهم ما لا قبل لهم به ، ولكن منّ الله على المسلمين ، فأرسل سيلاً شديداً حالَ بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نَعَمَهم تُساق وهم لا يقدرون على ردّها .

سرية[3]

ولما رجع غالب إلى المدينة ظافراً أرسله عليه الصلاة والسلام في

(١) هي سرية غالب بن عبد الله الليثي .
(٢) ماء بين عسفان وقديد .
(٣) هي سرية غالب.

مائتي رجل ليقتصّ من بني مرّة بفدك وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم خطب غالب فيمن معه ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (أما بعد فإني أُوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فإنه لا رأي لمن لا يُطاع) ثم آخى بين الجند فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان لا يفارق أحد منكم زميله ، وإيَّاكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له : أين صاحبك ؟ فيقول : لا أدري ، فإذا كبَّرت فكبِّروا ، فلما أحاطوا بالعدو ، وكبّر كبّروا ، وجرّدوا السيوف ، فلم يفلت من عدوهم أحد واستاقوا نعمهم ، فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعِرة .

سرية[1]

وفي ربيع الأول أرسل عليه الصلاة والسلام كعب بن عُمير الغفاري[2] إلى ذات أطلاح[3] من أرض الشام في خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعاً كثيراً فدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا وقاتلوا ، وكانوا أكثر عدداً ، فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب بن عمير فإنه نجا ، وأتى بالخبر إلى رسول الله فَشَقّ عليه ، وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم ، فبلغه أنهم تحوَّلوا من منزلهم فعدل عن ذلك .

غزوة مُؤتة[4]

جهَّز عليه الصلاة والسلام في جمادى الأولى جيشاً للقصاص ممّن

---

(١) هي سرية كعب بن عمير

(٢) من كبار الصحابة بعثه رسول الله ﷺ مرة بعد مرة أميراً على السرايا، ابن الأثير في أسد الغابة ج ٤ ص ٤٨٥ .

(٣) موضع قرب وادي القرى.

(٤) عدّها بعضهم سرية كما في المواهب.

قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسوله إلى أمير بُصرى ، وأمَّر عليهم زيدَ بن حارثة ، وقال لهم : إن أُصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن أُصيب فعبد الله بن رواحة[1] . وكان عدّة الجيش ثلاثة آلاف ، فساروا وشيَّعهم عليه الصلاة والسلام ، وكان فيما وصّاهم به : « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً » ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مُؤْتة[2] مقتل الحارث بن عمير ، وهناك وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعاً عظيماً ، منهم ومن العرب المتنصرة . فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونه : أيرسلون لرسول الله يطلبون منه مَدداً أم يقدمون على الحرب ؟ فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم والله إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل بعدد ولا بقوة ولا بكثرة ، ما نقاتل إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به ، فإنما هي إحدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة ، فقال الناس : صدق والله ابن رواحة . ومضوا للقتال ، فلقوا هذه الجموع المتكاثرة ، فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه حتى استشهد ، فأخذ الراية جعفرُ بن أبي طالب وهو يقول :

يا حبَّذا الجنةُ واقترابها ... طيبةٌ وباردٌ شَرابُها
والرومُ روم قد دَنا عذابُها ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها
عليَّ إذا لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد رضي الله عنه[3] ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فتقدم ثم تردد بعض التردد ، فقال يخاطب نفسه :

---

(١) زاد في الزرقاني : فإن قتل فليتربص المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم .

(٢) قرية قريبة من الكرك وهي مشارف الشام . المؤلف .

(٣) وقصته : أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء .

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنّه طائعة أو لتُكْرَهِنَّهْ
إن أجلبَ الناسُ وشدّوا الرَّنَّة ما لي أراكِ تكرهين الجنَّهْ[1]
قد طالما قد كنتِ مُطمئنَّة هل أنتِ إلا نُطفة في شَنَّه ؟[2]

ثم اقتحم بفرسه المعمعة ولم يزل يقاتل رضي الله عنه حتى استشهد ، فهمَّ بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء ، فقال لهم عقبة بن عامر يا قوم : يُقتل الانسان مقبلاً خير من أن يقتل مدبراً ، فتراجعوا واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد ، وبهمَّته ومهارته الحربية حمى هذا الجيش من الضياع إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمائة وخمسين ألفاً[3] ، فإنه لما أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديداً . وفي غده خالف ترتيب العسكر . فجعل الساقة مقدمة ، والمقدمة ساقة ، والميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، فظنَّ الروم أن المَدَد جاء للمسلمين فرعبوا . ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مُؤتة ، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام ثم تحاجز الفريقان لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين ، وخافوا أن يجرّوهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلص وبذلك انقطع القتال ، « وقد نعى النبي ﷺ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم[4] ، فقال : أخذ الراية زيد فأُصيب ، ثم أخذها جعفر فأُصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأُصيب ، وكانت عينا رسول الله تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » ، « وجاءه رجل فقال : يا رسول الله إن نساء جعفر يبكين ، فأمره أن ينهاهنّ ، فذهب الرجل ثم أتى فقال : قد نهيتهنّ فلم يُطِعْنَ ! فأمره فذهب ثانياً ، ثم جاء فقال : والله لقد غلبننا ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أحْثُ في

---

(١) أجلب الناس : صاحوا واجتمعوا .
(٢) النطفة : الماء القليل الصافي .
(٣) عدد جيش الروم مائة ألف ، وانضم اليهم مائة الف أخرى .
(٤) رفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم .

أفواههنّ التراب »[1] ، ولما أقبل الجيش إلى المدينة قابلهم المسلمون يقولون لهم : يا فُرّار ، فقال عليه الصلاة والسلام بل هم الكُرار ! ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة ، ولكن رسول الله ﷺ أراهم أن ذلك من مكايد الحرب وأثنى على خالد في مهارته.

سرية[2]

وفي جمادى الآخرة بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القُرى ليُغيروا على المدينة ، فأرسل لهم عمرو بن العاص في ثلاثمائة رجل من سراة[3] المهاجرين والأنصار ، ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح[4] في مائتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ، فلحقوا عَمْراً قبل أن يصل إلى القوم ، وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار فمنعهم عمرو ، فأنكر عليه عمر بن الخطاب ، فقال أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منّا فلا تعصه ، فامتثل ، ولما حلُّوا بساحة القوم حملوا عليهم فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين ؛ فجمعوا غنائمهم وأرادوا اتباع أثرهم فمنعهم قائدهم ، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين ، وبينما هم في الطريق أدركت عمرو بن العاص جنابة في ليلة باردة فلما أصبح قال : إن أنا اغتسلت هلكت والله يقول : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إلى التَّهْلُكَةِ ﴾[5] ثم تيمم وصلى ، ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا إلى المدينة قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته ، فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار ونهيهم عن اتباع العدو وصلاته

---

(١) هذا الحديث والذي قبله أخرجهما البخاري.

(٢) هي سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل.

(٣) سراة: وهو النفيس الشريف.

(٤) لأن عمراً بلغه أن لهم جمعاً كثيراً.

(٥) سورة البقرة الآية: ١٩٥.

جُنُباً ، فسأله عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال : منعتهم من ايقاد النار لئلا يرى العدو قلّتهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدو لئلا يكون له كمين ، وصلّيت جنباً لأن الله يقول : ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكم إلى التَّهْلُكَةِ﴾ وإن أنا اغتسلت هلكت ، فتبسم عليه الصلاة والسلام وأثنى على عمرو خيراً .

سرية[1]

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام أبا عبيدة عامر بن الجراح في ثلاثمائة فارس لغزو قبيلة جُهَينة التي تسكن ساحل البحر[2] ، وزوّد عليه الصلاة والسلام هذا الجيش جراباً من التمر ، فساروا حتى إذا وصلوا الساحل أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو ، وقد فني زادهم حتى أكلوا الخَبَط (وهو ورق السَّمُر) يبلونه بالماء ويأكلونه إلى أن تقرّحت أشداقهم[3] ، وكان في القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد بن عبادة[4] فنحر لهم ثلاث جزر في كل يوم جزور . وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر فنهاه رئيسه أبو عبيدة ، لأن قيساً كان أخذ بتلك الجزر بدين على أبيه ، فخاف أبو عبيدة ألّا يفي له أبوه بما استدان ، فقال قيس : أترى سعداً يقضي ديون الناس ، ويطعم في المجاعة ، ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله ؟! ولما يئسوا من لقاء عدوهم رجعوا إلى المدينة ، فقال قيس بن سعد لأبيه : كنت في الجيش فجاعوا ، قال : انحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا قال : انحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاعوا ،

---

(١) هي سرية الخبط .
(٢) ولرصد عِير قريش .
(٣) اقرأ قصة حوت العنبر الذي خرج من البحر فأكل منه الصحابة شهراً حتى قويت أبدانهم . في البخاري ومسلم .
(٤) كان قيس ضخماً حسناً طويلاً سخياً كريماً داهية .

قال : انحر ، قال : نحرت ، قال : ثم جاءوا ، قال : انحر ، قال : نُهيت.

غزوة الفتح الأعظم

إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه وأزال موانعه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذلّ العرب حتى تذل قريش ، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة ، فكان يتشوف لفتحها، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التي أعطاها قريشاً في الحديبية وهو سيد من وَفَّى . ولكن إذا أراد الله أمراً هيَّأ أسبابه ، فقد علمت أن قبيلة خُزاعة دخلت في عهد رسول الله ، وقبيلة بني بكر دخلت في عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبني بكر دماء في الجاهلية كمنت نارها بظهور الإسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بني بكر[1] يتغنى بهجاء الرسول ﷺ على مسمع من رجل خزاعي[2] ، فقام هذا وضربه فحرّك ذلك كامن الأحقاد ، وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدّوا العزيمة لحرب خصومهم، واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سراً بالعدّة والرجال، ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم ما يربو على العشرين، ولما رأى ذلك حلفاء السيد الأمين أرسلوا منهم وفدا برياسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش ، فلما حَلُّوا بين يديه ، وأخبروه قال : (والله لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه) . أما قريش فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا ، وأرادوا مداواة هذا الجرح ، فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشدّ العقد[3] ويزيد في المدة ، فركب راحلته ـ وهو يظن أنه لم يسبقه أحد ـ حتى إذا جاء المدينة نزل على أم المؤمنين أُمٌّ حبيبة بنته ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه ، فقال يا بنيّة : أرغبتِ به عني

(١) هو نوفل بن معاوية الديلي.

(٢) يقال له مُنبّه.

(٣) أي ليجدّد العهد.

أم رغبت بي عنه ؟ فقالت : ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، فقال : لقد أصابك بعدي شر . ثم خرج من عندها ، وأتى النبي في المسجد ، وعرض عليه ما جاء له فقال له عليه الصلاة والسلام : هل كان من حَدَث ؟ قال : لا ، فقال عليه الصلاة والسلام فنحن على مدتنا وصلحنا ، ولم يزد عن ذلك . فقام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش لعلّهم يساعدونه على مقصده[١] ، فلم يجد منهم مُعيناً وكلهم قالوا : جوارنا في جوار رسول الله فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئاً ، فاتهموه بأنه خانهم واتّبع الإسلام ، فتنسّك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله ﷺ فتجهز للسفر، وأمر أصحابه بذلك، وأخبر الصدّيق بالوِجهة فقال له: يا رسول الله أوَ ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: نعم ولكن غدروا ونقضوا. ثم استنفر عليه الصلاة والسلام الأعراب الذين حول المدينة، وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، فقدم جمع من قبائل أسلم وغِفار ومزَينة وأشجع وجُهينة، وطوى عليه الصلاة والسلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر، فتعلم قريش فتستعد للحرب، والرسول عليه الصلاة والسلام لا يريد أن يُقيم حرباً بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحُرمتها، فدعا مولاه جلّ ذكره وقال: «اللهم خُذِ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها[٢] في بلادها» فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدراً، وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جُعْلٍ ، فأعلم الله رسوله ذلك، فأرسل في أثرها عليّاً والزبير والمقداد وقال: إنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة[٣] معها كتاب فخذوه منها،

(١) إقرأ إخفاق أبي سفيان مع كبار الصحابة في كتب السير.
(٢) نبغتها: المفاجأة.
(٣) الظعينة: المرأة في الهودج.

فانطلَقوا حتى أتوا الروضة، فوجدوا بها المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب! فقالوا: لتخرِجنّ الكتاب أو لنُلقينّ الثياب، فأخرجته من عِقَاصِها[1]، فأتوا به رسول الله[2] فقال عليه الصلاة والسلام: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إني كنت حليفاً لقريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: أما أنه قد صدقكم، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله اطَّلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم[3] وفي ذلك أنزل الله في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّها الذِيْنَ آمنُوا لا تَتخِذُوا عَدُوِّي وَعَدوَّكُم أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بالمودّةِ وَقَدْ كَفرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بالله رَبِّكُمْ إنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً في سَبِيْلِي وابتِغَاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إليْهِمْ بالمودَّةِ وَأَنا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُم وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلّ سَواءَ السَّبِيْلِ﴾[4] ثم سار عليه الصلاة والسلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولّى على المدينة ابنَ أُمّ مكتوم[5] وكانت عدّة الجيش عشرة آلاف مجاهد، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشدّ أعدائه وهما: ابن عمه أبو

---

(١) أي ضفيرتها.

(٢) ولفظ الكتاب: «أما بعد يا معشر قريش، فان رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام». وفي تفسير ابن سلام انه كان في الكتاب الذي كتبه حاطب أن النبي محمداً فد نفر إما اليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر.

(٣) وفي رواية فقد وجبت لكم الجنة وفي رواية لا يدخل النار أحد شهد بدراً وفي قوله تعالى: ﴿عدوي عدوكم﴾ منقبة عظيمة لحاطب رضي الله عنه لأن في ذلك الشهادة له بالايمان ـ السيرة الحلبية.

(٤) سورة الممتحنة الآية: ١.

(٥) وقيل: أبا رُهْم كلثوم بن الحصين الغفاري.

سفيان[1] بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر[2]، وصهره عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة شقيق زوجه أُم سلمة[3] وكانا يريدان الإسلام فقبلهما عليه الصلاة والسلام وفرح بهما شديد الفرح وقال: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهو أَرْحَمُ الراحِمِينَ﴾[4] ولما وصل عليه الصلاة والسلام الكديد رأى أن الصوم شق على المسلمين، فأمرهم بالفطر وأفطر هو أيضاً، وقد قابل عليه الصلاة والسلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله، فأمره أن يعود معه إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة ولما وصل عليه الصلاة والسلام مرّ الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار[5]، وكانت قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدري وجهته، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مَرَّ الظهران فإذا هم بنيران كأنها نيران عَرَفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنها نيران عَرَفة! فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو[6]، فقال أبو سفيان: عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله، فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خَطْمِ الجبل[7] حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمرّ كتيبة كتيبة على أبي سفيان وهو يسأل ويقول ما لي ولها، حتى إذا مرّت به قبيلة الأنصار وحامِلُ رايتها سعد بن عبادة فقال سعد: يا أبا سفيان اليومَ يومُ الملحمة[8]، اليوم تُستَحلُّ

---

(١) وأخوه من الرضاعة أيضاً.

(٢) الصحيح أن أبا سفيان بن الحارث ليس شقيقاً لعبيدة.

(٣) وابن عمته عاتكة.

(٤) سورة يوسف الآية: ٩٢.

(٥) وذلك لتراها قريش.

(٦) يعني خزاعة.

(٧) أي أنف الجبل.

(٨) يوم الملحمة: أي يوم حرب.

الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يومُ الذِّمار[1]. ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب[2] فيها رسول الله بمقالة سعد. فقال عليه الصلاة والسلام كذبَ سعد، ولكن هذا يوم يُعظِّم الله فيه الكعبة ويوم تُكسى فيه الكعبة. ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن تركّز رايته بالحجون[3]، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدي[4] ودخل هو من أعلاها من كداء ونادى مناديه: مَن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وهذه أعظم منّة له، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم، وآذوا الإسلام وأهله عظيم الأذى، فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة منهم: عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح[5] الذي أسلم وكتب لرسول الله الوحي ثم ارتدّ وافترى الكذب على الأمين المأمون، فكان يقول: إن محمداً كان يأمرني أن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم، فيقول كل جيد! ومنهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية، وهبار بن الأسود، والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية[6] وكعب بن زهير ووحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان وقليل غيرهم، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل، فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الذعر من قريش يريدون صدّه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين، وقُتل من جيشه اثنان، ودخلها عنوة من هذه الجهة، وأما جيش رسول الله ﷺ فلم يصادف مانعاً وهو عليه الصلاة والسلام راكب راحلته منحنٍ على الرحل تواضعاً لله وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهته تَمَسُّ الرحل، وأُسامة بن زيد رديفه، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل إلى الحجون موضع رايته، وقد نصبتْ له هناك قبة فيها أُمُّ سلمة وميمونة، فاستراح قليلاً ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ

---

(١) يوم الذمار: أي الهلاك.
(٢) لأن عدد المهاجرين كان أقل من عدد غيرهم من القبائل.
(٣) جبل بمعلاة مكة. المؤلف.
(٤) كدي: جبل مسفلة مكة على طريق اليمن.
(٥) كان أحد النجباء الكرام من قريش فاتح افريقية.
(٦) وهو أخو أم سلمة أم المؤمنين.

سورة الفتح حتى بلغ البيت ، وطاف سبعاً على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة إذ ذاك ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل عليه الصلاة والسلام يطعنها بعود في يده ، ويقول : (جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ وما يُعِيْدُ)[1] ، ثم أمر بالآلهة فأخرجت من البيت وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : (قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قطّ)[2] !! وهذا أول يوم طهّرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلاً . ويوشك ان نذكر للقارىء اختفاء ومحو عبادتها بالكلية .

العفو عند المقدرة

ثم إن النبي ﷺ دخل الكعبة وكبّر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلّى فيه ركعتين، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد والناس حوله والعيون شاخصة إليه ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق التي يلزم أن يتعلم منها المسلم، أن يكون رضاه وغضبه لله لا لهوى النفس، فقال عليه الصلاة والسلام: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، فقال عليه الصلاة والسلام: اذهبوا فأنتم الطُلقاء[3]، ويرحم الله الإمام البوصيري[4] حيث قال:

وإذا كان القَطْعُ والوصلُ لله ... تساوى التقّريبُ والإقصاء
وسواءٌ عليه فيما أتاه ... من سواه الملامُ والإطراء
ولو أنَّ انتقامَه لهوى النفـ ... ـسِ لدامتْ قطيعة وجفاء

---

(١) وزهق : اضمحل .
(٢) والأزلام السهام التي يستقسمون بها يستشيرون بها في أمورهم .
(٣) أي الذين أطلقوا فلم يسترقّوا .
(٤) هو محمد البوصيري المصري ، وهو صاحب القصيدة المشهورة «البردة» .

قام لله في الأمور فأرضى الله منه تباينٌ ووفاء
فعلهُ كله جميل وهل ينضـ ـحُ إلا بما حواهُ الإناء[1]

ثم خطب عليه الصلاة والسلام خطبةً أبان فيها كثيراً من الأحكام الإسلامية[2]منها ألاّ يُقتَل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملّتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها أو خالتها، والبيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد الصبح والعصر، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر، ثم قال: يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية وتَعَظُّمَهَا بالآباء، والناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَر وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أتْقَاكُمْ إنَّ الله عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ﴾[3]ثم شرع الناس يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام، وممّن أسلم في هذا اليوم معاوية بن أبي سفيان وأبو قحافة والد الصديق، وقد فرح الرسول كثيراً بإسلامه. وجاء رجل يرتعد خوفاً فقال له الصلاة والسلام: «هوِّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[4].

أما الذين أهدر رسول الله دمهم فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقّت عليه كلمة العذاب فقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم: فعبد الله بن سعد بن أبي سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمان بن عفان، وطلب منه أن يستأمنَ له رسول الله، فغيّبه عثمان حتى هدأ الناس، ثم أتى به النبي وقال: يا رسول الله قد أمنته فبايعه، فأعرض عنه عليه الصلاة والسلام مراراً ثم بايعه، فلما خرج عثمان وعبدالله قال عليه الصلاة والسلام،

---

(١) ديوان البوصيري ص ٦٦.
(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢ / ٤١٥.
(٣) سورة الحجرات الآية: ١٣.
(٤) القديد: اللحم المملّح.

أعرضتُ عنه ليقومَ إليه أحدكم فيضرب عنقه، فقالوا: هلاّ أشرتَ إلينا؟ فقال: «لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»(١).

وأما عكرمة بن أبي جهل فهربَ فخرجتْ وراءه زوجته وبنتُ عمه أُمّ حكيم بنت الحارث بن هشام، وكانت قد أسلمت يوم الفتح(٢)،وقد أخذت له أماناً من رسول الله فلحقته ،وقد أراد أن يركب البحر فقالت: جئتك من عند أبرّ الناس وخيرهم لا تهلك نفسك، وإني قد استأمنته لك فرجع، ولما رآه عليه الصلاة والسلام وثب قائماً فرحاً به، وقال: مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً، ثم أسلم رضي الله عنه، وطلب من رسول الله أن يستغفر له كل عداوة عاداه إيّاها فاستغفر له، وكان رضي الله عنه بعد ذلك من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام.

وأما هبَّار بن الأسود فهرب واختفى حتى إذا كان رسول الله بالجِعرَّانة(٣) جاءه مسلماً، وقال: يا رسول الله هربتُ منك وأردتُ اللحاق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمّن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا من الهلكة فاصفح الصفح الجميل ، فقال عليه الصلاة والسلام : قد عفوتُ عنك .

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية المخزومي فأجارتهما أم هانيء بنت أبي طالب، فأجاز عليه الصلاة والسلام جِوارها، ولما قابل رسولُ الله الحارثَ بن هشام مسلماً قال له: الحمد لله الذي هداك ما كان مثلك يجهل الإسلام، وقد كان بعد ذلك من فُضَلاء الصحابة.

وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يذهب ويلقي نفسه في البحر فجاء

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم: ٤٣٥٩.

(٢) في الأصل: قبل الفتح، وهو خطأ.

(٣) موضع بين مكة والطائف.

ابن عمه عُمير بن وهب الجُمحي وقال: يا نبي الله إن صفوانَ سيد قومه، هرب ليقذف نفسه في البحر فأمِّنه فإنك قد أمّنت الأحمر والأسود، فقال عليه الصلاة والسلام: أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: أعطني علامة فأعطاه عِمامته، فأخذها عمير حتى إذا لقي صفوان، قال له: فداك أبي وأمي، جئتك من عند أفضل الناس، وأبرّ الناس وأحلم الناس وخير الناس، وهو ابن عمك، وعزُّه عزُّك وشرفه شرفك وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخاف على نفسي، قال هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة علامة الأمان، فرجع إلى رسول الله وقال له: إن هذا يزعم أنك أمَّنتني؟ قال: صدق، قال: أمهلني بالخيار فيه شهرين، قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر، ثم أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه. وأما هند بنت عتبة فاختفت ثم أسلمت، وجاءت إلى رسول الله فرحبَ بها وقالت له: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحبّ إليّ أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحبّ إليّ أن يعزوا من أهل خبائك[1].

وفود كعب بن زهير

وأما كعبُ بن زهير فلما ضاقت به الأرض ولم يجد له مجيراً جاء المدينة بعد أن قدمها رسولُ الله من مكة فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

وقالَ كلُّ صديق كنتُ آملُهُ ... لا أُلهِيَنَّكَ إني عنكَ مشغولُ[2]
فقلتُ خَلُّوا سبيلي لا أبا لكمُ ... فكلُّ ما قَدَّر الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابن أنثى وإن طالتْ سلامتُهُ ... يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ[3]
نُبِّئتُ أن رسولَ الله أوعدني ... والعفو عند رسولِ الله مأمولُ

---

(١) والخباء: خيمة من وبر أو صوف، ثم أُطلقت على البيت كيف ما كان.
(٢) لا ألهينّك: أي لا أشغلنّك.
(٣) الآلة الحدباء: النعش الذي يحمل عليه الميت.

مهـلاً هـداكَ الـذي أعـطاك نـافلةَ الـ ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ[1]

وقال فيها مادحاً:

إنَّ الرسولَ لسيفٌ يُستضـاء به مُهنَّدٌ من سيوفِ الله مسلولُ[2]

ولما قال هذا البيت خلع عليه الرسول بردته[3].

وأما وحشي قاتل حمزة فكذلك أسلم وحسن إسلامه وقبله عليه الصلاة والسلام، وقد جاءه ابنا أبي لهب عتبة ومعتب فأسلما وفرح بهما عليه الصلاة والسلام.

وكان من الذين اختفوا سهيل بن عمرو، فاستأمن له ابنه عبدالله فأمّنه عليه الصلاة والسلام، وقال: إن سهيلاً لـه عقل وشـرف، وما مثـل سهيل يجهـلُ الإسلام، فلما بلغت هذه المقالة سُهيلاً قال: كان والله بَرّاً صغيراً برّاً كبيراً، ثم أسلم بعد ذلك.

بيعة النساء

هذا، ولما تمت بيعة الرجال بايعه النساء، وكنّ يبايعن على ألاّ يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصين الرسول في معروف.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بلالاً أن يُؤَذِّنَ على ظهر الكعبة، وهذا بدء ظهور الإسلام على ظهر البيت الكريم، فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حَقَّ حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم، وأقام

---

(١) هداك: أي زادك هدى.

(٢) هذه الأبيات من قصيدة كعب التي مطلعها: (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول).

(٣) البردة: الشملة المخططة وقيل كساء أسود مربع في صفر وجمعها بُرَدْ.

عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة، وولّى عليها عَتَّاب بنَ أَسيد[1]، وجعل رزقه كل يوم درهماً، فكان عَتَّابُ رضي الله عنه يقول: لا أشبعَ الله بطناً جاع على درهم كُلَّ يوم.

هدم العُزَّى[2]

وفي الخامس من مُقامه عليه الصلاة والسلام بمكة أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العُزّى وهي أكبر صنم لقريش وكان هيكلها ببطن نَخْلة، فتوجه إليها خالد وهدمها.

هدم سُوَاع[3]

وأرسل عليه الصلاة والسلام عمرو بن العاص لهدم سواع وهو أعظم صنم لهذيل وهيكله على ثلاثة أميال من مكة فذهب إليه وهدمه.

هدم مَنَاة[4]

وبعث سعدَ بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً لهدم منـاة، وهي صنم للأوس والخزرج[5] وهيكلها بالمُشَلَّلْ وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد فتوجهوا إليها وهدموها.

(١) هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن عبد شمس الأموي.
(٢) هي سرية خالد بن الوليد إلى العزّى.
(٣) هي سرية عمرو بن العاص إلى سُواع.
(٤) هي سرية سعد بن زيد إلى مناة.
(٥) في الأصل صنم لكلب وخزاعة.

غزوة حُنين[1]

بهذا الفتح العظيم وسقوط دولة الأوثان، دانت للإسلام جموعُ العرب ودخلوا فيه أفواجاً. أما قبيلتا هوازن وثقيف فأدركتهما حَمِيَّةُ الجاهلية، واجتمع الأشرافُ منهم للشورى، وقالوا: قد فرغَ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنّا، فَلْنَغْزُه قبل أن يغزونا. فأجمعوا أمرهم على ذلك، وولّوا رياستهم مالكَ بن عوف النَّصْري، فاجتمع له من القبائل جموعُ كثيرة فيهم بنو سعدِ بن بكر الذي كان رسول الله مسترضعاً فيهم، وكان في القوم دُرَيْد بن الصِّمّة المشهور بأصالة الرأي، وشدة البأس في الحرب، ولتقدم سنِّه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي، ثم إن مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءَهم وذراريهم وأموالهم، فلما علم بذلك دُريد سأل مالكاً عن السبب، فقال: سقتُ مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم، فقال دريد: وهل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمحه، وإن كانت عليك فُضِحت في أهلك ومالك، فلم يقبلْ مالك مشورته، وجعل النساءَ صفوفاً وراء المقاتلة، ووراءهم الإبل ثم البقر ثم الغنم كيلا يفر أحد من المقاتلين.

أما رسول الله ﷺ فإنه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه أجمع رأيه على المسير إليهم، وخرج معه اثنا عشر ألف غازٍ، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهلُ مكة ركباناً ومشاة حتى النساء يمشين من غير ضعفٍ يرجون الغنائم، وخرج من الجيش ثمانون من المشركين، منهم صفوانُ بن أمية، وسُهيل بن عمرو، ولما قرب الجيش من معسكر العدو صَفَّ عليه الصلاة والسلام الغزاةَ، وعقد الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعليّ بن أبي طالب، ولواء الخزرج للحُبَاب بن المنذر، ولواء الأوس

(١) حنين: وادٍ في طريق الطائف بالقرب من ذي المجاز.

لأسيد بن حضير، وكذلك أعطى ألوية لقبائل العرب الأخرى، ثم ركب عليه الصلاة والسلام بغلته ولبس درعين والبيضة[1] والمِغفر[2]. هذا، وقد أُعْجب المسلمون بكثرتهم فلم تُغْنِ عنهم شيئاً، فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو، فخرج لهم كمين كان مستتراً في شِعاب الوادي ومضايقه وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، فلووا أعنّة خيلهم متقهقرين، ولما وصلوا إلى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة، أما رسول الله ﷺ فثبتَ على بغلته في ميدان القتال، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث ومُعَتِّبُ بن أبي لهب، وكان العباس آخذاً بلجام البغلة، وأبو سفيان آخذاً بالركاب[3]، وكان عليه الصلاة والسلام ينادي: إليّ أيّها الناس ولا يلوي عليه أحد، وضاقت بالمنهزمين الأرض بما رحبت. أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام والذين لم ينزعوا عنهم رِبْقَةَ الشرك فمنهم من فرح، ومنهم من ساءه هذا الإدبار، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال أخ لصفوان بن أمية: الآن بَطُل السحر، فقال له صفوان (وهو على شركه) أسكتْ فَضَّ الله فاك[4]! والله لأن يَرُبَّني[5] رجل من قريش خير من أن يَرُبَّني رجل من هوازن. ومرّ عليه رجل من قريش وهو يقول: أبشر بهزيمة محمدٍ وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبداً، فغضب صفوانُ وقال: ويلك أتبشرني بظهور الأعراب؟ وقال عكرمة بن أبي جهل لذاك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أُديل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً،

---

(١) البيضة: هي الخوذة توضع على الرأس.
(٢) المغفر: زَرَد من الدرع يُلبس تحت القلنسوة.
(٣) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان ممّن يشبه رسول الله ﷺ .
(٤) أي أسقط أسنانك.
(٥) يَرُبَّني: أي يكون ربّاً لي.

فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا زيد إنَّا كنَّا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضرّ ولا ينفع. وبلغت هزيمة بعض الفارّين مكة. كل هذا ورسول الله واقف مكانه يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابنُ عبد المطلب

ثم قال للعباس وكان جَهْوَرِيَّ الصوت: نادِ بالأنصار يا عباس. فنادى يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة الرضوان، فأسمعَ مَنْ في الوادي، وصار الأنصار يقولون: لبَّيك لبَّيك، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عِنان بعيره فيمنعه من ذلك كثرة الأعراب المنهزمين. فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه. وينزل عن بعيره ويخلي سبيله ويؤمُّ الصوتَ حتى اجتمع حولَ رسول الله جمع عظيم منهم. وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم يروها، فكرَّ المسلمون على عدوهم يداً واحدة فانتكث فتل المشركين. وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذراري وأسروا كثيراً من المحاربين[1]، وهرب من هرب، وجُرح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحاتٍ بالغة، وأسلمَ ناس كثيرون من مشركي مكة لما رأوهُ من عناية الله بالمسلمين.

هذا، والذي حصل في هذه الغزوة درس مهم من دروس الحرب، فإن هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركين وأعراب وحديثي عهد بالإسلام، هؤلاء سِيَّان عندهم نصرُ الإسلام وخذلانه، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة، وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضل الله، فلا ينبغي أن يكون في الجيش إلا من يقاتل خالصاً من قلبه ليكون مدافعاً حقاً عن دينه، فلا تميل نفسه إلى الفرار خشية ما أعدّه الله للفارّين من أليم العقاب.

---

(١) ليس في كتب السير أنهم أسروا من المحاربين.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بجمع السبي والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، فجمع ذلك كله بِالجعرَّانة. أما المشركون فتفرقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس[1].

سرية[2]

فأرسل عليه الصلاة والسلام لهذه الفرقة أبا عامر الأشعري في جماعة منهم أبو موسى الأشعري فسار إليهم وبدَّدهم وظفر بما بقي معهم من الغنائم، وقد استشهد أبو عامر في هذه الغزوة وخلَّف على الغزاة ابن أخيه أبا موسى فرجع ظافراً منصوراً[3].

غزوة الطائف

وسار عليه الصلاة والسلام بمن معه إلى الطائف ليجهز على بقية حياة ثقيف ومن تجمع معهم من هوازن، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد، ومرّ عليه الصلاة والسلام بحصن لمالك بن عوف النَّصري[4]فأمر بهدمه. ومرَّ ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه أن أخرج وإلا حَرَّقنا عليك بستانك، فامتنعَ الرجل فأمر عليه الصلاة والسلام بحرقه. ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصَّنوا به وأدخلوا معهم قوتَ سنتهم، فعسكر المسلمون قريب الحصن. فرماهم المشركون بالنَّبل رمياً شديداً حتى أُصيب منهم كثيرون بجراحات منهم عبدالله بن أبي بكر، وقد طاوله[5]جرحه حتى أماته

(١) وادٍ بديار هوازن. المؤلف.
(٢) هي سرية أبي عامر الأشعري الى أوطاس.
(٣) خبر هذه السرية في البخاري.
(٤) في الأصل: لعوف بن مالك وهو خطأ والصحيح ما أثبتناه.
(٥) طاوله: امتد به.

في خلافة أبيه، ومنهم أبو سفيان بن حرب فُقئت عينه. وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين. ولما رأى رسول الله أن العدو متمكّن من رميهم ارتفع إلى محل مسجد الطائف الآن، وضربَ لأمْ سلمةوزينب(١) قبتين هناك، واستمر الحصارُ ثمانية عشر يوماً، كان فيها يُنادي خالد بن الوليد بالبِراز فلم يُجِبْه أحد، وناداه عبد ياليل عظيم ثقيف لا ينزل إليك منّا أحد، ولكن نقيم في حصننا، فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموتَ عن آخرنا، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يُنْصَب عليهم المنجنيق فَنُصِبَ. ودخل جمع من الأصحاب تحت دبابتين لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سِكَكَ الحديد مُحماة بالنار حتى أرجعوهم. فأمر عليه الصلاة والسلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم، فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً(٢)، فناداه أهل الحصن أن دعها لله وللرحم، فقال: أدعها لله وللرحم، ثم أمر مَنْ ينادي بأن كل من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً. ولما رأى عليه الصلاة والسلام أن تمنُّع ثقيف شديد، وأن الفتح لم يؤذن فيه استشار نوفلَ بن معاوية الديلي(٣) في الذهاب أو المقام، فقال: يا رسولَ الله ثعلب في جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرّك، فأمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل، وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف فقال: «اللهمّ اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين».

---

(١) ورد في غزوة الفتح أن النبي ﷺ اصطحب معه أُم سلمة وميمونة، وورد هنا بدلاً عن ميمونة زينب، وفي سيرة ابن هشام أم سلمة وزوجة أخرى لم يعينها، فليتأمل (كذا عن الغربي).

(٢) أي سريعاً.

(٣) صحابي، أسلم يوم الفتح، وكان قد بلغ المائة.

تقسيم السبي

ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى الجِعرانة حيث ترك السبي فأحصاه[1]، وخَمَّسه، وأعطى منه شيئاً كثيراً لأُناس ضعف إسلامهم يتألَّفُهم بذلك وأعطى أُناساً لم يسلموا ليُحَبِّبَ إليهم الإسلام، ومن الأوّلين: أبو سفيان أعطاه أربعين أوقية من الذهب[2] ومائة من الإبل، وكذلك ابناه معاوية ويزيد، فقال له: بأبي أنت وأمي لأنت كريم في السلم والحرب. ومنهم حكيم بن حزام أعطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه، ثم استزاده فأعطاه مثلها وقال: يا حكيم «إن هذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشرافِ نفس لم يُبَارك له فيه، كالذي يأكُلُ ولا يشبــعَ واليدُ العُليا خير من اليدِ السُّفلى»[3] فأخذَ حكيم المائة الأولى وتركَ ما عداها، ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ[4] أحداً بعدك شيئاً حتى أُفارق الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه. وأعطى عليه الصلاة والسلام عُيَيْنَةَ بن حصن مائة من الإبل، وكذلك الأقرعَ بن حابس والعباس بن مِرداس وأعطى صفوانَ بن أمية شِعباً مملوءاً نعماً وشاءً كان رآه يرمقه، فقال له: هل يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال: هو لك. فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفسُ أحد، وكان سبب إسلامه. وكان عليه الصلاة والسلام يقصد من هذه العطايا تأليف القلوب وجمعها على الدين القويم، وهذا ضرب من ضروب السياسة الدينية حتى جَعل من الصدقات قسماً للمؤلفة قلوبهم، وقد عاد ذلك بفائدة عظمى، فإن كثيرين ممّن أعطوا في هذا اليوم ولم يكونوا أُشربوا في قلوبهم حُبَّ الإسلام صاروا بعدُ من أجلّاء المسلمين وأعظمهم نفعاً كصفوان بن أمية، ومعاوية بن

---

(١) أي أحصى الغنائم.

(٢) ليست من الذهب بل من الفضة.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أي لا أنقص ماله بالطلب منه.

أبي سفيان، والحارث بن هشام وغيرهم.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام زيد بن ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم، وقسمه على الغزاة بعد ان اجتمع إليه الأعراب، وصاروا يقولون له: إقسم علينا حتى الجؤوه الى شجرة فتعلق رداؤه فقال: «ردّوا ردائي أيها الناس، فوالله إن كان لي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً» ثم قام إلى بعيره، وأخذ وَبرةً من سَنَامِه، وقال: «أيّها الناس، والله ما لي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدّوا الخياط والمخيط فإن الغُلول[1] يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة»[2] فصار كلّ من أخذ شيئاً من الغنائم خِلسة يردُّه ولو كان زهيداً، ثم شرعَ يقسم فأصابَ الرجلَ أربعة من الإبل وأربعون شاة، والفارسَ ثلاثةُ أمثال ذلك، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أُريد بها وجهُ الله، فغضب عليه الصلاة والسلام حتى احمرّ وجهه، وقال: «ويحك مَنْ يعدلُ إذا لم أعدل؟!»[3] فلم يؤدّه غضبه أن ينتقم لنفسه حاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك بل لم يزدْ على أن نصحَ وحذَّرَ، وقال له عمر وخالد بن الوليد: دعنا يا رسول الله نضربْ عنقه، فقال: (لا! لعلّه أن يكون يُصلي) فقال خالد: وكم من مُصلٍّ يقولُ بلسانه ما ليس في قلبه! فقال ﷺ: «إني لم أُومر أن أُنقّبَ عن قلوب الناس، ولا أُشُقَّ عن بطونهم»[4].

ولما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب، وتركَ الأنصار غضبَ بعضُهم حتى قالوا: إن هذا لهو العجبُ يُعطي قريشاً،

(١) الغلول: الإختلاس من الغنيمة.

(٢) والشنار: العار والعيب.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه البخاري.

ويتركنا وسيوفنا تقطرُ من دمائهم !!! فبلغه ذلك فأمر بجمعهم وليس معهم غيرُهم . فلما اجتمعوا قال : « يا معشرَ الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ؟ ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي ؟وعالةً[١] فأغناكم الله بي ؟ وأعداءً فألّفَ الله بين قلوبكم بي ؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفر ومصيبة ، وإني أردتُ أن أجْبُرهم وأتألّفهم ، أغضبتم يا معشرَ الأنصار في أنفسكم لشيءٍ قليل من الدنيا ألّفْتُ به قوماً ليسلموا ، ووكَلْتُكُمْ إلى إسلامكم الثابت الذي لا يُزَلْزَل ؟ ألا ترضون يا معشرَ الأنصار أن يذهبَ الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلكَ الناسُ شِعْباً وسلك الأنصار شعباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهمّ ارحم الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصار »[٢]. فبكى القوم حتى اخْضَلَّتْ لحاهم ، وقالوا : رضينا برسولِ الله قِسماً وحظاً ، ثم انصرف عليه الصلاة والسلام وتفرقوا .

وفود هوازن

وبعد بضع عشرة ليلة جاءه ﷺ وفد هوازن يرأسهم زهير بن صُرَدْ وقالوا : يا رسول الله إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمّات والخالات ، وهنّ مَخازي الأقوام ، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله ، وقال زهير : إن في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك[٣]، ثم قال أبياتاً يستعطفه بها :

امننْ علينا رسولَ الله في كرمٍ ... فإنك المرءُ نرجوه وننتظرُ
امنن على نسوةٍ قد كنت ترضعها ... إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر[٤]

(١) جمع عائل : وهو الفقير . المؤلف .
(٢) شواهد هذا الحديث كثيرة بألفاظ قريبة من اللفظ الذي ذكره المؤلف .
(٣) أي لأن مرضعته ﷺ حليمة كانت من هوازن .
(٤) في السهيلي على ابن هشام : إذ فوك تملأه من محضها الدرر .

إنّــا لنشكــر للنعمــاء إن كـفــرت وعنـدنـا بعـد هـذا اليــوم مُـدَّخــر
إنّــا نؤمِّــل عفــواً منــك نلبســه هـدى البـريــة أن تعفـو وتنتصــر[1]
فـألبس العفو من قـد كنتَ تـرضعـه من أمهــاتــك إن العفــوَ مشتـهــر

فقال ﷺ : إن أحبَّ الحديث إليّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبي وإما المال . وقد كنت انتظرتكم[2]حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، فقالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، أُردُدْ علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحبّ إلينا ولا نتكلم في شاة ولا بعير ، فقال ﷺ : أما مالي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فإذا أنا صلّيت الظهر فقوموا وقولوا : نحن نستشفع برسول الله الى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله بعد أن تظهروا إسلامكم وتقولوا نحن إخوانكم في الدين ، ففعلوا . فقال ﷺ لأصحابه : « أما بعد : فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تـائبين ، وإني قد رأيت أن أردّ عليهم سبيهم ، فمن أحبّ أن يُـطيِّبَ بذلـك فليفعل ، وسن أحبّ منكم أن يكون على حَظِّه حتى نعطيَه إياه من أول ما يُفِيءُ الله علينا فليفعل »[3]، فقال المهاجرون والأنصار : مـا كان لنا فهو لرسول الله . وامتنعَ من ذلك جماعة من الأعراب ، كالأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن والعباس بن مِرداس ، فأخذه الرسولُ منهم قرضاً ، وأمر ﷺ بأن تُحْبَس عائلةُ مالك بن عوف النصري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أُمّ عبد الله بن أمية . فقال له الوفد : أولئك ساداتنا ، فقال ﷺ : إنما أُريد بهم الخير، ثم سأل عن مالكٍ فقالوا : هرب مع ثقيف ، فقال ؛ أخبروه أنه إن جاءني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل ، فلما بلغ ذلك مالكاً نزل من الحصن خُفْية حتى أتى رسول الله بالجِعرانة فأسلم وأحرز ماله ، واستعمله عليه الصلاة والسلام على مَنْ أسلم من هوازن .

(١) في السهيلي على ابن هشام : تلبسه . هدى البرية إذ تعفو وتنتصر.
(٢) وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف.
(٣) يطيب: أي أن يُرجع ما أخذ من السبي عن طيب نفس منه من غير عوض.

عمرة الجعرانة

ثم إن الرسول ﷺ اعتمر فأحرم من الجعرانة ودخل مكة بليل فطاف واستلم الحجر ثم رجع من ليلته ، وكانت إقامته بالجعرانة ثلاثَ عشرة ليلة ، ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل ، فسار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاثٍ بقين من ذي القعدة .

وغزوة حنين هي التي فرّقَ الله بها جموعَ الشرك ، وأدالَ دولته ، وأفقد سَراةَ أهله ، فإن هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكّنه الحرب إلا ساقته ، ولم تترك لها بعيراً ولا شاة إلا جاءت به معها ، فأراد الله إعزاز الإسلام بخذلان أعدائه وأخذ أموالهم ، فانكسرت حِدّة المشركين ، ولم يبق فيهم مَنْ يمانع أو يدافع ، ولذلك يمكننا أن نقول إن انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب ، فلم يبقَ فيهم إلا فئات قليلة يسوقهم الطيش إلى شهر السلاح ، ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة .

سرية[1]

ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أرسل قيس بن سعد في أربعمائة ليدعو صُداء (قبيلة تسكن اليمن) إلى الإسلام ، فجاء إلى رسول الله رجل منهم[2] ، فقال يا رسول الله : إني جئتك وافداً عمّن ورائي ، فاردد الجيشَ وأنا لك بقومي ، فأمر عليه الصلاة والسلام بردّ الجيش .

وفود صُدَاء

وخرج إلى قومه فقدم بخمسة عشر رجلاً منهم ، فنزلوا ضيوفاً على سعد

(١) هي سرية قيس بن سعد إلى صداء .

(٢) هو زياد بن الحرث صحابي معروف نزل مصر .

بن عبادة ، ثم بايعوا رسول الله على الإسلام ، وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ، ولما رجعوا فشا فيهم الإسلام ، وقدم على رسول الله منهم مائة في حجة الوداع .

سرية[1]

ثم أرسل عليه الصلاة والسلام بشر بن سفيان العدوي إلى بني كعب بن خزاعة لأخذ صدقات أموالهم ، فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فُرِضَ عليهم ، فلما علم بذلك رسول الله أرسل إليهم عيينة بن حصن في خمسين فارساً من الأعراب فجاءهم وحاربهم ، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً ، وتوجه بالكل إلى المدينة ، فأمر عليه الصلاة والسلام بجعلهم في دار رَمْلَة بنت الحارث .

وفود تميم

فجاء في أثرهم وفد تميم[2] وفيه عُطارد بن حاجب ، والزبرقان بن بدر[3] ، وعمرو بن الأهتم ، فجلسوا ينتظرون الرسول ، فلما أبطأ عليهم نادَوا من وراء الحجرات بصوت جَافٍ : يا محمد أخرج إلينا نفاخرك ، فإن مدحنا زَيْن ، وإن ذمّنا شَيْن ، فخرج إليهم عليه الصلاة والسلام ، وقد تأذى من صياحهم ، وفيهم نـزل في أوائل سورة الحجرات : ﴿ إنَّ الّـذينَ يُنادُونَـكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ، وَلَو أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾[4] وكان الوقت وقت الظهر ، فأذّن بلال ، ودخل النبي للصلاة ، فتعلقوا

---

(١) هي سرية عيينة بن حصن إلى بني تميم .

(٢) بشأن الأسرى .

(٣) هو الحصين : ولقب بالزبرقان لحسن وجهه .

(٤) سورة الحجرات الآية : ٤ ـ ٥ .

به يقولون : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ما بالشعر بُعثنا ولا بالفخار أُمرنا » ثم صلى واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم ، وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر، فقال : إنه لمُطاع في أنديته سيد في عشيرته ، فقال الزبرقان : حسدني يا رسول الله لشرفي ، وقد علم أفضل مما قال . فقال عمرو : إنه لزَمِن المروءة ضيِّق العَطَن لئيم الخال فرُئِيَ الغضب في وجه رسول الله لاختلاف قولَي عمرو فقال : يا رسول الله لقد صدقتُ في الأولى ، وما كذبتُ في الثانية ، رضيتُ فقلت أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلت أسوأ ما علمت . فقال عليه الصلاة والسلام : « إن من البيان لسحراً »[1]. ثم أسلم القوم فردّ النبي عليه الصلاة والسلام عليهم أسراهم ، وأحسن جائزتهم وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن ويتفقهون في الدين .

سرية[2]

ثم بعث عليه الصلاة والسلام الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط[3]لأخذ صدقات بني المصطلق ، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحهم احتفالاً بقدومه ومعهم إبل الصدقة ، فلما نظرهم ظنهم يريدون حربه لما كان بينه وبينهم من العداوة في الجاهلية ، فرجع مسرعاً إلى المدينة ، وأخبر الرسول أن القوم ارتدّوا ومنعوا الزكاة ، فأرسل لهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر ، فسار إليهم في عسكره خفية حتى اذا كان بناديهم سمع مؤذّنهم يؤذّن بالصبح ، فأتاهم خالد فلم يرَ منهم إلا طاعة ، فرجع وأخبر الرسول ، فأرسل

---

(١) رواه البخاري .
(٢) هي سرية الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق .
(٣) عقبة بن أبي معيط : هو أخو عثمان بن عفان لأمه .

عليه الصلاة والسلام لهم غير الوليد لأخذ الصدقات[1]، وفي الوليد نزل في أوائل الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِيْنَ آمَنُوا إن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَنُّوا أَنْ تُصِيْبُوا قَوماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِيْنَ ﴾[2] .

سرية[3]

ثم بلغ رسول الله أن جمعاً من الحبشة رآهم أهل جُدّة في مراكبهم يريدون الإغارة عليها ، فأرسل لهم علقمة بن مُجَزِّز[4] في ثلاثمائة ، فذهب حتى وصل جدة ، ونزل في المراكب ليدركهم ، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك ، فلما رأوا المسلمين يريدونهم هربوا ، ولم يلقَ المسلمون كيداً ، فرجع علقمة بمن معه . ولما كان بالطريق أذن لسرعان القوم أن يتعجلوا ، وأمّر عليهم عبد الله بن حُذافة السَّهْمي ، وكان فيه دعابة[5]، فأوقد لهم في الطريق ناراً ، وقال لهم ألستم مأمورين بطاعتي ؟ قالوا : نعم ، قال : عزمت عليكم إلا ما تواثبتم في هذه النار ، فقال بعضهم : ما أسلمنا إلا فراراً من النار ، وهمَّ بذلك بعضهم فمنعهم عبد الله . وقال : كنت مازحاً! فلما ذكروا ذلك لرسول الله قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[6].

---

(١) هو عباد بن بشر الأنصاري البدري .
(٢) سورة الحجرات الآية : ٦ .
(٣) هي سرية علقمة إلى الحبشة .
(٤) علقمة بن مُجَزِّز الكناني المدلجي .
(٥) وهي ما يستملح من المزاح .
(٦) خبر هذه السرية رواه البخاري في المغازي .

السنة التاسعة

سرية[1]

في ربيع الأول أرسل عله الصلاة والسلام علي بن أبي طالب في مائة راكب وخمسين فارساً لهدم الفُلْس (صنم لطيء) فسار إليه وهدمه وأحرقه ، ولما حارب عُبَّاده هزمهم واستاق نَعَمهم وشاءهم وسبيهم ، وكان فيه سَفَّانةُ بنت حاتم طيء[2]. ولما رجع علي إلى المدينة طلبت سفَّانة من رسول الله أن يَمُنَّ عليها ، فأجابها لأنه كان من سنته ﷺ أن يكرم الكرام ، فدعت له ، وكان من دعائها « شكرتْكَ يد افترقت بعد غنى ، ولا ملكتكَ يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردّها عليه » . وكانت هذه المعاملة من رسول الله سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي[3] الذي كان فرّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده ، وكان من حديث مجيئه ان أخته توجهت إليه بالشام ، وأخبرته بما عُوملت به من الكرم ، فقال لها : ما ترين في أمر هذا

---

(١) هي سرية علي إلى هدم صنم طيء.

(٢) هي بنت الجواد المشهور، أسلمت وحسن إسلامها.

(٣) قال عدي : رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحجّ هذا البيت، وايم الله ولتكونَنَّ الثالثة : ليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.

الرجل ؟ فقالت : أرى أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن نبيّاً فللسابق إليه فضل ، وإن يكن ملكاً فأنت أنت . والله هذا هو الرأي .

وفود عدي بن حاتم

فخرج حتى جاء المدينة ، ولقي رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : من الرجل ؟ قال : عدي بن حاتم ، فأخذه إلى بيته وبينما يمشيان اذ لقيت رسول الله امرأة عجوز فاستوقفته فوقف لها طويلاً تُكَلمه في حاجتها ، فقال عدي : والله ما هو بملك . ثم مضى رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من جلد محشوّة ليفاً فقدّمها إلى عدي ، وقال : اجلسْ على هذه . فقال : بل أنت تجلس عليها ، فامتنع عليه الصلاة والسلام وأعطاها له ، وجلس هو على الأرض ، ثم قال يا عدي : أسلم تسلمْ ، قالها ثلاثاً ، فقال عدي : إني على دين (وكان نصرانياً) فقال له عليه الصلاة والسلام : أنا أعلم بدينك منك ، فقال عدي : أأنت أعلم بديني منّي ؟ قال نعم . ثم عدّ له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب وليس من دين المسيح في شيء ، كأخذه المِرباع وهو ربع الغنائم . ثم قال يا عدي : إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى ، تقول إنما اتّبعه ضَعَفةُ الناس ومن لا قدرة لهم ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله لَيُوشكَنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يُوجد منْ يأخذه، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، أتعرف الحيرة ؟ قال ؛ لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالله ليتمنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم ، وايم الله ليوشكَنَّ أن تسمع بالقصور من أرض بابل قد فُتحت عليهم[١] . فأسلم عدي رضي الله عنه وعاش حتى رأى كل ذلك[٢] .

---

(١) وفد عدي على النبي ﷺ فأسلم وحسن إسلامه ولما توفي رسول الله قدم عدي على أبي بكر =

غزوة تَبُوك[1]

بلغ رسول الله ﷺ أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده ، وكان ذلك في زمن عُسْرة الناس وجدب البلاد وشدة الحرّ حين طابت الثمار ، والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم ، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتجهّز ، وكان قلّما يخرج في غزوة إلا ورّى بغيرها[2] ليُعمِّي الأخبار على العدو إلا في هذه الغزوة ، فإنه أخبر بمقصده لبُعد الشقّة ولشدة العدو ، ليأخذ الناس عدّتهم لذلك ، وبعث الى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك ، وحثَّ الموسرين على تجهيز المعسرين ، فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار ، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها[3] ، وخمسين فرساً ، فقال ﷺ : « اللهمّ ارضَ عن عثمان فإني راضٍ عنه » . وجاء أبو بكر بكل ماله وهو أربعة آلاف درهم ، فقال ﷺ : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، وجاء العباس وطلحة بمال كثير . وتصدّق عاصم بن عدي بسبعين وسْقاً من تمر ، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهنّ ، وجاءه ﷺ سبعةُ أنفس من

= وقت الروق بصدقات قومه، وكان جواداً شريفاً في قومه معظماً عندهم وعند غيرهم روى عنه أنه قال «ما دخل علي وقت صلاة إلا أنا مشتاق إليها» توفي سنة ٦٧ هـ .

(٢) في ابن هشام ج ٢ ص ٥٨٠ أن النبي ﷺ قال لعدي «ألم تكن ركوسياً؟» قال بلى قال «أولم تكن تَسِد قومك بالمرباع قال بلى قال (فان ذلك لم يكن يحل لك في دينك قال: أجل والله وقال وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل. . .) والركوسي من الركوسية وهم قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين.

(١) مكان معروف، وهو نصف طريق المدينة إلى دمشق.

(٢) رواه مسلم من حديث كعب بن مالك.

(٣) الحلس: كساء على ظهر البعير.

فقهاء الصحابة يطلبون اليه أن يحملهم . فقال لا أجد ما أحملكم عليه[١]، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما يُنفقون . فجهز عثمان ثلاثة منهم ، وجهز العباسُ اثنين ، وجهز يامين بن عمرو[٢] اثنين ، ولما اجتمع الرجال خرج بهم رسول الله وهم ثلاثون الفاً ، وولّى على المدينة محمد بن مسلمة ، وعلى أهله علي بن أبي طالب ، وتخلّف كثير من المنافقين يرأسهم عبد الله بن أُبيّ ، وقال : يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد!! أيحسبُ محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الجبال . واجتمع جماعة منهم ، فقالوا في حق رسول الله وأصحابه ما يريدون من الإرجاف ، فبلغه ذلك ، فأرسل إليهم عمّار بن ياسر يسألهم عمّا قالوا ، فقالوا : إنما كنّا نخوض ونلعب . وجاء إليه جماعة منهم الجد بن قيس يعتذرون عن الخروج ، فقالوا : يا رسول الله ائذن لنا ولا تفتنّا لأنّا لا نأمن من نساء بني الأصفر ، وجاء إليه المعذرون من الأعراب ـ وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلّة ـ ليؤذن لهم فأذن لهم ، وكذلك استأذن كثير من المنافقين فأذن لهم ، وقد عتب الله عليه في ذلك الإذن بقوله في سورة براءة : ﴿عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِيْنَ ﴾[٣] ثم قال في حقهم : ﴿إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالله وَاليومِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ في رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[٤] ثم كذّبهم الله في عذرهم فقال : ﴿ وَلَو أَرَادُوا الخُرُوجَ لأعدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ الله انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيْلَ اقْعُدُوا مَع القَاعِدِيْنَ ﴾[٥] ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود

---

(١) فنزل فيهم قوله تعالى في سورة براءة: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ .

(٢) يا مين بن عمير، كان من كبار الصحابة .

(٣) سورة التوبة : الآية : ٤٣ .

(٤) سورة التوبة : الآية : ٤٥ .

(٥) سورة التوبة : الآية : ٤٦ .

المنافقين عنهم قال جلّ ذكره : ﴿ لَو خَرَجُوا فِيْكُمْ مَا زَادُوكُمْ إلاّ خَبَالاً وَلأوضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُون لَهُمْ وَالله عَلِيْمٌ بالظالِمِيْنَ ﴾(١) وتخلّف جماعة من المسلمين لا يُتَّهمون في إسلامهم منهم: كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وأبو خيثمة . ولما خلَّف ﷺ عليّاً ، قال المنافقون : قد استثقله فتركه ، فأسرع إلى رسول الله وشكا له ما سمع ، فقال ﷺ : « أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى ؟ »(٢). ثم سار ﷺ بالجيش ، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق ، وفي إعطاء اللواء لأبي بكر آخر غزوة للرسول وتخليف عليّ على أهل البيت حكمة لطيفة يفهمها القارىء . وفرق عليه الصلاة والسلام الرايات ، فأعطى الزبير راية المهاجرين ، وأسيد بن حضير راية الأوس ، والحُباب بن المنذر راية الخزرج ، ولما مرّ الجيش بالحِجْر وهي ديار ثمود قال ﷺ لأصحابه : « لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلاّ وأنتم باكون»(٣) ليشعر قلوبهم رهبة الله ، وكان مستعملاً على حرس الجيش عبَّاد بن بشر ، وكان أبو بكر يصلي بالجيش ، ولما وصلوا إلى تبوك ، وكانت أرضاً لا عِمارة فيها ، قال الرسول لمعاذ بن جبل : يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا مليء بساتين ، وقد كان .

ولما استراح الجيش لحقه ابو خيثمة ، وكان من خبر مجيئه أن دخل على أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان قد رشت كلٌّ منهما عريشتها ، وبرَّدت فيها ماء ، وهيأتْ طعاماً ، وكان يوماً شديد الحر ، فلما نظر ذلك قال : يكون رسول الله في الحر وأبو خيثمة في ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء! ما هذا بالنَّصَف . ثم قال : والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله فهيئا لي زاداً ففعلتا ، ثم ركب بعيره ، وأخذ سيفه ورمحه ، وخرج

---

(١) سورة التوبة: الآية: ٤٧ .
(٢) رواه البخاري .
(٣) رواه مسلم .

يريد رسول الله فصادفه حين نزل بتبوك(١).

وفود صاحب أَيْلة

هذا ولم يرَ ﷺ بتبوك جيشاً كما كان قد سمع ، فأقام هناك أياماً جاءه في أثنائها يُوحنا صاحب أيلة وصحبته أهل جَرباء(٢) وأهل أَذْرُح(٣) وأهل ميناء، فصالح يوحنا رسول الله على إعطاء الجزية ولم يسلم . وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته :

كتاب صاحب أيلة

بسم الله الرحمن الرحيم هذا أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا وأهل أيلة : سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحوز ماله دون نفسه ، وإنه لَطِيبَةٌ(٤) لمن أخذه من الناس وإنه لا يحلّ أن يُمنعوا ماء يريدونه من بر أو بحر .

كتاب أهل أَذْرُح وجرباء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء ، إنهم آمنون بأمان الله وأمانْ محمد ،

---

(٣) وفي مسلم «رأى ـ رسول الله ﷺ ـ رجلاً مبيضاً يزول به السراب، فقال: كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري». واسمه عبد الله خيثمة. شهد أحداً مع النبي ﷺ وبقي إلى أيام يزيد بن معاوية.

(٢) قرية في جنوب الشام. المؤلف.

(٣) مدينة تلقاء السراة. المؤلف.

(٤) مال طِيبة: أي مال صحيح السِّباء.

وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين) وصالح أهل ميناء على ربع ثمارهم .

ثم إن الرسول استشار أصحابه في مجاوزة تبوك الى ما هو أبعد منها من ديار الشام ، فقال له عمر : إن كنت أُمرت بالسير فسِرْ . فقال عليه الصلاة والسلام : لو كنت أُمرت بالسير لم أستشر ، فقال : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة ، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا وقد أفزعهم دنوّك ، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً ، فتبع عليه الصلاة والسلام مشورته ، وأمر بالقفول فرجع الجيش إلى المدينة(١).

مسجد الضرار

ولما كان على مقربة منها(٢)بلغه خبر مسجد الضِّرار وهو مسجد أسَّسه جماعةٌ من المنافقين معارضة لمسجد قُباء، ليفرقوا جماعة المسلمين . وجاء جماعة منهم إلى الرسول طالبين منه أن يصلِّي لهم فيه، فسألهم عن سبب بنائه، فحلفوا بالله إن أردنا إلاّ الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه(٣)لينطلقوا إليه ويهدموه ففعلوا. (هذا) ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً، فقبل منهم عليه الصلاة والسلام علانيتهم، ووكل ضمائرهم إلى الله واستغفر لهم.

حديث الثلاثة الذين خُلِّفوا

وجاءه كعبُ بن مالك الخزرجي، ومُرارة بن الرّبيع، وهلال بن أميَّة

(١) وذلك بعد أن أقام بتبوك بضع عشرة ليلة، ولم يلق حرباً.
(٢) بينها وبين المدينة ساعة.
(٣) هما مالك بن الدخشم، ومعن بن عدي العجلاني.

الأوسيان مقرِّين بذنوبهم، فلما دخل عليه كعب تَبَسَّم تَبَسُّمَ الغَضب وقال ما خلَّفك؟ فقال: يا رسول الله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرجَ من سخطه بعذر، ولقد أُوتيتُ جدلاً؟[1]ولكني والله لقد علمتُ لئن حدَّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليُوشِكنَّ الله أن يَسْخَط عليّ فيه، ولئن حدَّثتك حديث صِدق تغضب عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر. فقال عليه الصلاة والسلام: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك. وقال صاحباه مثل قوله، فقال لهما عليه الصلاة والسلام كما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم، فاجتنبهم الناس، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، واستأذنت زوجُ هلال بن أمية في خدمة زوجها لأنه شيخ. ضائع ليس له خادم فأذن لها، ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا ألّا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام من يبشرهم بهذه النعمة الكبرى، فتلقاهم الناس أفواجاً أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله. فلما دخل كعب المسجد تلقاه رسول الله مسروراً، فقال: أبشر يا كعب بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك، فقال: من عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. فقال كعب: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقة لله ولرسوله، فقال عليه الصلاة والسلام: أمسكْ عليك بعض مالك فهو خير لك. ثم قرأ عليه الصلاة والسلام الآيات التي فيها توبته هو وصاحبيه في سورة براءة: ﴿وَعَلى الثَّلاثَةِ الذِيْنَ خُلِّفُوا حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفسهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ الله إلا إلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إنَّ الله هُو التَّوَابُ الرَّحِيْم﴾[2].

(١) أي فصاحة، وقوة كلام.

(٢) سورة التوبة الآية: ١١٨.

وفود ثقيف

وعقب مقدمه عليه الصلاة والسلام من تبوك وفد عليه وفد ثقيف، وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله من محاصرتهم(١)تبع أثره عُروة بن مسعود الثقفي(٢)حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، فقال له: إنهم قاتلوك، فقال: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم، لأنه كان فيهم محبباً مطاعاً، فلما جاء الطائف وأظهر لهم ما جاء به رمَوه بالنَّبل فقتلوه، وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب(٣)،فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلِّمه، وطلبوا من عبد ياليل بن عمرو أن يكون ذلك الرجل فأبى، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم فخرجوا متوجهين إلى المدينة، ولما قابلوا رسول الله ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلّوا. وكانوا يَغْدون إلى رسول الله كل يوم ويخلِّفون في رحالهم أصغرهم سنّاً عثمان بن أبي العاص(٤).فكان إذا رجعوا ذهب للنبي واستقرأه القرآن، وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن وهو يكتم ذلك عن أصحابه ثم أسلم القوم، وطلبوا أن يُعَيِّن لهم من يؤمُّهم، فأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رآه من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين.

(١) فقال: «اللهمّ اهدِ ثقيفاً وأتِ بهم مسلمين».
(٢) ورد ذكره في صحيح مسلم.
(٣) لأنهم بايعوا وأسلموا.
(٤) الثقفي، استعمله النبي ﷺ على الطائف، ثم سكن البصرة حتى مات بها.

كتاب أهل الطائف

ثم كتب لهم كتاباً من جملته: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين،إن عِضاه وجٍّ[1] وصيده حرام،لا يعضد[2] شجره ومن وُجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه) ثم سألوا رسول الله أن يُؤَجِّل هدم صنمهم شهراً حتى يدخل الإسلام في قلوب القوم ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه، فرضي عليه الصلاة والسلام[3]، ولما خرجوا من عنده قال لهم رئيسهم: أنا أعلمكم بثقيف اكتموا عنهم إسلامكم وخوِّفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً طلب أموراً عظيمة أبيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية، وأن نترك الزنا، وشرب الخمر والربا، فلما حلّوا بلادهم جاءتهم ثقيف، فقال الوفد: جئنا رجلاً فظّاً غليظاً قد ظهر بالسيف، ودان الناس له، فعرض علينا أموراً شديدة، وذكروا ما تقدم. فقالوا والله لا نطيعه أبداً، فقالوا لهم: أصلحوا سلاحكم، ورمُّوا حصونكم، واستعدوا للقتال، فأجابوا، واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فقالوا: والله ما لنا بحربه من طاقة ارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا لِمَ كتمتم علينا ذلك ؟ قالوا : حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان فأسلموا .

هدم اللاَّت

ولما بلغ رسولَ الله إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفي لهدم اللات صنم ثقيف بالطائف، فتوجهوا وهدموه حتى سوّوه بالأرض.

---

(١) عضاه: كشفاه.

(٢) يعضد: يقطع.

(٣) في ابن هشام ج ٢ ص ٥٤٠: وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى ذلك عليهم فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهراً واحداً بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى. .

حج أبي بكر

وفي أُخريات ذي القعدة أرسل عليه الصلاة والسلام أبا بكر ليحجّ بالناس فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدي عشرون بدنة أهداها رسول الله، وساق أبو بكر خمس بدنات، ولما سافر نزل على رسول الله أوائل سورة براءة، فأرسل بها عليّاً ليبلغها الناس في يوم الحج الأكبر، وقال: لا يبلغُ عني إلا رجل منّي، فلحق أبا بكر في الطريق، فقال الصديق: هل استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ أو أتلو براءة على الناس. فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم عليٌّ ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة، تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفّوا عهودهم، وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كيف شاؤوا، وإتمام عهد المشركين الذين لم يُظاهروا على المسلمين ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم نادى: لا يَحُجُّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان(١)،وكان علي يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر رضي الله عنهما.

وفاة ابن أُبيّ

وفي ذي القعدة مات عبدالله بن أُبيّ(٢)، وقد صلَّى عليه رسول الله صلاة لم يطل مثلها، وشَيَّعَ جنازته حتى وقف على قبره، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب ولده عبدالله بن عبدالله وتأليفاً لقلوب الخزرج لمكانة عبدالله بن أُبّيَ فيهم، وقد نَزَعَ رِبْقَةَ النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم لما رأوه من أعمال السيد الكريمﷺ، وقد نهى الله رسوله عن الصلاة على المنافقين، فقال جلّ شأنه في

(١) رواه البخاري.

(٢) ابن سلول رأس المنافقين.

سورة براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ على أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبداً وَلَا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ﴾(١).

وفاة أُمّ كلثوم

وفي هذه السنة توفيت أُمّ كلثوم بنت رسول الله وزوج عثمان رضي الله عنهما.

(١) سورة براءة الآية: ٨٤.

السنة العاشرة

سرية [1]

في ربيع الآخر أرسل عليه الصلاة والسلام خالد بن الوليد في جمع لبني عبد المدان[2]بنجران من أرض اليمن، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم بعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ويقولون: أسلموا تسلموا، فأسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً، فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن، وكتب إلى رسول الله بذلك، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم ففعل. وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم: بِمَ كنتم تَغْلِبون مَنْ قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: صدقتم وأمَّر عليهم قيس بن الحصَين[3].

سرية [4]

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام عليّاً في جمع إلى بني مَذْحِج (قبيلة يمانية) وعَمَّمه بيده، وقال: سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى قول:

(١) هي سرية خالد بن الوليد إلى نجران.

(٢) المدان: اسم صنم.

(٣) اسم الصحابي هنا موافق لما في شرح المواهب وسيرة ابن هشام.

(٤) هي سرية علي بن أبي طالب إلى بني مذحج.

لا إله إلاّ الله، فإن قالوا نعم فمُرهُم بالصلاة ولا تبغِ منهم غير ذلك، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فلما انتهى إليهم لقي جموعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ورموا المسلمين بالنبل فصفَّ عليّ أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم فكفَّ عن طلبهم، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا وبايعه روساؤهم وقالوا: نحن على مَنْ وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله ففعل. ثم رجع إلى رسول الله فوافاه بمكة في حجة الوداع.

بعث العمال إلى اليمن

ثم بعث عليه الصلاة والسلام إلى اليمن عمالاً من قبله، فبعث معاذ بن جبل على الكورة العليا من جهة عدن[١]،وبعث أبا موسى الأشعري على الكورة السفلى، ووصّاهما ﷺ بقوله: «يسِّرا ولا تُعسِّرا وبشِّرا ولا تنفرا»[٢]وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فإن أطاعوا لك بذلك فاخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك. فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٣] وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله، أما أبو موسى فقدم على الرسول ﷺ في حجة الوداع[٤].

---

(١) جبل بمعلاة مكة. المؤلف.

(٢) رواه البخاري.

(٣) لكنه رجع إلى اليمن ولم يشهد وفاة النبي ﷺ.

(٤) رواه البخاري.

حجة الوداع[1]

وفي السنة العاشرة حجّ ﷺ بالناس حجةً ودّع فيها المسلمين ولم يحج غيرها. وخرج لها يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وولّى على المدينة أبا دجانة الأنصاري[2]، وكان مع الرسول جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً، وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته ثم لبّى، فقال: «لبّيك اللهم لبيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمد والنعمة لك والمُلْك لا شريك لك»[3]. ولم يَزَلْ ﷺ سائراً حتى دخل مكة ضُحىً من الثنية العليا وهي ثنية كداء. ولما رأى البيت قال: اللهمّ زِدْه تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً. ثم طافَ بالبيت سبعاً واستلم الحجر الأسود، وصلّى ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب من ماء زمزم، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته، وكان إذا صعد الصفا: يقول: «لا إلّه إلاّ الله، الله أكبر، لا إلّه إلاّ الله وحده، أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده»[4]. وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى فبات بها.

خطبة الوداع

وفي التاسع منه توجه إلى عَرَفة، وهناك خطب خطبته الشريفة التي بيَّن فيها الدين كله أُسه وفرعه، وهاكَ نصها:

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئآت أعمالنا. مَنْ يهدِ الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضْلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

---

(١) حجة: بكسر الحاء وبفتحها، وتسمى حجة الإسلام أو البلاغ.

(٢) هو سماك بن خرشة الأنصاري الخزرجي شهد بدراً وكان من الأبطال الشجعان ودافع عن رسول الله ﷺ يوم أحد وشهد اليمامة واستشهد بها.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم.

أُوصيكم عباد الله بتقوى الله وأَحُثُّكُم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد: أيها الناس اسمعوا منّي أُبَيِّن لكم فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا، أيّها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربَّكم، كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهمّ فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها. إن ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماءَ الجاهلية موضوعة وأوَّلُ دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث[1]،وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعَمْد قَوَدٌ[2]،وشبه العَمْد ما قُتِل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقِرون من أعمالكم. أيها الناس:إن النسيء[3] زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً، ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله، وإن الزمانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض[4]،وإن عِدَّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حُرُمٌ ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جُمادى وشعبان ألا هل بلغت؟ اللهمّ اشهد. أيّها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهنّ حَقّ ألاّ يوطئن فرشَكُم غيركم ولايُدْخِلْنَ أحداً تكرهونه

---

(١) لأنه كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل.

(٢) القود: القصاص.

(٣) كانت العرب تحرم أربعة أشهر ثلاث متواليات: وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وشهر رجب، وكانوا ربما استطالوا هذه الأشهر المتوالية لحاجتهم إلى الحرب والقتال، فأحلّوا المحرم وحرّموا صَفراً من العام المقبل، فهذا هو الذي عابه القرآن عليهم لاتباعهم الهوى في عقيدتهم. المؤلف.

(٤) أشار بهذا الحديث إلى بطلان النسيء الذي كانت تفعله العرب في الجاهلية.

بيوتَكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة،فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تَعْضُلُوهنّ[1] وتهجروهُنّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وإنما النساء عندكم عَوَانٍ[2]،لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهمّ اشهد. أيّها الناس: إنما المؤمنون إخوة ولا يَحِلُّ لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلّغت؟ اللهمّ اشهد، فلا تَرْجِعُنَّ بعدي كُفَّاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تَضِلوا بعده كتاب الله، ألا هل بلّغت؟ اللهمّ اشهد. أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضلٌ على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلّغت؟ اللهمّ اشهد، فليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ، أيُّها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارثٍ وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ[3]، من ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمةالله»[4]وفي هذا اليوم امتنَّ الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِيْنَكُمْ وَأَتْممتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْناً﴾[5]فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يُظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى. ثم إنه عليه الصلاة والسلام أدَّى مناسك

(١) العضل: هو الحبس والتضييق. المؤلف.

(٢) عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة.

(٣) العاهر: الزاني.

(٤) قال الامام النووي: (وحديث جابر بن عبد الله ـ هذا ـ حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد، وهو من أفراد مسلم لم يروه البخاري في صحيحه، ورواه أبو داود ـ في المناسك رقم: ١٩٠٥ ـ كرواية مسلم).

(٥) سورة المائدة الآية: ٣.

الحج من رمي الجِمار والنحر والحلق والطواف، وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قَفَلَ إلى المدينة ولما رآها كبَّر ثلاثاً وقال: «لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

الوفود[١]

في هذه السنة والتي قبلها كان وفود العرب إلى رسول الله ليبايعوه على الإسلام، وكان يَقْدُمون أفواجاً، ولما في أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الأدب أن يعرفها رأينا أن نذكر لك منها ما يزيـدك يقيناً ويُنير بصيرتك فنقول:

وفود نَجْران

ومن الوفود وفد نصارى نجران وكانوا ستين راكباً دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحِبَرَة[٢]وأردية الحرير مختمين بالذهب ومعهم بسط فيها تماثيل ومُسُوح[٣] جاؤوا بها هـدية للنبي ﷺ فلم يقبـل البسط وقبل المُسُـوح. ولما جـاء وقت صـلاتهم صلّوا في المسجد مستقبلين بيت المقـدس[٤]، ولما أتمـوا صلاتهم دعاهم عليه الصلاة والسلام للإسلام فأبوا وقالوا: كنّا مسلمين قبلكم، فقال عليه الصلاة والسلام: يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً، قالوا: فمن مثل عيسى خلق من غير أب؟ فأنزل

(١) وهم غير من تقدم ذكرهم من الوفود.
(٢) الحِبَرة: ضرب من برود اليمن.
(٣) هو ثوب من الشعر غليظ. ومفرد مسوح: مِسْح.
(٤) مستقبلين المشرق، بخلاف ما ذكر المؤلف.

الله في ذلك في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيْسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيكُونُ﴾(١) وليُظهِر الله أنهم في شك من أمرهم أنزل: ﴿فَمَنْ حاجَّكَ فِيْهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالَوا نَدْعُ أَبْنَاءَنا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِيْنْ﴾(٢). فدعاهم ﷺ لذلك فامتنعوا ورضوا بإعطاء الجزية وهي ألف حلة في صَفَر وألف حلّة في رجب مع كل حلّة أوقية من ذهب(٣) ثم قالوا إرسل معنا أميناً فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة(٤).

وفود ضِمَامِ بن ثعلبة

ومن الوفود ضمام بن ثعلبة، بينا رسول الله بين أصحابه متكئاً جاء رجل من أهل البادية ثائرَ الرأس يُسمع دون صوته ولا يُفْقَه ما يقول، فأناخ جمله في المسجد ثم قال: أيّكم ابنُ عبد المطلب؟ فدلّوه عليه، فدنا منه وقال: إني سائلُكَ فمشدّدٌ عليك في المسألة فلا تَجِد(٥) عليّ في نفسك. فقال: سَلْ ما بدا لك، فقال أَنْشُدُك بالله! آلله أرسلك إلى الناس كلِّهم؟ فقال: نعم، فقال أَنْشُدُكَ بالله: آلله أمرك أن نصلّي خمسَ صلوات في اليوم والليلة؟ قال: اللهمّ نعم، فقال أَنْشُدُكَ بالله: آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فتردَّه على فقرائنا؟ قال: اللهمّ نعم، قال أَنْشُدُكَ بالله: الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهراً؟ قال: اللهمّ نعم، قال أَنْشُدُكَ بالله: آلله أمرك أن نحجَّ هذا البيت من استطاع إليه

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٥٩.

(٢) سورة آل عمران الآية: ٦١.

(٣) أوقية من فضة.

(٤) وحديث مسلم: أبعث معنا رجلاً يعلّمنا الإسلام قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة».

(٥) أي لا تغضب. المؤلف.

سبيلاً؟ قال: اللهمّ نعم، قال: فإني قد آمنت وصدقتُ وأنا ضمام بن ثعلبة[1]. ولما ولّى قال عليه الصلاة والسلام: فَقُهَ الرجل: ثم ذهب ضمام إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام وتركِ عبادة الأوثان فأسلموا كلهم.

وفود عبد القيس

ومن الوفود عبد القيس، وكان من خبرهم أن الرسول كان جالساً بين أصحابه يوماً، فقال لهم: سيطلع عليكم من هنا ركبٌ هم خير أهل المشرق، لم يُكرهوا على الإسلام، قد أنضوا[2] الركائب وأفنوا الزاد، اللهمّ اغفر لعبد القيس. فلما أتوا ورأوا النبي ﷺ رَمَوا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إلى رسول الله يسلمون عليه، وكان فيهم عبدالله بن عوف الأشج[3]، وكان أصغرهم سنّاً فتخلّف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشي هَوْناً حتى سلَّم على رسول الله، وكان رجلاً دميماً فَفَطِن لنظر الرسول إلى دمامته، فقال يا رسول الله: إنه لا يُستقى في مسوك جلود الرجال، وإنما الرجل بأصغريه: قلبه ولسانه، فقال ﷺ: (إن فيك خلتين يُحبُّهما الله ورسوله الحِلم والأناة)[4]. وقد قال ﷺ لهذا الوفد: مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى، فقالوا: يا رسول الله إنّا نأتيك من شُقَةٍ بعيدة[5] وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحيّ من كفار مُضر، وإنّا لا نصلُ إليك إلاّ في شهر حرام فمُرنا بأمرٍ فصل، فقال: «آمركم بالإيمان بالله. أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إلَه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقامَ الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان،

---

(١) رواه البخاري.
(٢) انضوا: أهزلوا.
(٣) رواه مسلم.
(٤) الأشـج: إذا كان في جبينه أثر الشجة بيناً.
(٥) لأن ديارهم كانت بساحل الخليج الفارسي.

وأن تُعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن الدُّباء[1] والحنتم[2] والنقير[3] والمزفت[4]»والمراد بذلك ما ينبذ[5] في هذه الأواني. فقال الأشج: يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة وإنّا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فَرَخِّص لنا في مثل هذه وأشار إلى يده، فأومأ عليه الصلاة والسلام بكفّيه وقال: (يا أشج إن رخصتُ لك في مثل هذه شربته في مثل هذه ـ وفرج بين يديه وبسطها ـ حتى إذا ثَمِلَ أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فضربَ ساقه بالسيف). وإنما خَصَّ عليه الصلاة والسلام نهيهم بما ذكر لكثرة الأشربة بينهم.

وفود بني حَنيفة

ومن الوفود بنو حنيفة وكان معهم مُسَيْلِمة الكذاب، وكان مسيلمة يقول: إن جَعل لي الأمر من بعده اتَّبَعْتُه، فأقبلَ عليه الصلاة ومعه ثابت بن قَيْس بن شَمَّاس وفي يد رسول الله قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، وإني لأراك الذي منه رأيت. وكان عليه الصلاة والسلام قد رأى في منامه أن في يده سوارين من ذهب، فأهمَّه شأنهما، فأوحى الله إليه أن انفخهما فنفخهما فطارا، فأوّلهما ﷺ كذابَيْن يخرجان من بعده[6]، فكان مسيلمة أحدهما، والثاني الأسود العنسي صاحب صنعاء. وقد أسلم بنو حنيفة.

---

(١) القرع. المؤلف.

(٢) هو جرار مدهونة بدهن أخضر. المؤلف.

(٣) هو أصل النخلة ينقر. المؤلف.

(٤) ما طُلِيَ بالزفت. المؤلف.

(٥) أي ما يصير نبيذاً مسكراً.

(٦) روى البخاري خبر مسيلمة هذا في المغازي.

وفود طَيء

ومن الوفود وفد طيء وفيهم زيد الخيل[1]رئيسهم، وقد قال ﷺ في حقه: «ما ذُكِرَ لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل» وسمّاه ﷺ زيد الخير.

وفود كِنْدة

ومنهم وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس[2]، وكانَ وجيهاً مطاعاً في قومه. ولما دخلوا على رسول الله خبأوا له شيئاً، وقالوا: أخبرنا عمّا خَبأناه لك؟ فقال: سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإنَّ الكاهن والمتكهن في النار. ثم قال: إنّ الله بعثني بالحق وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقالوا: أسمعنا منه، فتلا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّاً فَالـزَّاجِراتِ زَجْراً فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً إنَّ إلَهكُمْ لَوَاحِدُ رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المَشَارِقِ﴾[3] ثم سكتَ وسكنَ ودموعُهُ تجري على لحيته فقالوا: إنّا نراك تبكي؟ أفمن مخافةِ من أرسلكَ تبكي؟ قال: إن خشيتي منه أبكتني . بعثني على صراط مستقيم في مثل حدّ السيف إن زغت عنه هلكتُ، ثم تلا: ﴿وَلئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنّ بالّذِي أَوْحيْنَا إلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيْلاً إلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيْراً﴾[4] ثم قال لهم عليه الصلاة والسلام: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى، قال: ما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فعند ذلك شَقُّوه وألقَوْهُ.

---

(١) زيد بن مهلهل بن زيد الطائي، أقطعه النبي ﷺ أرضاً بنجد.

(٢) كان من ملوك كندة، ثم شهد الأشعث اليرموك بالشام والقادسية وغيرها.

(٣) سورة الصّافّات الآيات: ١ ـ ٥.

(٤) سورة الاسراء الآية: ٨٦ ـ ٨٧.

وفود ازدشنوءة

ومنهم وفد أزدشنوءة ورئيسهم صُرَدُ بن عبدالله الأزدي ، فأسلموا وأمَّره عليهم، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك.

وفود رسول ملوك حمير

ومنهم وفد رسول ملوك حمير وهم: الحارث بن عبد كُلال ونُعيم بن عبد كُلال والنُّعمان قَيْلُ ذي رُعين[١] ومَعَافِرَ وهَمْدان وكانوا قد أسلموا، وأرسلوا رسولهم بذلك فكتب إليهم النبي ﷺ:

كتاب ملوك حمير

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كُلال وإلى نُعيم بن عبد كُلال وإلى النعمان قَيلِ ذي رُعَيْن ومَعافر وهَمْدان. أما بعد فإني أحمد الله إليكم الذي لا إلّه إلاّ هو، أما بعد: فإنه قد وقع بنا رسولكم مُقفلنَا من أرض الروم[٢]،فلقيناه بالمدينة فبلَّغ ما أرسلتم به، وخبَّر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهُداه، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من الغنائم خُمُس الله، وسهمَ النبي وصَفيّه[٣]،وما كُتب على المؤمنين من الصَّدقة. أما بعد: فإن محمداً النبي أرسل إلى زُرْعَةَ ذي يزن[٤]إذا أتاكم رُسُلي فأوصيكم بهم خيراً: مُعاذ بن جبل،وعبدالله بن زيد، ومالك بن عُبادة، وعُقبة بن نمر، ومالك بن مُرّة

(١) القيل: وهم الملوك الذين دون الملك الأكبر.

(٢) أي عند مقدمه ﷺ من غزوة تبوك.

(٣) ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة لنفسه قبل أن تقسم الغنائم.

(٤) زرعة بن ذي يزن، أسلم وآمن بالنبي ﷺ ولم يره.

وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم، وأبلغوها رسُلي، وإن أميرهم معاذُ بن جبل فلا يَنقَلِبَنَّ إلا راضياً، أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مرّة الرَّهاوي قد حدّثني أنك أسلمت من أوّل حمير، وقتلت المشركين، فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإن رسول الله هو مولى غنيِّكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تَحِلُّ لمحمد ولا لأهل بيته، إنما هي زكاة يُزَكَّى بها على فُقراء المسلمين وابن السبيل، وأن مالكاً قد بلَّغ الخبر، وحفِظ الغَيب، وآمركم به خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وفود هَمْدان

ومنها وفد هَمْدان وفيهم مالك بن نَمَط، وكان شاعراً مجيداً، فلقوا رسول الله مَرْجِعَهُ من تبوك عليهم مُقَطَّعَات من الحِبْرات[1] اليمنية، والعمائم العدنية، وقد أنشد مالك لرسول الله ﷺ.

حلفتُ بربّ الراقصاتِ[2] إلى مِنىً ... صَوادرَ[3] بالركبانِ من هَضْبِ قَرْدَدِ[4]
بأنَّ رسولَ الله فينا مُصَدَّقٌ ... رسولٌ أتى من عند ذي العرش مهتدِ
فما حملتْ من ناقةٍ فوقَ رحلها ... أشدَّ على أعدائِهِ من محمدِ

وقد أمَّره ﷺ على من أسلم من قومه، وقد قال الرسول في حق همدان: نعم الحيّ همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال[5] وفيهم أوتاد.

---

(١) المقطعات: الثياب المخيطة من برود اليمن.
(٢) الراقصات: الإبل،
(٣) صوادر: رواجع.
(٤) القردد: ما ارتفع من الأرض.
(٥) الأبدال: هم الأولياء والعبّاد، وسمّوا بذلك لأنهم كلما مات واحد منهم أُبدل به آخر.

وفود تَجِيْب[1]

ومنها وفد تجيب قبيلة من كندة وفد على رسول الله ثلاثة عشر رجلاً منهم، ومعهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسُرّ بهم عليه الصلاة والسلام وأكرم مثواهم، وقالوا: يا رسول الله إنّا سُقْنَا إليك حق الله في أموالنا، فقال عليه الصلاة والسلام: ردّوها فاقسموها على فقرائكم» فقالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، قال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا من وفد من العرب مثل هذا. فقال عليه الصلاة والسلام: إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان، وجعلوا يسألونه عن القرآن، فازداد ﷺ رغبة فيهم، ثم أرادوا الرجوع إلى أهليهم فقيل لهم: ما يعجلكم؟ قالوا: نرجع إلى مَنْ وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ولقائنا إيّاه وما ردّ علينا، ثم جاؤوا إلى رسول الله فودَّعوه، فأجازهم بأفضل ما كان يُجيز به الوفود، ثم قال لهم: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غُلام خَلّفْناه في رِحالنا وهو أحدثنا سِناً، قال: فارسلوه إلينا فأقبل الغلام، وقال: يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حاجتهم فاقض حاجتي: قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفرَ لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي. فقال عليه الصلاة والسلام: اللهمّ اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.

وفود ثعلبة

ومنها وفد ثَعْلَبَة وفد على رسول الله أربعة منهم مقرّين بالإسلام فسلَّموا عليه وقالوا: يا رسول الله إنّا رُسل مَنْ خلفنا من قومنا ونحن مقرُّون بالإسلام، وقد قيل لنا إنك تقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال عليه الصلاة والسلام: «حيثما كنتم واتَّقَيْتُم الله فلا يَضُرُّكم»، ثم قال لهم: كيف بلادكم؟ فقالوا:

(١) بضم التاء وفتحها.

مخصبون، فقال: الحمد لله. ثم أقاموا في ضيافته أياماً، وحين إرادتهم الإنصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواق من فضة.

وفود بني سعد هُذَيم[1]

ومنها وفد بني سعد هذيم من قضاعة، قال النعمان منهم: قدِمت على رسول الله وافداً في نفر من قومي: وقد أوطأ رسول الله البلاد وأزاح العرب[2]، والناس صنفان: إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف السيف، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نَؤُمُّ[3]المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فوجدنا رسول الله يصلي على جنازة في المسجد، فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم، وقلنا حتى بصلي رسول الله ونُبايعه. ثم انصرف رسول الله فنظر إلينا فدعا بنا فقال: ممّن أنتم؟ فقلنا من بني سعد هذيم، فقال أمسلمون أنتم؟ قلنا: نعم، فقال: هَلاَّ صلّيتم على أخيكم؟ قلنا: يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك، فقال عليه الصلاة والسلام أينما أسلمتم فأنتم مسلمون. قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله بأيدينا، ثم انصرفنا إلى رِحَالنا، وقد كُنَّا خَلَّفْنَا أصغرنا فبعث عليه الصلاة والسلام في طلبنا، فأتى بنا إليه فتقدم صاحبنا فبايعه ﷺ على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا فقال: سيد القوم خادمهم[4] بارك الله عليه. قال النعمان: فكان خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء النبي ﷺ[5]، ثم أجازهم وانصرفوا.

---

(١) في الأصل: سعد بن هذيم وهو خطأ.

(٢) أوطأ: أي جعلها موطأة قهراً وغلبة.

(٣) نؤم: نقصد.

(٤) وهو حديث ضعيف، وقد يقال حسن لغيره.

(٥) في السيرة الحلبية ثم أمره علينا فكان يؤمنا.

وفود بني فَزَارة

ومنها وفد بني فزارة وفَدَ على رسول الله جماعة منهم مقرّين بالإسلام وهم مُسْنِتون(١)، فسألهم عليهم الصلاة والسلام عن بلادهم، فقال رجل منهم: يا رسول الله أسنَتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدَب جَنَابنا(٢)، وجاعت عيالنا. فادعُ لنا ربك يُغثْنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك، فقال عليه الصلاة والسلام: (سبحان الله، ويلك هذا، أنا أشفع إلى ربي فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه! لا إلّه إلا هو العليّ العظيم وسِعَ كرسيّه السموات والأرض فهي تَئِط(٣)من عظمته وجلاله كما يئط الرَّحْل) الحديث. أي من ثقل الحمل، ثم صعد عليه الصلاة والسلام المنبر، ودعا الله عزّ وجلّ حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير والرحمة التامة.

وفود بني أَسَد

ومنها وفد بني أسد، وفيهم، ضِرَار بن الأزوَر وطُليحة بن خويلد(٤)الذي ادّعى النبوّة بعد ذلك، فأسلموا، وقالوا: يا رسول الله أتيناك نتدرَّع الليل البهيم في سنة شهباء(٥)ولم تبعث إلينا بعثاً، فأنزل الله في ذلك: ﴿يَمنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَليّ إسْلامَكُمْ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ للإيمانِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾(٦)وسألوا رسول الله ﷺ عمّا كانوا يفعلون في الجاهلية من

---

(١) أي أصابهم الجدب.
(٢) الجناب: أي ما حوْلَ بيوتنا.
(٣) أي تصوت. المؤلف.
(٤) في الأصل: طليحة بن عبد الله وهو خطأ.
(٥) أي نجعل الليل الشديد الظلمة درعاً لنا في سنة جدباء لا مطر فيها.
(٦) سورة الحجرات الآية: ١٧.

العيافة[1] والكهانة[2]، وضرب الحصباء، فنهاهم عن ذلك، ثم سألوه عن ضرب الرمل، فقال: عُلِّمَهُ نبي فمن صادف مثل علمه فذاك وإلا فلا. ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض، وبعد ذلك ودَّعوا وانصرفوا بعد أن أُجيزوا.

وفود بني عُذْرَة

ومنها وفد بني عذرة ووفد بني بَلِيّ، ووفد بني مُرَّة، ووفد خولان - وهي قبائل باليمن[3] - وقد أمرهم عليه الصلاة والسلام بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة.

وفود بني مُحارِب

ومنها وفد بني محارب، وكانوا من الذين ردُّوا الرد القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعو القبائل إلى الله، فما أعظم منّة الله الذي أتى بهؤلاء (وكانوا ألدّ الأعداء) مسلمين مُنقادين.

وفود غَسَّان

ومنها وفد غسان، ووفد بني عَبْس، ووفد النَّخَع.

وكان عليه الصلاة والسلام يقابل هذه الوفود بما جَبَلَهُ الله عليه من البشاشة وكرم الأخلاق، ويُجيزهم بما يرضيهم، ويعلِّمهم الإيمان والشرائع ليعلِّمُوا من وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظم وصلة لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي.

---

(1) هي زجر الطير، المؤلف.

(2) هي الإخبار عن الكائنات. المؤلف.

(3) وهو خطأ والصواب وهي قبيلة باليمن والمقصود قبيلة خولان

وفاة إبراهيم بن النبي عليه الصلاة والسلام

وفي هذه السنة توفي إبراهيم بن رسول الله ﷺ(1).

(1) رواه البخاري في الجنائز: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

السنة الحادية عشرة

سرية[1]

لأربع بقينَ من صفر جهز عليه الصلاة والسلام جيشاً برياسة أُسامة بن زيد إلى أُبْنى[2]حيث قتل زيد بن حارثة والد أُسامة وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك، فاوطئهم الخيل، فقد ولّيتك هذا الجيش فأَغِرْ صباحاً على أهـل أُبْنى وحرق عليهم، واسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقل اللبث فيهم، وخذ الأدلّاء، وقدِّم العيون والطلائع معك». وكان مع أُسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد. ثم عقد عليه الصلاة والسلام لأسامة اللواء وقال له: إغز باسم الله في سبيل الله وقاتل من كفر بالله. وقد انتقد جماعة على تأمير أُسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين، فأُبلغ الرسول هذه المقالة فغضب غضباً شديداً، وخرج فقال: أما بعد: أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تـأميـري أُسـامـة، ولئن طعنتم في تـأميـري أُسـامـة لقـد طعـنتـم في تأميري أباه من قبله؟! وايم الله إنه كان لخليقاً بالإمارة وإن ابنه من بعده لخليقٌ

(١) هي سرية زيد بن حارثة إلى أهل أبنى.
(٢) محل قريب من مؤتة. المؤلف.

بها، وإن كان لمن أحبّ الناس إليَّ[1]،وإنهما لمظنّة لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم. ولم يتم لهذا الجيش الخروج في عهد المصطفى ﷺ لأن المرض بدأه فاختاره الله للرفيق الأعلى. وسيرى القارىء إن شاء الله خروج هذا الجيش متمّماً في كتابنا «إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء».

مرض الرسول ﷺ

لما تمّم عليه الصلاة والسلام ما كُلِّفَ به، وأدى ما اؤتمن عليه، وهدى الله به أمته اختاره الله للرفيق الأعلى، فجلس على المنبر مرة، وكـان فيما قال: «إن عبداً من عباد الله خَيَّره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده» فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أَمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أُخوة الإسلام، لا يبقى في المسجد خَوخة إلا سُدَّت إلا خَوْخة أبي بكر»[2]. وقد بدأه عليه الصلاة والسلام مرضه في أواخر صَفَر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة، واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه المرض استأذن منهنّ أن يُمَرَّضَ في بيت عائشة الصديقية فأَذِنَّ له[3]،ولما دخل بيتها واشتد عليه وجعه قال: هَريقوا عليّ من سبع قِرَب لم تُحْلَلْ أوكيتهنّ لعلّـي أعهد إلى النـاس، فأُجلس في مِخضَب وصبّ عليه الماء حتى أشار بيده أن قد فعلتن[4]،وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب مَن يضع يده فوق ثيابه.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم. والخوخة: هي كورة تؤدي الضوء إلى البيت.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

صلاة أبي بكر بالنّاس

ولما تعذّر عليه الخروج إلى الصلاة قال: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس[1] فرضيه عليه الصلاة والسلام خليفةً له في حياته. ولما رأت الأنصارُ اشتدادَ وجع الرسول طافوا بالمسجد، فدخلَ العباس، وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج ﷺ متوكئاً على عليّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم والنبي معصوبُ الرأس يَخُطُّ برجليه، حتى جلس في أسفل مِرقاة المنبر، وثار الناس إليه فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيّكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث الله فَأُخلَّد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالعَصْرِ إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلاَّ الذِيْنَ آمنوا وَعَمِلوا الصَّالحات وتَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبْر﴾ [2] وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحْمِلَنَّكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عزّ وجلّ لا يعجِّل بعجلة أحد، ومن غَالَبَ الله غلبه، ومن خادعَ الله خدعه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُم إنْ تَولَّيْتُم أَنْ تُفسِدُوا في الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ﴾[3]وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم من الثمار؟ ألم يُوَسِّعُوا لكم في الديار؟ ألم يُؤْثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن وُلِّيَ أن يحكم بين رجلين فليقبلْ من مُحْسنهم وليتجاوز عن مسيئهم، ألا وتستأثروا عليهم، ألا وإني فَرَطٌ[4]لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحبَّ أن يَرِدَه عليّ غداً فليكفف يده ولسانه إلا فيما يبغي».

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة العصر.

(٣) سورة محمد الآية: ٢٢.

(٤) الفرط: فرط القوم يتقدمهم إلى الورد لإصلاح الحوض والدلاء

وبينما المسلمون في صلاة الفجر من يوم الإثنين ثالث عشر ربيع الأول وأبو بكر يصلي بهم إذا برسول الله ﷺ قد كشف سَجْفَ حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسَّم يضحك، فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عقبة ليصلَ الصَّفَّ، وظن أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله فأشار إليهم بيده أن أتمّوا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر(١).

وفاة رسول الله ﷺ

ولم تأت ضحوة هذا اليوم حتى فارق رسول الله ﷺ دنياه ولحق بمولاه، وكان ذلك في يوم الإثنين ١٣ ربيع أول سنة ١١ (٨ يونيو سنة ٦٣٣) فيكون عمره عليه الصلاة والسلام ٦٣ سنة قمرية كاملة، وثلاثة أيام، وإحدى وستين شمسية، وأربعة وثمانين يوماً، وكان أبو بكر غائباً بالسُّنْح وهي منازل بني الحارث بن الخزرج عند زوجه حبيبة بنت خارجة بن زيد، فسلَّ عمر سيفه، وتوعد مَنْ يقول مات رسول الله، وقال: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فلبثَ عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يُقَطِّع أيدي رجالٍ وأرجلَهم، فلما أقبل أبو بكر، وأُخبر الخبر دخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسول الله، فجثا يُقَبِّلُه، ويبكي، ويقول: توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حيّاً وميتاً بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين(٢). ثم خرج فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ألا من كان يعبدُ محمداً، فإنّ محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت» وتلا قوله تعالى: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾(٣)وقوله: ﴿وما مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) وفي رواية البخاري زيادة: «أما الموتة التي كُتِبت عليك فقد مُتَّها».

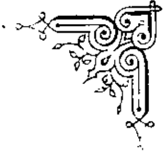
(٣) سورة الزمر الآية: ٣٠.

مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْه فَلَنْ يَضُـرّ الله شَيْئاً وَسَيَجزِي الله الشَّاكِرِيْنَ﴾[1]قال عمر: والله لكأني لم أتلُ هذه الآيـة قطّ. ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين وليلة الثلاثاء ويـومه وليلة الاربعاء حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة عليهم فَغُسِّلَ ودُفِنَ، وكان الذي يغسله عليٌّ بن أبي طالب، ويساعده العباسُ وابناه الفضل وقثم وأُسامة بن زيد وشُقْران مولى رسول الله، وكُفِّنَ في ثلاثـة أثواب بيض ليس فيهـا قميص ولا عمامة، ولما فرغوا من تجهيزه وُضع على سريره في بيته، ودخل الناس عليه أرسالاً متتابعين يُصَلُّون عليه ولم يؤمّهم أحد، ثم حُفِرَ له لحد في حجرة عائشة حيث توفي، وأنزله القبرَ عليّ والعباس وولداه الفضل وقثم، وَرَشَّ قبره بلال بالماء، ورُفع قبره عن الأرض قدر شبر.

توفي رسول الله ﷺ، وترك للمسلمين ما إن اتبعـوه لم يضرّهم شيء: كتاب الله الذي لم يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيـل من حكيم حميد، وترك أصحابه البررة الكِرام يوضِّحون الـدين، ويتمّمون فتـح البلاد، ويُظهرون في الدنيا شمس الدين الإسلامي القويم حتى يتمّم الله كلمته، ويحقَ وعده، وقد فعل، فنسأل الله أن يقدّرنا على أداء شكره على هذه المنّة العظمى والنعمة الكبرى.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤٤.



شمائله عليه الصلاة والسلام

منح الله سبحانه نبيّنا ﷺ من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممّن قبله أو بعده، ولا بدّ أن نأتي لك في هذا الباب[1] بنبذة يسيرة من محاسن صفاته وأحاسن آدابه، لتكون لك نموذجاً تسير عليه، حتى تكون على قدم نبيّك ﷺ، فتستحق الحمد في الدنيا والذخر في الأخرى. فاعلم أرشدني الله وإياك وهدانا للصراط السوي أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي: اقتضته الجِبلَّة[2] وضرورة الحياة، ومكتسبٌ ديني: وهو ما يُحمد فاعله ويُقَرِّبُ إلى الله زلفى. فأما الضروري: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب مثل ما كان في جبلَّته عليه الصلاة والسلام من كمال الخِلْقة، وجمال الصورة، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزّة القوم وكرم الأرض، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه. أما المكتسبة الأخروية: فسائر الأخلاق العلّية والآداب الشرعية من: الدين، والعلم،

(١) جلّ ما ذكر في الشمائل والمعجزات مختصر من كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله. المؤلف.

(٢) الجبلة: الخلقة التي خلق عليها.

والحِلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفّة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحُسن الأدب، والمعاشرة... وأخواتها وهي التي يجمعها حُسن الخُلق.

فإذا نظرت - رعاك الله - إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جِبلّة الخلقة، وجدته عليه الصلاة والسلام حائزاً لجميعها، محيطاً بشتات محاسنها. (فأما) الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حُسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه ﷺ كان: أزهر اللون[١]، أدعج[٢]، أنجل[٣]، أشكَل[٤]، أهدب الأشفار[٥]، أبلج[٦]، أزجّ[٧]، أقنى[٨]، أفلَج[٩]، مدوّر الوجهَ، واسِع الجبين، كَثّ اللحية تملأ صدره، سواء البطن، عظيم الصدر[١٠]، عظيم المنكَبين[١١]، ضخم العِظام، عَبْل[١٢] العضدين والذراعين والأسافل، رَحْب الكفّين والقدمين، سائل الأطراف[١٣]، أنوَر المتجرّد[١٤]، دقيق المسرُبة[١٥]، رَبْعة

(١) نيِّر اللون أو حسنه. المؤلف. قال الحافظ: أبيض مشرّباً بحمرة.
(٢) شديد سواد الحدقة مع سعة فيها. المؤلف.
(٣) واسع العين مع حسن. المؤلف.
(٤) في بياض عينيه حمرة، المؤلف.
(٥) كثير شعر حروف الأجفان. المؤلف.
(٦) مضيء الوجه مشرقه. المؤلف.
(٧) دقيق الحاجبين مع طول. المؤلف.
(٨) مرتفع قصبة الأنف مع احديداب يسير فيها. المؤلف.
(٩) مفرج بين الثنايا والرباعيات. المؤلف.
(١٠) الأصح أن يقول: سواء البطن والصدر.
(١١) المنكب مجمع رأس العضد والكتف. المؤلف.
(١٢) ضخم. المؤلف.
(١٣) أي تام.
(١٤) أي ما تجرد من بدنه أشرق من غيره.
(١٥) المسربة: شعر دقيق من الصدر إلى البطن. المؤلف.

القدِّ(١)، ليس بالطويل البائِن(٢)، ولا القصير المتردِّد(٣)، ومع ذلك فلم يكن يُماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طالَه ﷺ، رَجل الشعر(٤)، إذا افترَّ ضاحكاً افترّ عن مثل سَنا البرق وعن مثل حبِ الغمام، إذا تكلم رُئِي كالنُّور يخرجُ من بين ثناياه، أحسن الناسَ عُنُقاً ليس بمُطَهَّم(٥)ولا مكلثَم(٦)،متماسِك البدن، ضرب اللَّحم. قال البراء بن عازب: ما رأيتُ من ذي لِمَّةٍ(٧)سوداء في حلّة حمراء أحسن من رسُول الله ﷺ. وقال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجُدرُ(٨).وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر. وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بَديهة هَابَهُ، ومن خالطهُ معرِفةً أحبَّه يقول ناعِته: لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ.

(وأما) نظافة جسمه وطيب ريحه وعرَقه، ونزاهته عن الأقذار، وعورات الجسد(٩)،فكان قد خصَّه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم تمّمها بنظافة الشرع. قال عليه الصلاة والسلام بُنِي الدين على النظافة، وقال أنس: ما شَمِمت عنبراً قطّ ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ. وعن جابر بن سمرة أنه عليه الصلاة والسلام مسحَ خَدَّه، قال: فوجدت ليده بَرداً

---

(١) الربعة: المربوع.
(٢) مفرط الطول. المؤلف.
(٣) المتناهي في القصر. المؤلف.
(٤) رجل: أي ما بين الجعودة والسبوطة.
(٥) ليس بفاحش الـ من.
(٦) المكلثم: صغير الذقن. المؤلف. وفي القاموس: مجتمع لحم الوجه.
(٧) هي ما طال من شعر الرأس في أحد جانبيه، وقيل: ما جاوز من شعره شحمة الأذن.
(٨) أي أن نور وجهه الشريف يشرق إشراقاً يصل إلى الجدران المقابلة كما يكون ذلك من الشمس.
(٩) أي عيوبه.

وريحاً كأنما أخرجها من جُؤنة عطار(١). قال غيره: مَسَّها بطيب أو لم يمسّها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، يضع يده على رأس الصبي، فيُعرفُ من بين الصِّبيان بريحها، وروى البخاري في تاريخه الكبير عن جابر: لم يكن النبي ﷺ يمرّ في طريق فيتبعه أحد إلا عُرِف أنه سلكه من طيبه.

(وأما) وفُور عقلِهِ ﷺ وذكاء لُبِّه، وقوةُ حواسه، وفصاحةُ لسانه، واعتدالُ حركاته، وحسن شمائله، فلا مِرية(٢) أنه كان أعقلَ الناس وأذكاهم، ومن تأمَّل تدبيره أمْرَ بواطن الخلق، وظواهرهم وسياسته للعامة والخاصة، مع عجيب شمائله وبديع سِيَره فضلاً عمّا أفاده من العلم، وقرّره من الشرع، دون تعلّم سابق، ولا ممارسة تقدَّمتْ، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمترِ في رُجحان عقِله، وثُقُوب فهمه(٣) لأول بديهة. وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام في الصلاة يرى مَنْ خلفه كما يرى مَنْ أمامه، فُسِّر قوله تعالى: ﴿وتَقَلُّبَكَ في السَّاجِدِيْنَ﴾(٤) وقالت عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، وكان يَعُدُّ في الثُّريا أحد عشر نجماً، وجاءت الأخبار أنه صَرَعَ رُكانة(٥) أشدَّ أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام. وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ في مشية كأنما الأرض تُطوى له، إنّا لَنُجهِدُ أنفسُنا وهو غير مكترِث. وفي صفته عليه الصلاة والسلام أنَّ ضَحِكه كان تبسماً، إذا التفت التفتَ معاً، وإذا مشى مشى تقلُّعاً(٦)، كأنما ينحطّ من صَبب(٧).

---

(١) الجؤنة: سَفَطٌ كالقفة مُغَشّى بجلد لطيب العطار.

(٢) مرية: شك.

(٣) يقال ثاقب الفهم أو الرأي: أي ينظر إلى الأمور بدقة.

(٤) سورة الشعراء الآية: ٢١٩.

(٥) هو ركانة بن عبد يزيد بن هاشم القرشي.

(٦) التقلّع: أي إذا مشى كان يرفع رجليه رفعاً بائناً، ولا يمشي اختيالاً.

(٧) الصبب: ما انحدر من الأرض.

وأما فصاحةُ اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحلِّ الأفضل، والموضع الذي لا يُجهَل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أُوتي جوامِع الكَلِم، وخُصَّ ببدائعِ الحكم، وعُلِّم ألسنةَ العرب، فكان يُخاطِب كل أمةٍ منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويُباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله. من تأمل حديثه وسيرَه علم ذلك وتحقَّقه. وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقيال[1] حضرموت، وملوك اليمن، وعظماء نجد. بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ، وما انتهجته من طرق البلاغة ليُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليه، وليحدِّث الناس بما يعملون.

(وأما) كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة، فقد ألَّفَ النَّاسُ فيها الدواوين، وجُمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما يُوازي فصاحة ولا يباري بلاغة، كقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». وقوله: «الناس كأسنان المشط»، و «المرء مع من أحَبّ»، و «لا خير في صُحبة مَنْ لا يرى لك ما ترى له»، و «الناس معادن»، و «ما هلك امرؤ عرف قدره»، و «المستَشار مؤتمن»، و «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم». وقوله: «أسلِم تَسلم، وأسلم يُوتِك الله أجرك مرتين»، و «إن أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجالس يوم القيامة أحاسِنُكُم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يَألفون ويُؤلفون». وقوله: «لعلّه كان يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل بما لا يغنيه»، وقوله: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً». ونهيه عن «قيل وقال، وكثر السُّؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات»، وقوله: «اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة

(١) الأقيال: أي الأمراء. والقَيْل: يطلق على الملك في اليمن.

الحسنة تمحها، وخالق الناس بِخُلق حسن»، و «خير الأمور أوساطها». وقوله: «أَحِبب حبيبك هوناً مَّا، عسى أن يكـون بغيضك يـوماً مـا»، وقولـه: «الظلم ظلمات يوم القيامة». وقوله في بعض دعائه: «اللهمّ إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلمّ بها شعثي، وتُصلح بها غائبي وتُزكي بها عملي، وتُلهمني بها رُشدي، وتردّ بها ألفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهمّ إني أسـألك الفـوز في القضاء، ونُـزُل الشهداء، وعيشَ السعـداء، والنصـر على الأعداء». إلى غير ذلك مما رَوَتهُ الكافّة عن مقاماته، ومحاضراته، وخطبـه، وأدعيته، ومخاطباته، وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يُقاس بها غيره، وحاز سَبْقاً لا يُقْدَر قدره. وقد قال أصحابه: ما رأينـا الذي هـو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني، وإنما أُنْزل القرآن بلساني، لسان عربي مُبين»، وقال مرة أخرى: «أنا أفصح العرب بيدَ أني من قريش، ونشأت في بني سعد». جمع بذلك قوة عارضة(١) البادية وجزالتها(٢)، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلٓهي الذي مددُهُ الوحي الذي لا يُحيط بعلمه بشر.

(وأما) شرف نسبه، وكرم بلده، ومنشئه، فـمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مُشكلٍ، ولا خفي منه. فإنه نخبة بني هاشم وسـلالة قـريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزّهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة، من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده. وقد قدّمنا لك في أول الكتاب ما فيه الكفاية في هذا المقام.

أما ما تدعو إليـه ضرورة الحياة، فمنه ما الفضل في قلته، ومنه ما الفضل في كثرته، ومنه ما تختلف الأحوال فيه، فـالأول: كالغـذاء والنوم، ولم تَـزَلْ العرب والحكماء قديماً تتمادح بقلتهما، وتذم بكثرتهما لأن كثرة الأكل والشرب

---

(١) عارضة: حلاوة.

(٢) الجزالة: ضد الركاكة من الألفاظ، وهي القوة والمتانة.

دليل على النَّهم والحِرص، والشَّرة وغلبةُ الشهوة، مسبِّب لمضار الدنيا والآخرة، جالبٌ لأدواء الجسد، وخُثارة النفس[١]، وامتلاء الدماغ، وقلته دليل على القناعة، ومِلْك النفس. وقمع الشهوة، مُسَبِّب للصحة، وصفاء الخاطر، وحدّة الذِهن، كما أن النوم دليل على الفُسولة[٢]،والضعف، وعدم الذَكاء والفطنة مسبّب الكسل، وعادة العجز، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته. وكان عليه الصلاة والسلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل، وحضّ عليه قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه! حسب ابن آدم لقيمات يقمن صُلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه». ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب. وقالت عائشة رضي الله عنها: (لم يمتلىء جوف النبي ﷺ شبعاً قطّ، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهّاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِلَ، وما سقوه شرب). وفي صحيح الحديث: «أما أنا فلا آكل متكئاً» والإتّكاء :هو التَّمكن للأكل والتقعدد[٣]في الجلوس له كالمتربّع وشبهه من تمكُّن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه، والنبي عليه الصلاة والسلام إنما كان جلوسه للأكل جلوس المتسوفز مقعياً[٤]،ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»، وكذلك نومه كان قليلاً ومع ذلك فقد قال: «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي».

وأما ما الفضل في كثرته فكالجاه، وهو محمودٌ عند العقلاء عادة، وبقدر جاهه عِظَمه في القلوب، وقد قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيْهاً فى الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾[٥]وكان النبي ﷺ قد رُزِق الحشمة والمكانة في القلوب،

(١) خثارة النفس: ثقلها وعدم نشاطها.
(٢) أي كسل النفس، والفسل: كل مسترذل رديء.
(٣) التقعدد: التمكن والتثبت من القعود.
(٤) المستوفز: المسرع. والإقعاء: أن يجلس على إليتيه وينصب إحدى ساقيه.
(٥) سورة آل عمران الآية: ٤٥.

والعظمة قبل النبوّة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في أنفسهم خفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، كما ذكرنا ذلك مِراراً، وقد كان يُبْهَتُ ويَفْرَقُ لرؤيته مَنْ لم يره، كما روي عن قيلة[1] أنها لما رأته أرعدت من الفَرَق فقال: «يا مسكينة عليكِ السكينة». وفي حديث أبي مسعود «أن رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال له عليه الصلاة والسلام: هوِّن عليك فإني لست بملك».

وأما عظيم قدره بالنبوّة، وشريف منزلته بالرسالة، وإناقةرتبته[2] بالإصطفاء والكرامة في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم.

وأما ما تختلف فيه الحالات في التمدح به، والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله، ككثرة المال. فصاحبه على الجملة معظَّم عند العامّة لاعتقادها تَوصُّلَه به إلى حاجاته، وتمكّنه في أغراضه وإلا فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان بهذه الصورة، وصاحبه مُنفقاً له في مهماته، ومهمات من قصده وأمله يصرفه في مواضعه، مشترياً به المعالي والثناء الحسن، والمنزلة من القلوب. كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا. وإذا صرفه في وجوه البرّ، وأنفقه في سبل الخير، وقَصد بذلك الله تعالى والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه مُمْسكاً له، غير موجهه وجوهه، حريصاً على جمعه، عادت كثرته كالعدم وكان منقصة في صاحبه، ولم يقفْ به على جُدُدِ السلامة[3]، بل أوقعه في هوة رذيلة البخل، ومذمّة النذالة، فالتمدّح بالمال ليس لذاته بل للتوصّل به إلى غيره، وتعريفه في متصرفاته، ونبيّنا ﷺ أُوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحِلّت له الغنائم، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع

---

(١) هي قيلة بنت مخرمة التميمية من بني العنبر.

(٢) إنافة رتبته: أي رفعتها وظهورها.

(٣) أي طرائق السلامة.

جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشام العراق، وجُلب إليه كثير من أخماسها وجزيتها وصدقاتها، وهاداه(١)جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوّى به المسلمين، وقال: «ما يسرني أن لي أُحُداً ذهباً يبيت عندي منه دينار إلا ديناراً أُرْصِدُه لديني»(٢)وأتته دنانير مرة فقسَّمها، وبقيت منها بقية فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت». ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله(٣)،واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس في الغالب الشِّملة(٤)والكساء الخشن، والبرُدَ الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج(٥)المخوصة(٦) بالذهب، ويرفعُ لمن لم يحضر، فأنت ترى أن رسول الله ﷺ حاز فضيلة المال بالزهد فيه، وإنفاقه على مستحقيه.

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة وهي المسماة بحسن الخلُق فجميعها قد كانت خلق نبيِّنا ﷺ على الإنتهاء في كمالها، والإعتدال إلى غايتها حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾(٧)قالت عائشة: كان خُلُقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه. وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لأُتمّم مكارم الأخلاق»(٨)وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أحسنَ الناس خُلقاً. وكانت له هذه الآداب

(١) أي أرسلوا له الهدايا.
(٢) رواه البخاري.
(٣) عند يهودي إلى سنة في ثلاثين صاعاً من شعير.
(٤) الشملة: كساء يشتمل به، بأن يديره على جسده كله.
(٥) الديباج: فارسي معرب، وهو الثوب المزين.
(٦) أي المنسوجة.
(٧) سورة القلم الآية: ٤.
(٨) رواه الامام أحمد.

الكريمة كما كانت لإخوانه من الأنبياء جبلَّة خُلقوا عليها. ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادفُ نفحات الله عليهم، وتُشـرق أنوارُ المعـارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوّة في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة، وهذه الأخلاق المحمودة، والخصال الجميلة كثيرة ولكنّا نذكر أصولها. ونشير إلى جميعها. ونحقِّق وصفه عليه الصلاة والسلام بها إن شاء الله.

فأصل فروعها وعنصُر بنابيعها ونقطة دائرتها، العقل، الذي منـه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرّع عن هذا ثقوب الرأي، وجـودة الفطنـة، والإصابـة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهـوة، وحُسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائـل، وتجنُّب الرذائـل، وقد بلغ عليـه الصلاة والسلام منه من العلم الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه. يعلمُ ذلك من تَتَبِّع مجاري أحواله، واطّـراد سيره، وطـالعَ كَلِمـه، وحُسن شمائله، وبـدائع سِيَره، وحكم حديثه، وعـلمـه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء وسِيرَ الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسـة، والشيم الحميدة، إلى فنـون العلوم التي اتَّخذ أهلها كلامه فيها قدوة، وإشـاراته حجـة كالـطب والحساب والفـرائض والنسب وغير ذلك دون تعليم ولا مدارسة، ولا مـطالعة كتب من تقـدم، ولا الجلوس إلى علمائهم بل نبي أميّ لا يعـرف شيئاً من ذلـك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره وعلَّمه. وبحَسَب عقله كانت معارفه عليه الصلاة والسلام إلى سائر ما علَّمه الله، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته قال تعالى:

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيْماً﴾(١).

---

(١) سورة النساء الآية: ١١٣.

(وأما) الحلم والإحتمال والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكرهه، فمما أدّب الله به نبيّه ﷺ فقال: ﴿خُذ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرفِ، وأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلِيْنَ﴾(١)، وقد سأل عليه الصلاة والسلام جبريل عن تأويلها. فقال: يا محمد. إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حَرَمَكَ، وتعفو عمّن ظلمك، وقال له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمورِ﴾(٢). وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيْمٌ﴾(٣) وقال: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لِمنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(٤) وقد تضافرت الأخبار على اتّصافه عليه الصلاة والسلام بنهاية هذه الأوصاف، فما من حليم إلا عُرفتْ منه زلّة، وحُفظت عنه هفوة، ونبيّنا ﷺ لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً. قالت عائشة رضي الله عنها: ما خُيِّر عليه الصلاة والسلام في أمرين قطّ إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلاّ تُنْتَهك حرمة الله، فينتقم لله بها، ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أُحُد، وطُلبِ منه أن يدعو عليهم قال: «اللهمّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون». وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه واستهزؤوا به وأخرجوه من دياره هو وأصحابه، ثم قاتلوه، وحرّضوا عليه غيرهم من مشركي العرب، حتى تمالأ عليه جمعهم، ثم لما فتح الله عليه مكة ما زاد على أن عفا وصفح، وقال: ما تقولون: أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم فقال: اذهبوا فأنتم الطُلقاء. وعن أنس: كنت مع النبي عليه الصلاة والسلام وعليه بُرد غليظ الحاشية فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه ثم قال: يا محمد احمل لي على بعيريَّ هذين من مال الله الذي عندك،

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٢) سورة لقمان الآية: ١٧.

(٣) سورة النور الآية: ٢٢.

(٤) سورة الشورى الآية: ٤٣.

فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فسكت النبي ثم قال: المال مال الله، وأنا عبده، ثم قال: ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلتَ بي، قال: لا، قال: لِمَ؟ قال: لأنك لا تكافىء بالسيئةِ السيئةَ فضحك عليه الصلاة والسلام، ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر. قالت عائشة: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قطّ، ما لم تكن حُرْمَةً من محارم الله تعالى، وما ضربَ بيده شيئاً قطّ إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضربَ خادماً ولا امرأة، فصلى الله تعالى عليه، وأقرَّ عينه باتباع المسلمين سنّته.

(وأما) الجود والكرم والسخاء والسماحة، فكان عليه الصلاة والسلام لا يُوازى في هذه الأخلاق الكريمة، ولا يُبارى. وصَفَهُ بهذا كل مَن عرفه، قال جابر رضي الله عنه: ما سُئل عليه الصلاة والسلام عن شيء فقال لا، وقال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام أجودَ الناس بالخير وأجودَ ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجودَ بالخير من الريح المرسلة، وقالت خديجة في صفته عليه الصلاة والسلام مخاطبة له: إنك تحمل الكَلَّ، وتكْسِبُ المعدوم وحَسْبُك شاهداً في هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردِّ السبي إليها، وما فعله يومَ تقسيم السبي من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيمَ الأعطية. وقد استوفينا ذلك في موضعه وحُمل إليه عليه الصلاة والسلام تسعون ألفاً، فوضعها على حصير وأخذ يقسمها فما قام حتى فرغ منها. وجاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتَعْ عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه. فقال له عمر: ما كلَّفَكَ الله ما لا تقدرُ عليه، فكره ذلك عليه الصلاة والسلام، فقال له رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخفْ من ذي العرش إقلالاً، فتبسم عليه الصلاة والسلام وعُرِفَ البشرُ في وجهه وقال: بهذا أُمِرتُ. والأخبار بجوده وكرمه عليه الصلاة والسلام كثيرة يكفي منها لتعليمك ما ذكرناه.

(ومنها) الشجاعة والنجدة، فكان عليه الصلاة والسلام منهما بالمكان

الذي لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرّ الكماة[1] والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يَبْرَح، ومُقْبل لا يُدبر ولا يتزحزح، وما من شجاع إلا أُحصيت له فرّة، وحفظت عنه جولة، سواه. وحسبك ما فعله في حُنَيْنٍ[2] وأُحُد مما ذكرناه مستوفى. وقال ابن عمر: ما رأيتُ أشجعَ ولا أنجدَ ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ، وقال عليٌّ: إنّا كنّا إذا اشتد البأسُ واحْمرَّت الحَدَقُ اتقَّينا برسول الله، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً. وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أشجعَ الناس وأحسنَ الناس، وأجودَ الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلةً، فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت، فتلقاهم عليه الصلاة والسلام راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة[3] عُرْيٍ، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تُراعوا»[4].

(وأما) الحياء والإغضاء، فكان عليه الصلاة والسلام أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال أبو سعيد الخدري: كان عليه الصلاة والسلام أشدَّ حياءً من العذراء في خِدْرها. وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه، وكان عليه الصلاة والسلام لطيفَ البَشَرة، رقيقَ الظاهر، لا يُشَافِهُ أحداً بما يكرهه حياءً وكرمَ نفس. قالت عائشة: (كان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقلْ: ما بال فلان يقول كذا وكذا، بل يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟ ينهي عنه ولا يُسَمِّي فاعِله) وقالت رضي الله عنها: (لم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخاباً بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح).

---

(١) جمع كمي، وهو الشجاع.
(٢) رواه البخاري في المغازي.
(٣) هو زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي.
(٤) قوله: «لن تراعوا» هي كلمة تقال عند تسكين الروع تأنيساً.

(وأما) حسن عشرته وأدبه، وبسط خُلُقِه مع أصناف الخلق، فممّا انتشرت به الأخبار الصحيحة، قال علي رضي الله عنه: كان عليه الصلاة والسلام أوسعَ الناس صدراً، وأصدقَ الناس لهجة، وألينهم عريكة[1]، وأكرمهم عشرة. وكان عليه الصلاة والسلام يؤلّفهم، ولا ينفّرهم، ويكرم كريم كلِ قوم ويولّيه عليهم، ويحْذَر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره، ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نْصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكونَ هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخُلُقه، فصار له أباً، وصاروا عنده في الحق سواء بهذا وصفه ابن أبي هالة. وكان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يؤيس منه، قال تعالى: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلو كُنْتَ فَظّاً غَلِيْظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنّ حَولِكَ فاعفُ عَنْهُمْ واسْتَغفِر لَهُم وشَاوِرهُم في الأَمْر﴾[2] وقال تعالى: ﴿ادْفَع بالَّتي هيَ أَحْسَنُ فإذا الذي بَيْنَكَ وبَيْنَه عَداوةٌ كأَنَّهُ وليٌّ حَمِيْمٌ﴾[3] وكان عليه الصلاة والسلام يجيب من دعاه، ويقبل الهدية، ولو كانت كُراعاً[4]، ويكافىء عليها وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويلاعب صبيانهم، ويجلسهم في حِجره، ويجيب دعوة الحر والعبد، والأمة والمسكين، ويعُود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر. وقال أنس: ما التقم أحد أُذن النبي يحادثه فنحّى رأسه، حتى يكون الرجل هو الذي ينحّي رأسه، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر. وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ

---

(١) العريكة: النفس أو الطبيعة.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

(٣) سورة فصّلت الآية: ٣٤.

(٤) الكراع، بضم الكاف، في البقر والغنم دقة مقدم الساقين.

أصحابه بالمصافحة، لم يُرَ قطّ مادّاً رجليه بين أصحابه حتى يُضَيِّقَ بهما على أحد، يُكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزمُ عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويُكَنِّي أصحابه، ويدعوهم بأحبِّ أسمائهم تكرمةً لهم، ولا يقطعُ على أحد حديثه، حتى يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام، وكان أكثرَ الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً، ما لم يُنزل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب.

(وأما) الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد وصفه الله بها في قوله تعالى: ﴿عَزِيْزٌ عَلَيْه مَا عَنِتُّمْ حَرِيْصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤْمِنينَ رَؤوفٌ رَحِيْمٌ﴾(١) وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلناكَ إلا رَحْمَةً للعَالَمينَ﴾(٢) روي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال: أأحسنتُ إليك؟ قال الأعرابي، لا، ولا أجملتَ، فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كُفُّوا ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه وزاده شيئاً ثم قال: أأحسنتُ إليك؟ فقال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه الصلاة والسلام: إنك قلتَ ما قُلتَ، وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببتَ فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ، حتى يذهبَ ما في صدورهم عليك. قال: نعم، فلما كان الغد ـ أو العشي ـ جاء فقال عليه الصلاة والسلام إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعمَ أنه رضي أكذلك: قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: مثلي ومثلُ رجل له ناقة شردتْ عليه، فاتَّبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردّها، حتى جاءتْ واستناختْ، وشدَّ عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيثُ قال الرجلُ ما قال فقتلتموه دخل النار. وقال عليه

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ١٠٧.

الصلاة والسلام: (لا يُبَلِّغني أحد منكم عن أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر). وكان يسمعُ بكاء الصبي فيتجوَّزُ في صلاته. وعن ابن مسعود كان عليه الصلاة والسلام يتخوّلنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

(وأما) خلقه عليه الصلاة والسلام في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم، فروي عن عبدالله بن الحمساء قال: بايعت النبي عليه الصلاة والسلام ببيع، قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية، فوعدته أن آتية بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرتُ بعد ثلاث، فجئت، فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شققت عليّ، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك»! وكان إذا أُتيَ بهدية، قال: (اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحبّ خديجة) وكان عليه الصلاة والسلام يَصِل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. ووفدَ عليه وفد، فقامَ يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نكفيك؟ فقال: (إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم) وفي حديث خديجة: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنلك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسِب المعدوم، وتَقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(وأما) تواضعه عليه الصلاة والسلام، على علو منصبه ورفعة رتبته، فكان أشدَّ الناس تواضعاً، وأعدمهم كِبراً، وحسبك أنه خيِّر بين أن نبيّاً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، وخرج عليه الصلاة والسلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصا، فقاموا، فقال: (لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظِّم بعضهم بعضاً)، وقال: (إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد) وكان يركب الحمار ويُرْدِفُ خلفه، ويعود المساكين، ويُجالس الفقراء، ويُجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس جلس. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُطْروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا

عبد، فقولوا عبدالله ورسوله»[1]وحج عليه الصلاة والسلام على رَحْلٍ رثٍّ، وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم فقال: (اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة) هذا وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجه ذلك مائة بَدَنة، ولما فُتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كادَ يَمَسُّ قادمته[2]تواضعاً لله تعالى. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (دخلتُ السوق مع النبي ﷺ، فاشترى سراويل، وقال للوازن: زن وأرجح، ثم قال: فوثب إلى يد رسول الله ﷺ يقبّلها، فجذب يده، وقال: هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويلَ فَذهبتُ لأحمله قال: صاحبُ الشيء أحقّ بشيئه أن يحمله).

(وأما) عدله عليه الصلاة والسلام، وأمانته، وعفّته وصدق لهجته، فكان آمنَ الناس وأعدل الناس وأعفّ الناس وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادُّوه[3]وأعداؤه، وكان يُسمَّى قبل نبوّته الأمين، وقد قدّمنا ذلك في سيرته عليه الصلاة والسلام قبل النبوّة. وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: (ما لمستْ يده يدَ امرأة قطّ لا يملك رقّها) قال أبو العباس المبرّد: قسَّم كسرى أيامه، فقال: يوم الريح يَصْلح للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويوم المطر للهو والشرب، ويومُ الشمس للحوائج، ولكن نبيّنا عليه الصلاة والسلام جزَّأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزّأ جزأه بين الناس، فكان يستعين بالخاصّة على العامّة، ويقول: «أبلغوا حاجة مَنْ لا يستطيعُ إبلاغي، فإن من أبلغ حاجة مَنْ لا يستطيعُ إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر». وكان عليه الصلاة والسلام لا يأخذ أحداً بذنب أحد، ولا يصدق أحداً على أحد.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) قادمة الرحل: هي الخشبة التي في مقدمة كور البعير بمنزلة قربوس السرج.

(٣)أي مخالفوه.

(وأما) وقاره عليه الصلاة والسلام وصمته، وتؤدته، ومروءته، وحسن هديه. فكان عليه الصلاة والسلام أوقرَ الناس في مجلسه لا يكاد يُخرِج شيئاً من أطرافه، وكان إذا جلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه محتبياً. وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة. يُعرض عمّن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسماً، وكلامه فَصْلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضَحِكُ أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به، مجلسه مجلسُ حلم وحياء وخير وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تُؤبَنُ[1]فيه الحُرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. وقال ابن أبي هالة: كان سكوته ﷺ على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكّر، وقالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ يُحَدّثُ حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه، وكان يُحِبّ الطِّيب، والرائحة الحسنة، ويستعملها كثيراً، ويحضّ عليهما. ومن مروءته ﷺ نهيه عن النفخ في الطعام والشراب والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسِواك وإنقاء البراجم[2]والرواجب (مفاصل الأصابع من باطن الكف).

(وأما) زهده عليه الصلاة والسلام في الدنيا فقد قدّمنا لك فيه ما فيه الكفاية، وحسبك شاهداً على تقلُّلِهِ من الدنيا، وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها، أنه توفي عليه الصلاة والسلام، ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله. وهو يدعو ويقول: (اللهم اجعلْ رزقَ آل محمد قوتاً) وقالت عائشة رضي الله عنها: (ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله). وقالت: (ما ترك عليه الصلاة والسلام ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيراً، ولقد ماتَ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي) وقال لي: (إني عُرِض عليّ أن تُجعل لي بطحاء

---

(١) أي لا تذكر بقبيح.
(٢) مفاصل الأصابع.

مكة ذهباً فقلت: لا يا ربّ أجوعُ يوماً، وأشبع يوماً. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك). وقالت عائشة: (إن كنّا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلّا التمر والماء)[1] وعن أنس: ما أكل عليه الصلاة والسلام على خِوان[2] ولا في سُكُرُّجَةٍ[3] ولا خُبِزَ له مُرَقَّق ولا رأى شاة سميطاً[4] قطّ. وفي حديث حفصة: (كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مِسْحَاً[5] نثنيه ثنيتين. فينام عليه فثنيناه ليلة بأربع، فلما أصبح قال: ما فرشتم لي؟ فذكرنا له ذلك فقال: ردّوه بحاله فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي) وقالت عائشة: (لم يمتلىء جوف النبي عليه الصلاة والسلام شبعاً، ولم يبثّ شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحبّ إليه من الغنى). وإن كان ليظلُّ جائعاً يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه. ولو شاء سأل ربّه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغدَ عيشها. ولقد كنتُ أبكي رحمة له مما أرى به، وأمسحُ بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلَّغْتَ من الدنيا بما يقوتُك، فيقول: يا عائشة ما لي وللدنيا، إخواني ومن أُولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فَقَدِمُوا على ربهم فأكرمَ مآبهم، وأجزلَ ثوابهم. فأجدني أستحي إن ترفَّهْتُ في معيشتي أن يُقَصَّرَ بي غداً دونهم، وما من شيء أحبُّ إليّ من اللحوق بإخواني وأخلّائي) قالت: فما أقام بعدُ إلا أشهراً حتى توفي صلواتُ الله عليه وسلامه.

(وأما) خوفه من ربه، وطاعته له، وشدّة عبادته، فعلى قدر علمه بربه.

---

(١) وفي رواية الأسودان.

(٢) الخوان: هو ما يوضع عليه الطعام عند الأكل مرتفعاً على الأرض.

(٣) سكرجة: فارسية، الإناء الصغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأُدْم.

(٤) السميط: المشوي بجلده، وسمط الجدي: نتف عنه الصوف ونظفه من الشعر بالماء الحار ليشويه.

(٥) مِسْحاً: أي بساطاً من شعر.

ولذلك قال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أَطَّتْ (صوتت) السماوات وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله تعالى. لوددت أني شجرة تعضد) وكان عليه الصلاة والسلام يصلي حتى تَرِمَ قدماه فقيل له: أتُكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قَال: «أفلا أكون عبداً شكوراً!». وقالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل رسول الله ﷺ دِيمةً، وأيُكُم يطيق ما كان يطيق؟ وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم. وقال عوف بن مالك: (كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستاكَ، ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقمت معه فاستفتح البقرة، فلا يمرّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد، وقال مثل ذلك. ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك) وقال بعضهم:[1](أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل) وفي وصف ابن أبي هالة: كان متواصلَ الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة. وعن علي رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن سنته فقال: المعرفةُ رأس مالي، والعقلُ أصل ديني، والحبُّ أساسي، والشوقُ مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزنُ رفيقي، والعلمُ سلاحي، والصبرُ ردائي، والرضا غنيمتي، والعجزُ فخري، والزهدُ حِرفتي، واليقينُ قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرّة عيني في الصلاة، وثمرة فؤادي في ذكره، وغمِّي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي»[2]فجزاه الله من

---

(١) ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجد له إسناداً.

(٢) في الشفاء ج ١ ص ٢٨٠ عن عبد الله بن الشفير رضي الله عنه.

نبي عن أمته خيراً، ورحم الله عبداً تأمل في هذه الشمائل الكريمة والخِصال الجميلة فتمسك بها، واتبع رسول الله ﷺ ليحوز شفاعته يوم الفزع الأكبر ويرضى الله عنه، فنسألك اللهمّ التوفيق لما فيه الخير بمنِّك وكرمك يا أرحم الراحمين.

معجزاته عليه الصلاة والسلام

إذا تأمل المتأمل ما قدّمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم. وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خِصاله، وشَاهَد حاله. وصواب مقاله. لم يمترِ في صحة نبوّته. وصدق دعوته، وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه. والإيمان به كعبد الله بن سلام. فإنه قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه فلما استبنتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. وروى مسلم أنَّ ضِماداً لما وفد عليه قال له ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه من يهدِ الله فلا مُضِلَّ له. ومن يضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» فقال له ضِماد: أعِدْ عليّ كلماتِك هؤلاء، فلقد بلغن قاموس البحر، هاتِ يدك أُبايعك[1]. ولما بلغ ملكَ عُمان أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعوه إلى الإسلام قال: والله لقد دلّني على هذا النبي الأميّ أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهي عن شيء إلا كان أول تارك له، وإنه يَغلب فلا يَبْطُر، ويُغلَب فلا يَضْجَر، ويفي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي. وقال ابن رواحة:

(١) رواه مسلم.

لـو لـم تكن فيـه آيـات مبيَّنـة لكـانَ منـظره يُنبيـك بـالخبـر

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من المعجزات ما لا يفِي به العدّ فهو أكثر الأنبياء آيةً، وأظهرهم برهاناً، وسنذكر لك في هذا الفصل من الآيات ما تقرُّ به عينك، ويزداد به يقينك مما رواه الجمّ الغفير من الصحـابة رضوان الله عليهم، وأثبته المحدّثون في صحاحهم، ونبدأ منها بأظهرها شأناً، وأوضحها بياناً، وهو القرآن الشريف وإعجازه.

(إعلم) أن كتاب الله العزيز مُنْطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة:

أولها حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجـازه، وبلاغتـه الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن، وفرسانَ الكلام، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يُخَصَّ به غيرهم من الأمم، وأُوتوا من ذَرَابة[1] اللسان ما لم يُؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يُقيِّد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخِلْقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدْلُون به إلى كل سبب، يخطبون بديهاً في المقامات، وشديد الخَطْب، ويرتجزون[2] به بين الطعن والضرب، فيأتـون من ذلك بـالسِّحر الحـلال[3]، ويطوقـون من أوصافهم أجمل من سِمْط اللآل[4]، فيخدعـون الألباب، ويـذللون الصعاب، ويُذْهبون الإحن[5]، ويهيجون الدمن[6]، ويجرئون الجبان، ويصيرون الناقص

---

(١) الـذَّرب: الحادّ من كـل شيء، وذرب اللسان: حـدّته وسـلاطته. وأصـل معناهـا حـدة السيف والسنان.

(٢) أي ينشدون شعراً من بحر الرجز.

(٣) السحر: كل ما لطف مأخذه ودَقّ، ومنه «إن من البيان لسحراً» أن يأتوا بالكلام البليغ الذي تلذّ به النفوس، وتنجذب به القلوب.

(٤) أي الخيط الذي عليه تنظم حبّات العقد.

(٥) الإحن: الأحقاد.

(٦) أي عندما يندبون الأطلال بشعرهم، يهيّجون الأشواق الكامنة في قلوبهم.

حتى ص ٢٨٢

كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً، منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي، ومنهم الحضري، ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرّف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، وكلاهما له في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقِدحُ الفالج[1]، والمهيع الناهج[2]، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حَووا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعَلَوا صرحاً لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغثّ والسمين، وتقاولوا في القُل والكُثْر، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسولٌ كريم، بكتاب عزيز: ﴿لا يَأْتِيْهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾[3]، أُحكمت آياته، وفُصِّلت كلماته، وبهرت بلاغته العقولَ، وظهرتْ فصاحتهُ على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحَوَتْ كل البيان مجامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسنُ نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في الشعر والسجع ارتجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخاً بها في كل حين، ومقرعاً لهم بضعةً وعشرين عاماً على رؤوس الملأ أجمعين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾[4]﴿وَإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا

---

(١) القدح: واحد قداح وهو سهم الميسر، والفالج: الفائز.

(٢) المهيع: الطريق الواسع، والناهج: البيّن الواضح المسلوك.

(٣) سورة فصّلت الآية: ٤٢.

(٤) سورة يونس الآية: ٣٨.

وَلَنْ تَفْعَلُوا[1] ﴿قُــلْ لئِنِ اجْتَـمَعَـتِ الإِنْسُ والجِـنُّ على أَنْ يَـأْتُــوا بِـمِثْـلِ هَذا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلو كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْراً﴾[2] ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ﴾[3] فلم يزل يقرعهم ﷺ أشدّ التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفّه أحلامهم. ويحُط أعلامَهم، ويشتِّتُ نظامهم، ويـذم آلهتهم وآباءهم. ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته. محجمـون عن مماثلتـه. يخادعـون أنفسهم بالتشغيب بـالتكذيب، والإغتـراء بالإفتراء، وقولهم: ﴿إنْ هَذا إلاّ سِحْرٌ يُؤْثَر﴾[4]. ﴿وسِحْرٌ مُسْتَمِر﴾[5]. ﴿وإفْكٌ افْتَراه﴾[6]. ﴿وأَسَاطِيْرُ الأوَّلِين﴾[7] والمباهتة، والرضا بالدنية. كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ[7]، وفي أَكِنَّةٍمِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، وفي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[9] ﴿وَلاَ تَسْمَعُوا لِهَذا القُرْآنِ والْغَوا فِيْهِ﴾[10] والإدعاء مع العجز كقولهم: ﴿لَو نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذا﴾[11] وقدقـال لهم: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فما فعلوا ولا قـدروا، ومن تعاطى ذلك من سخافهم كمسيلمة كُشِفَ عواره لجميعهم. وسلبهم الله ما ألفوه من فصيـح كلامهم، وإلا لم يَخْفَ على أهـل الميز منهم أنـه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين، وأتوا إليه مذعنين، وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ في القِصَاص حَياة﴾[12] وقـوله: ﴿وَلَـو تَرى إِذْ

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٣ ـ ٢٤.
(٢) سورة الاسراء الآية: ٨٨.
(٣) سورة هود الآية: ١٣.
(٤) سورة المدثر الآية: ٢٤.
(٥) سورة القمر الآية: ٢.
(٦) سورة الفرقان الآية: ٤.
(٧) سورة الفرقان الآية: ٥.
(٨) سورة البقرة الآية: ٨٨.
(٩) سورة فصّلت الآية: ٥.
(١٠) سورة فصّلت الآية: ٢٦.
(١١) سورة الأنفال الآية: ٣١.
(١٢) سورة البقرة الآية: ١٧٩.

فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيْبٍ﴾(١) وقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِيْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَليٌّ حَمِيْمٌ﴾(٢)وقوله: ﴿وَقِيْلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيْضَ الماءُ وقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوتْ عَلى الجُوديِّ وقِيْلَ بُعْداً لِلْقومِ الظَّالمِيْنَ﴾(٣)وقوله: ﴿ فَكُلًّا أَخذْنَا بِذَنْبِهِ فمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرْضَ ومِنْهُم مَنْ أَغْرقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلكنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٤)وأشباهها من الآي، بل أكثر آيات القرآن، حققت ما بيّنته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وإنّ تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمّة، وعلوماً زواخر، مُلئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرة المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان آيةٌ لمتأمّله من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده، وتناصف وجوهه، كقصة يوسف على طولها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة تردّدها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا مُعاداة لمعاداها.

الوجه الثاني: من إعجاز القرآن، صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفتْ عليه مقاطع آية، وانتهتْ فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدٌ مماثلة شيء منه، بل حارَت فيه عقولهم، وتدلّهت(٥)

---

(١) سورة سبأ الآية: ٥١.
(٢) سورة فصّلت الآية: ٣٤.
(٣) سورة هود الآية: ٤٤.
(٤) سورة العنكبوت الآية: ٤٠.
(٥) تدلّهت: اندهشت.

دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من: نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر، والإعجاز بكل واحد من النوعين، الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباينٌ لفصاحتها وكلامها.

الوجه الثالث: من الإعجاز ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوقع، فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ المسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ الله آمِنِيْنَ﴾(١)وقوله: عن الروم: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِيْنَ﴾(٢) وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ على الدِّيْنِ كُلِّهِ﴾(٣) وقوله: ﴿وَعَدَ الله الّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعمِلُواالصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمكِّننَّ لَهُمْ دِيْنَهُمُ الذي ارْتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهم مِنْ بَعْدَ خَوفِهِم أَمْنـاً﴾(٤)وقوله: ﴿إذَا جَاءَ نَصْرُ الله والفَتْحُ وَرأيْتَ النَّاسَ يَدْخُلونَ في دِيْنِ الله أفْواجاً﴾(٥)فكان جميع هذا كما أخبر فغلبتِ الرومُ فارسَ، ودخل الناسُ في الدين أفواجاً، واتسعَ مُلْك المسلمين حتى كان لهم في وقت من أقصى بلاد الأندلس غرباً إلى أقاصي الهند شرقاً، ومن بلاد الأناضول شمالاً إلى أقاصي السودان جنوباً(٦)وقوله: ﴿إنَّانَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لحَافِظُون﴾(٧)فكان كذلك إلى الآن والحمد لله وقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾(٨)فكان

(١) سورة الفتح الآيـة: ٢٧.

(٢) سورة الروم الآية: ٣ ـ ٤.

(٣) سورة الصّف الآية: ٩.

(٤) سورة النور الآية: ٥٥.

(٥) سورة النصر الآية ١ ـ ٢.

(٦) رواه مسلم في الفتن قال: «إن الله زوى (جمع) لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها».

(٧) سورة الحجر الآية: ٩.

(٨) سورة القمر الآية: ٤٥.

كذلك في بدر والآية نزلت بمكة وقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[1] فكان كذلك مما اطّلع عليه قارىء هذه السيرة، وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم في حلفهم كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ﴾[2] وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ﴾[3] وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات البيّنات.

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشراع الدائرة[5]، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذّ[6] من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلّم ذلك، فيورده عليه الصلاة والسلام على وجهه، ويأتي به على نصه، فيقرُّ العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه ﷺ أُميّ، لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة، لم يغب عنهم، ولا جَهِلَ حالَه أحد منهم، وكثيراً ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا، فينزلَ عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً كقصص الأنبياء، وبدء الخلق، وما في الكتب السابقة مما صدّقه فيها العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذُكر منها، ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً، ولا سقيماً من صحفه، بعد أن قرّعهم ووبّخهم بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[7]. وممّا يدلّ على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه ما تحدّاهم فيه الله بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً

(١) سورة التوبة الآية: ١٤.
(٢) سورة المجادلة الآية: ٨.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٥٤.
(٤) سورة النساء الآية: ٤٦.
(٥) الدائرة: أي الدارسة، التي لم يبق لها أثر.
(٦) الفذ: الفرد المنفرد عن أقرانه.
(٧) سورة آل عمران الآية: ٩٤.

مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتمنَّوُا الموْتَ إنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ﴾[1]ثم حتم عدم إجابتهم بقوله: ﴿ولَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبداً بِمَا قَدّمتْ أَيدِيْهِم﴾[2]فما سمع عن أحد منهم أنه تمنى ذلك ولو بلسانه، مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه. ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم للمباهلة فأبوا، وقد قدّمنا ذلك في فصل وفودهم.

ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر: الرّوعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، لقوّة حاله، وإنافة[3]خطره، حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً[4]، ولهذا قال ﷺ: «إن القرآن صعب مستصعَب على مَن كرهه، وهو الحكم». وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه إقبالاً، وتَكْسِبُهُ هشاشة[5]لميل قلبه إليه وتصديقه به. قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِيْنَ يَخْشَونَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلِينُ جُلودُهُمْ وَقُلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله﴾[6]وقال تعالى: ﴿لَو أَنْزَلنا هَذاالقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأيْتَهُ خَاشِعاً مُتصدِّعَاً مِنْ خَشْيةِ الله﴾[7]ومن وجوه إعجاز القرآن كونه آية باقية لا تَعْدَمُ ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه فقال: ﴿إنّا نَحْنُ نَزَّلنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لحَافِظُونَ﴾[8]وقال: ﴿لاَ يَأتِيه البَاطِلُ مِنْ بَيْنَ يَديهِ وَلا مِنْ خَلْفِه﴾[9]وسائر معجزات الأنبياء لم يبق إلا خبرها[10]، والقرآن إلى وقتنا هذا حجة قاهرة، ومعارضة ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام،

---

(١) سورة البقرة الآية: ٩٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٩٥.

(٣) أي علو مرتبته.

(٤) كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً﴾. الإسراء الآية: ٤٦.

(٥) أي مسرّة وخفّة.

(٦) سورة الزمر الآية: ٢٣.

(٧) سورة الحشر الآية: ٢١.

(٨) سورة الحجر الآية: ٩.

(٩) سورة فصّلت الآية: ٤٢.

(١٠) أي أنها انقضت بانقضاء أوقاتها.

وجهابذة(١) البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد(٢)، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألّف كلمتين في مناقضته، ولا قدر على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلفُ من ذهنه في ذلك إلا بزَند شحيح(٣)، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه، والنكوص على عقبيه.

ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه الصلاة والسلام في القرآن قال: «إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً. وسنّة خالية، ومثلاً مضروباً، فيه نبؤكم، وخبر من كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحُكْمُ ما بينكم، لا يُخْلِقُه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج(٤)، ومن حكم به أقسط، ومن عمل به أُجِرَ، ومن تمسك به هُديَ إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله، ومن حَكَمَ بغيره قَصَمه الله، هو الذكرُ الحكيم، والنورُ المبين، والصراطُ المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاءُ النافعِ، عصمة لمن تمسك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يعوج فيقَوَّم، ولا يزيغ فيستعتب»(٥).

(ومن) معجزاته ﷺ انشقاق القمر(٦) وقد قدّمنا مستوفى.

(ومن) معجزاته ﷺ نبع الماء من بين أصابعه، وتكثيرهُ ببركته، وقد روى هذا الجمُّ الغفير من الصحابة، منهم أنس وجابر وابن مسعود، قال أنس: رأيتُ رسول الله ﷺ وقد حانتْ صلاة العصر، فالتمسَ الناس ماءً للوضوء، فلم يجدوه، فأُتي النبي ﷺ بِوَضوء، فوضع في الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا

(١) الجهبذ: النقّاد الخبير.
(٢) عتيد: حاضر في كل وقت للعدوان.
(٣) الزند الشحيح: الذي لا يَرِيْ ولا يقدح.
(٤) أي فاز وظفر بالغلبة.
(٥) رواه الترمذي.
(٦) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأحمد عن ابن مسعود.

منه. قال: فرأيتُ الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناسُ حتى توضؤوا عن آخرهم، فقيل: كم كنتم؟ قال زهاء ثلاثمائة. وقال ابن مسعود: بينما نحن مع النبي ﷺ، وليس معنا ماء، فقالَ لنا اطلبوا من معه فضلُ ماءٍ، فأُتي بماء، فصبّه في إناء، ثم وضعَ كفّه فيه فجعل الماءُ ينبع من بين أصابعه. وقال جابر: عطش الناسُ يوم الحُدَيبية ورسول الله بين يديه رَكوةٌ[1] فتوضأمنها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع يده في الرَّكوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون: قيل كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنّا خمس عشرة مائة[2]، وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة، ومثل هذا في هذه المـواطن الحفيلة، والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمة إلى المحدّث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جُبلت عليه نفوسُهم من ذلك، ولأنهم كانوا ممّن لا يسكتُ على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا، وأشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له، ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدَّثوا به عنهم أنهم فعلوه، وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم لهم.

ومما يشبه هذا تفجير الماء ببركته، وانبعاثه بمسّه ودعوته، كما ورد عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهي تلمعُ بشيء من ماء مثل الشِّراكم[3]، فغرفُوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء. ثم غسل عليه الصلاة والسلام فيه وجهه ويـديه، وأعـاده فيها، فجـرت بماء كثيـر، فاستقى الناس. وفي رواية ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحسِّ الصواعق ثم قال: (يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هنا قد مليء جناناً) وقد قدّمناه ذلك في غزوة تبـوك. وروي عن البَراء وسلمـة بن الأكوع تكثيـر عين الحدَيبية بدعوته عليه الصلاة والسلام. وروى أبـو قتادة أن النـاس شَكَوا إلى

(١) إناء للماء من جلد كالإبريق.
(٢) الأصحّ أربع عشرة مائة.
(٣) الشراك: سير النعل الذي يكون على وجهه، وشبّهه به لقلته.

رسول الله العطش في بعض أسفاره فدعا بالميضأة[1] فجعلها في ضِبْنه[2] (ما بين الكشح إلى الإبط) ثم التقم فمها، فالله أعلم أنفث فيها أم لا. فشرب الناس حتى رَوُوا وملؤوا كل إناء معهم، فخيّل لي أنها كما أخذها مني. وكانوا اثنين وسبعين رجلاً. ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم في محالٍّ مختلفة بحيث لا يشك أحد في صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها.

(ومن) ذلك تكثير الطعام ببركته ودعائه ﷺ، روى أبو طلحة[3] أنه عليه الصلاة والسلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير، جاء بها أنس تحت إبطه، فأمر بها عليه الصلاة والسلام ففُتّت وقال فيها ما شاء الله أن يقول. وروى جابر أنه عليه الصلاة والسلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعَنَاق[4]، وقال جابر: فأُقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرْمَتنا[5] لَتَغِطُّ[6] كما هي. وإن عجيننا ليخبز. وكان عليه الصلاة والسلام قد بَصَقَ في العجين والبرمة وبارك. وروى أبو أيوب أنه صنع لرسول الله وأبي بكر طعاماً يكفيهما، فأطعم منه عليه الصلاة والسلام مائة وثمانين رجلاً. وروى مثل ذلك كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن أبي بكر، وسلمة بن الأكوع، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب، وأنس بن مالك، رضوان الله عليهم أجمعين.

(ومن) معجزاته عليه الصلاة والسلام قصة حنين الجذع، قال جابر بن عبدالله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان عليه الصلاة والسلام إذا

---

(١) الميضأة: آلة الوضوء.

(٢) الضبن: ما تحت الإبط.

(٣) هو زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري الخزرجي.

(٤) العناق: الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة.

(٥) البرمة: هي قدر من حجارة.

(٦) تغط: أي أن القدر تصوّت من شدّة غليانها.

خطب يقول إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار[1]. وفي رواية أنس: حتى ارتجَّ المسجد لخواره، وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوه به. وفي رواية المطلب: وانشق حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت. زاد غيره: فقال عليه الصلاة والسلام إنَّ بكى لما فقد من الذكر. وزاد غيره: (والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة) تحزناً على رسول الله ﷺ فأمر به فدفن تحت المنبر، وهذا الحديث خرَّجه أهل الصحة[2]، ورواه من الصحابة كثيرون، ورواه عنهم من التابعين ضِعفُهم، وبمن دون عدّتهم يقع العلم لمن عُنِيَ بهذا الباب، والله المثّبِّت على الصواب.

(ومن) معجزاته عليه الصلاة والسلام إبراء المرضى، وذوي العاهات، فقد أُصيبت يوم أُحُد عينُ قتادة بن النعمان[3] حتى وقعت على وجنته، فردّها عليه الصلاة والسلام، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما، وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قَرَد، فما ضرب عليه ولا قاح، وأصاب ابن ملاعب الأسنّة[4] استسقاء فبعث إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فأخذ بيده حَثْوَةً من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله فأخذها متعجباً يرى أنه قد هُزِئَ به، فأتاه بها وهو على شفىً[5] فشربها فشفاه الله، وتقدم حديث علي ورمده في غزوة خيبر، وغير ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عدّه، ورواه ثقات المسلمين الأعلام.

(أما) ما منحه الله إياه من إجابة دعواته، فروي عن أنس بن مالك قال:

---

(١) العشار: الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية أو هي كالنفساء من النساء.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) هو قتادة بن النعمان الأوسي، أخو أبي سعيد الخدري لأمه يكنى أبا عمر الأنصاري شهد بدراً وعاش خمساً وستين سنة.

(٤) ملاعب الأسنة هو: عامر بن مالك بن جعفر العامري أبو براء.

(٥) المريض على شفىً: أي قريب من الموت.

قالت أمي أُمّ سُليم: يا رسول الله خادمك أنس. ادعُ الله له، فقال: اللهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته، قال أنس: فوالله إنَّ مالي لكثير، وإنَّ ولدي وولد ولدي لَيُعادّون[1] اليوم نحو المائة، ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانين ألفاً، وتصدق مرّة بِعير[2] فيها سبعمائة بعير، وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدّق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها[3].

(ودعا) لمعاوية بالتمكين في الأرض فنال الخلافة، ودعا لسعد بإجابة الدعوة، فما دعا على أحد إلا استجيب له، وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب أن يعزّ الإسلام به، وقال لأبي قتادة: أفلحَ وجهك اللهمّ بارك في شعره وبشره، فمات، وهو ابن سبعين سنة، كأنه ابن خمس عشرة، ودعواته عليه الصلاة والسلام المستجابة أكثر من أن تُحصى يطّلع عليها قارىء سيرتنا هذه.

(أما) ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن فمما سارت به الركبان، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (قام فينا رسولُ الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلّا حدّثه حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل وإذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، وما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك عليه الصلاة والسلام من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلّا قد سمّاه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته)، وقد خرَّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى

---

(١) أي يعدّ بعضهم بعضاً.

(٢) أي بقافلة.

(٣) أقتابها جمع قتب وهو الرجل الصغير على قدر سنام البعير وأحلاسها جمع حلس: كساء يلي ظهر البعير تحت القتب.

تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة، لا تخاف إلّا الله، وأن المدينة ستُغزى، وتُفتح خيبر على يد علي في غد يومه، وما يفتح الله على أمّته من الدنيا، ويُؤتَون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وقد قدّمنا كثيراً من ذلك في هذه السيرة، وقدّمنا ما في القرآن من ذلك، وهذا يُغنينا عن الإطالة في هذا المقام فحسبك ما سمعت.

(ومما) ينير بصيرتك أيها القارىء ما مَنّ الله به على رسولنا من عصمته له من الناس، وكفايته من آذاه! قال تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1]

وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾[2] وقال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[3] وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِين﴾[4] ولما نزل: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ صرف حُجَّابه، وقال: انصرفوا فقد عصمني الله، وقدّمنا حديث دُعثور وإرادته قتل النبي ﷺ، وعصمة الله لنبيّنا، وذكرنا كثيراً مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكايد، فكفاه الله شرّه، وما منّ به عليه ليلة الهجرة، وحديث سُراقة في الطريق، وعلى الجملة فيكفينا من هذا الباب أنه عليه الصلاة والسلام مكث بين أعداء ألدّاء بمكة ثلاث عشرة سنة، وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشر سنين. فما تمكن أحد من إيصال أذى إليه ﷺ بل كفاه مولاه شرّ أعدائه حتى أظهر الدين وتمّمه.

والحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافىء مزيده، ونسأله أن يوفّق قارئي هذه السيرة إلى اتّباع رسول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره.

تم الكتاب بعونه تعالى

---

(١) سورة المائدة الآية: ٦٧.

(٢) سورة الطّور الآية: ٤٨.

(٣) سورة الزمر الآية: ٣٦.

(٤) سورة الحجر الآية: ٩٥.

المحتويات